

أُمِيرُ الْجَمْعِ آتَا السَّبْعَةَ

رواية

عمار المصري



رواية

أمير البحار السبعة

تأليف:

عمار المصري

إهداء إهداء إلى أمي وأبي من أعطيني الحياة والشغف للاستمرار والتطور
إلى الأفضل.

وإلى زوجتي التي ملأت حياتي بهجة وسرورًا، عسى الله أن يجعل لنا حياة
طيبة وذرية صالحة تخلفنا

وإلى حمواي الذين أكرماني وساعداني في تخطي الكثير من العقبات في
حياتي، عسى الله أن يجعل حياتكما مليئة بالخير.

وإلى رفيق الدرب أحمد المهدي والذي شجعني كثيرًا في هذا المجال المليء
بالعقبات

وإلى صديقي العزيز حمزة ماهر الذي لولاه لما خرج هذا العمل إلى النور
بهذه الجودة واللغة والذي شاركني الكثير في نسج هذا العالم الخصب
وقصصه التي لا تتضب.

وإلى صديقي طيب القلب وعبقري التاريخ سيد صبري والذي قرأ أعماله
عدة مرات بكل شغف وشجعني كثيرًا برأيه

وإلى إخوتي وأصدقائي من قرأ أعماله وشاركاني أحزاني وأتراحي "علي
وسلمان". وإلى كل أصدقائي الذين جعلوا حياتي مفعمة بالحياة وتعلمت
منهم الكثير بكفاحهم المستمر ضد صعاب الحياة.

وإلى صديقي أسامة الفرت الذي أفادني بملاحظاته كثيرًا في كل أعماله.

وإلى صديقي رامي جمال الصديق الوفي الذي أفادني بالكثير من النقاشات
المثمرة معه.

وإلى: مصدق الطيب – كاظم عماد – عمر محمد – أحمد حسام – محمود
مجدي – أحمد السيد أبو مكي – عمار جمال

وأعضاء الجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي: دكتور عماد الدين عيشة
الذي ألهمني بالكثير من الأفكار

دكتور حسام الزمبيلي مؤسس الجمعية

المهندس محمد نجيب ودكتورة قدرية سعيد وأستاذ خالد جودة أعمدة النقد
في الجمعية.

وفرزُ النفوس كفرزِ الصّخور ... ففيها النفيس وفيها الحجر

وبعضُ الأنام كبعض الشّجر ... جميلُ القوامِ شحيحُ الثّمَر

وبعضُ الوعودِ كبعض الغُيوم ... قويّ الرعودِ شحيحُ المطر

وكمّ من كفيفٍ بصيرِ الفؤاد ... وكم من فؤادٍ كفيفِ البصر

وكمّ من أسيرٍ بقلبٍ طليق ... وكم من طليقٍ كواه الضّجر

وكم من شهابٍ بعالي السّماء ... بطرفةٍ عينٍ تراه اندثر

وما كلّ وجهٍ مضيءٍ يدور ... بعتمةٍ ليلٍ يسمّى قمر

وخيرُ الكلامِ قليلُ الحروف ... كثيرُ القطوفِ بليغُ الأثر

فقطرةُ ماءٍ مراراً تدقُّ ... على الصّخرِ حتى تشقُّ الصّخر

ولو لم تهزّ الرياحُ الزهورَ ... لما فاحَ عطرٌ وماتَ الزّهَر

أبو العتاهية

التآمر

جلست شهرزاد على سريرها المزين بأجود أنواع الديباج وعبق البخور
يملاً الحجرة والقناديل قد أضاءت شطراً منها، وسرعان ما دخل عليها
شهريار متلهفاً لسماع قصة جديدة تدفع عنه الضجر وتُبعد عنه السأم،
وتصبره يوماً آخر على قتل شهرزاد كما فعل مع من قبلها.

جلس على حافة السرير وقال:

- أيّ قصة ستقصين عليّ اليوم يا شهرزاد العزيزة.

تبسمت شهرزاد وقالت:

- قصة ليست ككل القصص.

خلع شهريار عمامته وقال:

- كلي آذان صاغية.

قالت شهرزاد:

- إذن إليك قصة أمير البحار السبعة.

في يومٍ ما في مرفأ بغداد، حيث الجو ضحى والسحاب مُلبد في السماء، وحيث مسجد ذي أعمدة تيجانها مُزخرفة وقباب ومآذن مخروطية متوجة بشُرْفٍ من نِصال، وهناك مبانٍ ذات ألواح خشبية مرصعة بالعاج المنقوش، وبعض جدر هذه المباني مكسي بالفسيفساء وتزينه النباتات، وتزخر المباني بالأقواس العربية، والزخارف الهندسية والنباتية، والمقرصنات التي تُشبه خلايا النحل في تدليها بعضها فوق بعض، وهناك أبراج مربعة من الحجارة ذات نوافذ مقوّسة، وهناك منارة تقف شامخة كالطود تجمع في تصميمها بين التضليع والتدوير، وبين المباني تجد النخيل يضيء روحًا على المكان، وعلى الرصيف تستقر صناديق خشبية وبراميل، والناس يصيحون منهم بحارة ومنهم حاملون يحملون البضائع ولفات الحبال وحزم المجاديف على السفن، والبضائع على السفن تختلف أنواعها من بخورٍ وتوابلٍ ومنسوجاتٍ حريرية وبُسط وزرابي وإسكمالات وأوانٍ من خزف، والسفن منها الصغيرة والكبيرة، منها الجاهزة للركوب ومنها الراقدة المقلوبة للصيانة، ومنها التي في طور التصنيع يدقها العمال دقًا كي تبرز من عالم المعنى إلى عالم المادة، والنقاشون من حولهم يزخرفونها بطابعٍ عربي فارسي، والصيادون تعلو أصواتهم ينادون على بضائعهم من أسماكٍ مختلفٍ ألوانها وأشكالها.

وفي هذا المشهد كان سندباد يمشي بين بغداد البديعة عاصمة الأرض ومنبع العلم والمعرفة في زمانه، بغداد التي كانت تحكم العالم جميعًا ويركع أمامها الأباطرة والملوك، لكنها تمزقت مع تمزق العالم القديم بهزة قوية جاءت من المجهول ودكت الأرض دكًا فتقسمت القارات إلى جُزرٍ بعضها كبير والآخر

صغير، فهناك جزر الشام وجزر العراق وجزر السودان وجزر المهراجا والهند والأندلس وغيرها الكثير. لقد تقسم العالم القديم وانتشرت القنوات والبحار بينه انتشار الضباب في الليالي الباردة، إلا أن الانقسام في الأرض أدى إلى انقسام في النفوس، فتنازع الناس وتفرقت الأمم إلى جزرٍ مستقلة أو دولٍ مستقلة ينحر بعضها بعضًا ويقتتلون لأسباب لا تحصى ولا تُعد، وفي خضم نزاعهم الذي قسم الخلافة العباسية، ظهر عصر الوحوش والعجائب، واندفعت الكائنات العجيبة تملأ الأرض وما عليها. كائناتٌ لم يرى الإنسان مثيلاً لها قط منذ أن وطأ بقدمه العفراء. عمّ الهلع واقتربت الوحوش البشر، وبعضها أكل النبات حتى ظهر الصيادون وبدأوا عصر الصيد الكبير. كان الصيادون فئة من المحاربين الأشداء الذين نذروا أنفسهم لصيد الكائنات العجيبة التي ملأت الأرض وصد عدوانها عن أراضي الأمة، وسرعان ما استعان بهم الأمراء والخلفاء ليحموهم وضياعهم وأرضهم من فتك الوحوش فلبوا النداء وظفروا بالكثير من الوحوش بعد أن طوروا مهارات جديدة في القتال لم يرها إنسي قط، وأظهروا بأساً وجلداً جعلهم محط الأنظار والاحترام والتبجيل. كانت الوحوش تحمل اللحم الوفير والكنوز النفيسة وأضحت تباع وتشترى جلودها بأبهيظ الأثمان إذ كانت تدخل في صناعة مدبوغاتٍ دقيقة جديدة لم توجد قبلهم قط، وصناعة أسلحة عتيبة لا تُبقي ولا تذر، ودخلت أجسادهم في شتى الاستعمالات المختلفة. ولا ريب أن الغاية السامية حين تدخل بها التجارة تفسد وتضمحل، وذاك ما أصاب مهنة الصيد الذي ما انفك يُقاتل لحماية الناس. سرعان ما زادت ثروة الصيادين وأمسوا فاحشي الثراء يتقلبون في الدنانير والذهب تقلب الليل والنهار. غدر أمراء الصيادين بالخلفاء والملوك وحلوا محلهم وصاروا هم أمراء الجزر وظهر ما أطلقوا عليه عصر أمراء الحرب.

خمسة أمراء من الصيادين يحكمون العالم الإسلامي ويتناحرون بينهم ليبسط كلّ منهم سيطرته على الأرض ليطلق على نفسه لقب الخليفة، لكن توازن القوى بينهم جعل النزاع طويلاً حتى أهلكوا الحرث والنسل وانتشر الفقر وأغرق الناس، وساد الفساد في البر والبحر وظلت الوحوش تهجم على الناس فلا يجد الناس من ينافح عنهم ويدفع عنهم السوء، لأن كلّ صياد مشغول بحماية أرضه من أخيه الصياد الذي يطمع فيها.

تأمل سندباد بغداد بعد أن خفت جمالها وتألقتها من هول ما وقع بها من ظلم وشعر بغصة في حلقه، لكنه كان صيادًا عظيمًا يشغله صيد الوحوش عن صيد المال والكنوز إلا أن الناس كانوا يهابون الصيادين ويتحاشونهم، فإذا سلك الصياد دربًا أو قطع واديًا سلك الناس دربًا غيره، خوفًا من أن يبطش بهم إن أخطأوا أمامه. لكنّ سندباد حاز على حب الناس لأنه من الصيادين اللقّة الذين أخذوا على عاتقهم حمايتهم من وحوش البحر والبر، ولكنّ الناس أحيانًا يخطئونه ولا يعرفونه حين يبصرونه لكثرة مكوثه في البحر؛ فيعاملونه بخشية ورهبة ككل الصيادين.

تنهد سندباد وتلحف بثوب صيده الأسود المزخرف بأزهى أشكال الورود والزهور. كان يرتدي قميصًا أسودًا عليه عباءة سوداء طويلة تكاد تلامس الأرض أكمائها واسعة، وعمامة من ثلاثة طبقات الأولى بيضاء والثانية زرقاء والثالثة سوداء، تمتد حتى أسفل رقبتة ومنتصف جبهته؛ ريثما يخرج من العمامة ريشة ذهبية اقتنصها من العنقاء حين ذبحها في معركة عظيمة يتحاكى بها أهل بغداد، ويلبس حذاءً أسودًا من جلد العنقاء الفاخر. مر بين حوارى بغداد واضعًا يده على سيفه ذي المقبض الذهبي المزخرف خوفًا من أن يبطش به بعد القتلّة الذين يرسلهم قادة الصيادين لاغتيال بعض الغرماء أو بعض الناس ممن سلّبت حقوقهم.

أبصر بعينه الأسواق عن يمينه وشماله وشم رائحة التوابل النفاذة مختلطة بالعطور الزاهية، وتأمل الأواني الخزفية البهية والسجاد والحرير، ورأى والأنعام تُساق، والنساء يتحسسن الحرير في الدكاكين بأيديهن، والأطفال يلعبون بين الأزقة، ورائحة الخوخ والتفاح والرمان تملأ ربوع السوق.

أبصر سندباد حراس المدينة ضخام الجسد من جنس البكتاش، وإنه جنسٌ ضخم الجثة عظيم البنيان طويل الجسد إذ يتجاوز طولهم ضعف طول أطول البشر قامة وعرضهم أعرض البشر قوة وصلابة، وقوتهم عظيمة حين يبطشون. أعينهم بيضاء ووجوههم سوداء مستديرة كسواد الليل ولا يملكون

آذانًا إذ لا يسمعون، وإن السودان¹ مقارنة بهم بيض البشرة. لا يملكون شعرًا فوق رؤوسهم، ولهم أنف كبير وفم ضخم بأسنانٍ بيضاء لامعة لأنهم يحتاجون إلى الغذاء كسائر الخلق. أما وجوههم فلا ملامح لها، فكلهم يتشابهون، ويكتسون بدروعٍ جلدية زرقاء داكنة ويحملون الرماح الضخمة بأيديهم ويسيروا بين حواري بغداد تضرب أقدامهم الأرض فيفسح لهم الناس الطرقات رهبًا وفزعًا. لقد ظهر البكتاش فجأة على جزيرة كبيرة مع الهزة العظيمة التي قسمت العالم، وما إن انتشرت السفن في البحار بعد أن تجزأت الأرض فأضحى الاعتماد على السفن ضرورة ملحة، إلا واكتشفوا البكتاش وفزعوا منهم، وبدأت القصص تنتشر وتتلقفها الرياح والألسن من أرضٍ إلى أرض حتى سمع بهم أصحاب القصور. لكن الصيد علم الناس مهارات جديدة لم تظهر قط إلى أذهانهم إلا مع رؤية عجائب الوحوش وقدراتهم، فانتشر في الهواء سيل من الطاقة شعر به الناس كلهم جميعًا لكنهم لم يفقهوه وأسموه سيل البركة أو السيل المبارك، وانكب العلماء يدرسونه ويجولون بين ثناياه حتى ظهرت طائفة تطوع قدرات سيل البركة وتستعملها في معجزاتٍ أذهلت الألباب وصفعت العقول، وأما الجزء المحرم منها فهو السحر الذي اشتد عوده مع انتشار سيل البركة وأصبحت قوته عظيمة في الأذى والقتل، لكن الفقهاء حرموه أشد التحريم، وقطع الملوك والخلفاء رؤوس كل من أمسكوه يُمارسه؛ إلا أنه انتشر أكثر بين قطاع الطرق والقراصنة والفرق الغنوصية الباطنية كالحشاشين وغيرهم من الفرق الضالة. أما سيل البركة فقد دار جدال طويل عليه انتهى أن خيره خير وشره شر، بقوته العظيمة استطاع أئمة البركة من جزر العراق – كما أطلق عليهم الناس – أن يتحكموا في البكتاش ويستعبدونهم ثم يستعملونهم في الحراسة والدفاع ومراقبة العامة والزود عن الأرض من الوحوش إذا انشغل الصيادون بأمرٍ طارئ، وكذلك استعملوهم في الحروب وقد بلغت قوتهم كل مبلغ، إلا أن أعدادهم قليلة ويتكاثرون ببطءٍ وذلك أمرٌ جلل، فإذا مات الواحد منهم ترك فراغًا لا يملأه أحد.

مر سندباد بجانب أحد البكتاش ورفع رأسه عاليًا ريثما خفض الآخر رأسه ونظرا لبعضهما بعضا برهة قبل أن يستكمل كلاهما سبيله.

¹ كان العرب قديمًا يطلقون على سود البشرة "السودان".

كان سندباد دائم التحير فيما يجول بأذهان هؤلاء البكتاش، هل هم كالبهائم لا يعون شيئاً ويفعلون ما يؤمرون، أم لهم مشاعر مثل البشر، ويتوقون إلى الحرية والعودة من حيث جاؤوا، أيًا كان ذلك المكان العجيب الذي اندفعت منه كلّ هذه الكائنات العجيبة دفعة واحدة ومعها سيل البركة.

لقد سمع سندباد عن بحر الظلمات الذي ظهر أيضًا مع ظهورهم ولم يتجرأ أحد على عبوره لشدة عتمته إذ يأكل النور ويحجب الشمس وتركد الأمواج فيه فيعلق المارة ويموتون أو يعودون وقد أصابهم الجنون والخبل وكان الشياطين تلبست أجسادهم.

لم يعد منها أحد إلا حملة ضخمة أرسلها أمير جزر الشام "المنصور" وبعدها تغيرت الشام وتبدل حالها من سيءٍ لأسوأ حتى اختفت أخبارها وخفتت الهمسات عنها ويكأنها أضحت جزيرة معزولة عن العالم! لا يدري الناس ما يحدث داخلها، وحتى التجار مُنعوا من دخولها فلا يتاجرون إلا مع تجارها في المرفأ ولا يسيحون في أرضها أكثر من ذلك، وانتشرت القصص والأساطير عنها حتى أمسى التفريق بين الحقيقة والخيال دربًا من المحال.

وبينما سندباد يقفز من فكرةٍ إلى فكرةٍ ظهر أمامه شيخ سقط حاجباه على عينيه واتكأ على عصاه قائلاً بنبرةٍ خافتة:

- قتلت العنقاء أيها الصياد وتزينت بريشها. أتريدُ أن تفتك بك أمها يا كبير الصيادين؟

تجمد سندباد مكانه برهة ونظر إلى الشيخ نظرة طويلة متذكرًا اصطياده للعنقاء التي هاجمت سواحل بغداد، وقد رفعه قتلها في سلم الرتب إلى أن أصبح قائد أكبر كتيبة من الصيادين في بغداد. كان قتالها أقسى قتال خاضه سندباد في حياته وكاد أن لولا مساعدة الذهبي إمام بركة بغداد.

خرج سندباد عن صمته قائلاً:

- لقد فعلت فعلتي تلك ولا أندم عليها أيها الشيخ، فقد بدأتنا العنقاء واعتدت على أرضنا فرددنا لها الصاع صاعين وقدرت عليها بعون الله ثم بفضل عزيمتي لأحميك وأهل بغداد.

ضحك الشيخ ضحكة طويلة ثم قال ممسكًا بجلبابه المتسخ الممزق وقد على صوته حتى أسمع القاصي والداني:

- تحمينا ممن؟ من العنقاء؟ ألا إن شرها أهون من شركم يا صيادي الشؤم والبلاء. لقد أفقرتم البلاد وتقلدتم أفضل الثياب. أنظر من حولك ترى أن العنقاء هي من أرادت أن تنجدنا منكم.

التف الناس من حولهم يسترقون السمع بحذر فلاحظهم سندباد ورأى الفقر يتفجر من ثيابهم ووجوههم المتسخة، فقال قائل:

- ألا بارك الله في لسانك أيها الشيخ الشجاع.

أدرك سندباد أن موقفه موقف ضعف لا قوة فقال:

- إذن نترك الوحوش تفتك بكم وتغير على مزارعكم وضياعكم فتستجدون بنا تارة أخرى كما استجدتم بنا في الأولى.

ضحك الشيخ وضحك معه الناس ثم فجأة أخرج الشيخ خنجرًا من بين جلبابه المتسخ ووجه طعنة إلى صدر سندباد فوضع سندباد يده اليسرى الملفوفة بالأقمشة على صدره فارتطم الخنجر بها وانكسر فتراجع الشيخ فرعًا وقد تمزق القماش بما يكفي ليكشف عن توهج أحمر كالجمر ينبع من قبضة سندباد، فتراجع الناس وصاح الشيخ قائلاً:

- يد الشيطان!

أخفى سندباد يده التي أتعبته طوال حياته وراء ظهره وأخرج سيفه يقتص لنفسه من ذاك الشيخ الفاسد الذي أراد قتله أمام الملأ، لكنّه لاحظ حركة غريبة من فوقه فنظر أعلاه ليجد مُلثمًا متدثرًا بالسواد يقفز عليه بخنجره من أعلى فتدحرج مبتعدًا ليهبط الرجل أرضًا وينهض مسرعًا قاذفًا خنجره على سندباد الذي لوح بسيفه فدفع الخنجر الطائر بعيدًا عنه وتقدم لبيطش به؛ فأخرج المُلثم سيفه وهجم هجومًا سريعًا فنبت سندباد واستعد لتلقي ضربته لكن شيئًا التف حول يمينه ليقيده، فنظر ليجده حبلاً قد لفه مُلثمٌ آخر حول ذراعه من الخلف.

تقطب جبين سندباد ورأى سيف الملمث أمامه يكاد ينفذ إلى صدره فوضع يسراه على الحبل لتنبض يده بالحياة وتتأجج النار فيها فيحترق القماش عليها ويحترق معها الحبل فبدت على حقيقتها دون حائل يخفيها؛ فذعر من تبقى من الناس حين أبصروا يد سندباد واندھشوا من غرابتها، كانت يده اليسرى تختلف عن جميع البشر فراحتها تتوهج بلونٍ أحمرٍ قانٍ وظهرها ذا قشرة بنية داكنة ممتزجة بحمرةٍ وكأنها وليدة أرض أخرى لا تُمثُّ لأرضهم بصلة.

ترجع الملمث في ترددٍ مما رآه ثم استجمع رباطة جأشه وانقض على سندباد فوجه قبضته إلى سيفه فكسره ولطمه في وجهه ليقذف به بعيداً فيستقر فوق عربة فاكهة. أما الآخر فطفق يقذف الخناجر من يديه فيضربها سندباد بسيفه تارة وبقبضته تارة أخرى، فأخرج الملمث سيفه وتحرك حركة متموجة كموج البحر يخادع بها عين سندباد حتى اقترب منه وألقى بخرقةٍ قماشية تحوي على رمادٍ أبيض عجيب جعل سندباد يشيح بوجهه بعيداً ويشعر بألم حارق في عينيه حتى علم أن الطعنة ستغدر به لا محالة، فرفع يسراه فتوهجت مخرجة سيلا من اللهب أحرق جسد الملمث فصار ينقلب على الأرض صارخاً كتقلب السمك على الفحم، فعلم سندباد علم اليقين أنه أصاب هدفه.

مسح عينيه بمنديلٍ أخرجه وذهب إلى الملمث الذي يستقر على عربة الفاكهة وحمله على كتفه متجهاً إلى أمر السجن ليستجوبه. بحث بعينيه عن الشيخ المخادع الذي شارك في هذه المؤامرة المدبرة لاغتياله فوجده قد لاذ بالفرار. تنهد طويلاً وتنفس الصعداء ثم انطلق إلى وجهته والناس يرددون على أسماعه "يد الشيطان"، شعر بغصةٍ في حلقه وأخفى يده بين ثيابه وأكمل سبيله وقد أيقن أن الناس لم يعرفوه لغيابه فترة طويلة في البحر ولو عرفوه لانهالوا عليه بالترحيب والثناء لأنه الصياد المقرب إلى قلوبهم.

وصل إلى قلعة الصيد الكبرى التي توجت بقبابٍ زرقاء بهية مكسوة برقاق الخرز والديباج وتحفها الأشجار المثمرة بالتفاح والعنب والرمان، وحرس يحيطونها من كلِّ جانب يحفظونها من كلِّ سوء، يتشحون بأثواب حمراء ويحملون الدروع والسيوف والرماح.

أما القلعة فكانت صلبة عتيده أسوارها عظيمة وقد بُنيت بالقرب من البحر لكثرة الهجمات التي تأتي منه سواء من الأعداء أو الوحوش، رأى سندباد اثنين من البكتاش يقفون كالتماثيل عند بوابة الدخول فمر بجانبهما وأمرهما بفتح البوابة، فالتفتا وأمسكا كلاهما بسلسلة كبيرة وشرعا يسحبانها حتى انفتحت البوابة، كانت تلك خدعة تمنع الجنود في الداخل من تسليم القلعة ولو ماتوا من الجوع إلا إذا فتحها البكتاش وهم لا يفتحون البوابة إلا بأمر كبار الصيادين، وذلك لتجنب الخيانة والغدر أثناء الحرب.

ألقى الجنود السلام على سندباد كلما مر عليهم فبادلهم السلام وراقبهم وهم يتدربون بالسيوف والرماح العجيبة التي صُنعت من جلود الوحوش وأظفارهم ومخالبهم. أكمل طريقه إلى سجن القلعة الحجري المقفر فتقدم بعض الجنود وأنزلوا الدخيل المُلثم عن فرس سندباد فطلب منهم أن يحققوا في أمره حتى يخلصوا إلى الحقيقة التي لا غبار عليها وأخبرهم بمحاولة اغتياله فأسقط في أيديهم وأخذوه إلى الداخل ليلقى جزاءه.

تنفس سندباد الصعداء وظل يفكر في سبب إرسال هؤلاء الرجال لذبحه، لم ير مهارة في الاغتيال والاختفاء والهجوم المباغت كما رأى اليوم، ظل يفكر في طرق ملوك الصيد لقتل أعدائهم فلم يتذكر أنه رأى مثل هذا الأسلوب المباغت.

أثناء ترحاله بين أفكاره قطعه أحد الحرس قائلاً:

- مولاي أمير البحار، إن خليفة بغداد وملك الصيد "المستقوي بالله" قد أرسل لك رسالة:

أشار له سندباد بيده أن يسلمها إليه ففعل، ففض الختم وأخرج اللفافة الورقية من مسكنها وشرع يفتحها حتى تجلت الحروف أمامه لأمعة تحت خيوط الشمس الذهبية.

كانت الرسالة تطلب منه أن يذهب بسفينته ورجاله لصيد وحش بحري يقطع سفن التجارة ويُرعب البحارة حتى أمسى المرور إلى سمرقند درباً من المحال. أخبر سندباد الحارس أن يخبره بذهابه لصيد ذلك الوحش وتأمين طرق التجارة.

أوما الحارس برأسه وأكمل طريقه بينما امتطى سندباد فرسه وانطلق إلى ميناء بغداد تارة أخرى.

2

التعاضد

وقف سندباد أمام سفينته "الكهرمانة" التي ارتقت أشرعتها العظيمة سلم السماء بشموخ وكبرياء حيث حلقت النوارس فوقها. كانت سفينة ضخمة تحملت ما لا تقدر عليه أي السفن؛ آية من الجمال من خشب الساج المخروز بخشب جوز الهند، ويرفرف فوق صواريخها علم بغداد الأسود. نُقش على جانبيها آيات وأبيات شعر، وبرقت الزخارف النباتية عليها لتجعلها كالجوهرة النادرة في جوف البحار. يعمل على لملمة أشرعتها الكبيرة ما يناهز العشرين

بحاراً يعقدون حبلاً من ليف النارجيل حول التروس والأوتاد، ويحمل آخرون صناديقاً أو يجرون براميلاً إلى بطن السفينة.

وقفت ثلة من الصيادين الأقوياء فوقها يحيون أميرهم سندباد ويلوحون له، فلوح لهم وصعد الجسر الخشبي إلى سفينته متجهاً إلى قمرة القيادة لكنه لاحظ وجود عدة وجوه غريبة لم يألّفها على سفينته من قبل. فتوقف برهة ورمقهم بصمت، كان أولهم ضخمة الجثة عريض المنكبين عظيم البنيان، حليق الرأس ذو سُمرة خفيفة، وكانت ملامحه هادئة مريحة رغم بأسه وقوته، ويرتدي قميصاً بلا أكمام أصفر اللون من قطن مفتوح جيبه إلى زوره وسروالاً أسود، سأل سندباد عن اسمه فأخبروه أن اسمه "مُهاب" وكان اسمه يصفه. أما الثاني فكان طويل القامة نحيفاً بعض الشيء، وكان شعره بنيّاً فاتحاً أقرب للحمرة ولحيته حمراء كثيفة، ويرتدي قلنسوة سوداء زخارفها مُزركشة وعمامة بيضاء ويمسك كتاباً عجيباً بين يديه ويقف على كتفه ببغاء أخضر اللون سليط اللسان، حين سأل سندباد عنه أخبروه أن اسمه "مروان" وقد كان ابن الذهبي أمير بركة بغداد. تفاجئ سندباد حين علم حقيقته ودارت الدوائر في رأسه عن سبب ركوبه البحر معه في مهمة كذلك.

شعر سندباد أن الخليفة أرسلهما لمراقبته والتضييق عليه، لأنه لا يشارك إلا في الصيد وعادة ما يتهرب من قتال الصيادين لبعضهم بعضاً، فهو يكره من أعماق نفسه أن يلوث يده بدماء مسلمٍ وإن خالفه أو جار عليه، لا يُقاتل إلا من يقاتله ليدفع عن نفسه. لكنّ هذا لم يعجب خليفة الصيد في بغداد، فقد ارتقى سندباد أعلى مناصب الصيد عبر صيده أعتى وأشد الوحوش في البر والبحر، وكلما كلف بمهمة للقضاء على بعض الصيادين من إمارة أخرى تملص من واجبه وذهب إلى البحر ليعود بصيدٍ ثمين من الوحوش الضخمة العظيمة يبرد غضب الخليفة عليه ويُصبره على عصيانه وتمرده. لكنه أرسل إليه من يراقبانه ويتربصان به ريب المنون، أو ينتظران أن يُخطأ ليشيا به إلى الخليفة فيعزله عن منصبه بأي حجة واهية.

اغتاظ سندباد وود لو ألقى بهما إلى خارج السفينة لكنه كظم غيظه وحياهما قائلاً:

- السلامُ على من اتبع الهدى. ما جاء بكما إلى سفينتي أيها الكرام؟
قال مُهاب بصوتٍ أجش:

- جنُّتُ لأن سيدي انقطع رزقه وطريق تجارته بسبب ذلك الوحش. طلب
مني ألا أعود إلا ومعِي تذكاري منه.

مرر سندباد يده على لحيته وتفرس فيه قائلاً:

- أنت عبد؟ ظننتك صياد صلب العود جاء ليشاركني مجدي وصيدي.

تخرج مُهاب من وصفه له بالعبد وقطب حاجبيه قائلاً:

- لم أكن عبدًا حين ولدت لكن الحياة تموج بنا كالبحر وتحملنا أمواجها إلى
حيث لا نريد. نفر من قدر الله إلى قدر الله.

ربت سندباد على كتفه قائلاً:

- صدقت. ليس العبد من قُيدت حرّيته، بل العبدُ من اتبع شهواته واتخذ إلهه
هواه. ذلك عبد الدرهم، تعس عبد الدرهم. وما شأنك أنت يا ابن الذهبي
بسفينتي؟ ماذا يريد شيخ البركة الذهبي من سفينتي؟

تبدلت ملامح مروان لسؤاله المباغت وحاول أن يُداري ارتباكه فقال:

- لا دخل له بك، لقد جنُّتُ رغبة في أن أبحر مع السندباد ذائع الصيت، أمير
البحار كما يلقبونه، وذابح العنقاء. أردتُ أن أرى بأمر عيني إن كان ما
يصفونك به حقيقة أم خيال.

شعر سندباد أنه يُخفي شيئاً، وارتاب في أمره، وأخبره حدسه أنه الجاسوس
وربما العبدُ أيضاً جاسوس يراقبه، ربما أرسله أحد أمراء الصيد ممن يحسد
سندباد على نعمته ومنصبه.

هيمنت الظنون والشكوك على قلبه لكنّه صمت عنها وحياهما وذهب إلى
قمرة القيادة.

أمسك دفة القيادة وصاح في جنوده قائلاً بحماس:

- أنزلوا الأشرعة وفكوا الحبال، سندهب إلى الشرق لصيد أعظم الوحوش.
صاح البحارة بحماسةٍ واشتياقٍ لمناطحة أسياذ البحر تارة أخرى.

جعل سندباد ينظر إذ أقلعت السفينة إلى زرقة الماء الخلابه وهي تلمع تحت أشعة الشمس الصفراء البازغة بالأفق ملقية بأشعتها على البحر لتلونه جاعلة إياه يلمع كلؤلؤة برّاقه تحت ضوء مصباح كبير، وأخذت الأمواج تضرب مقدمة السفينة بهدوءٍ فشرعت تتراقص على أنغام الأمواج والأسماك التي تقفز من حولهم، والرياح العليله تداعب الأشرعة وتجبرها على الانطلاق إلى رحلتهم.

أمسك سندباد ببوصلته وفتحها ليستيقن سبيله في البحر، ووضع الخرائط على طاولة بمحاذاته وبعض البحارة يتمنون فيها ليحددوا له أيسر الطرق وأكثرها أماناً. نظر إلى الخريطة فرأى رسومات لأماكن الوحوش العظيمة، كسيد الحيتان الذي ابتلع عشرات السفن، وثعابين البحار الضخمة التي تحوم حول جزر الشام والخبار العظيم الذي يحطم أعتى السفن صلابه بمجساته، وغيرهم من الوحوش العظيمة التي أذهلت الناس. كان الصيادون يؤمنون البحار والسواحل من هجماتها وبطشها، لكنها استعادت هيبتها حين انشغلوا بالتنازع بينهم فعادت تظهر للعلن من جديد.

نظر سندباد إلى زرقة الماء في الأفق ليتفاجئ بمروان يقف بجانبه قائلاً:

- للبحر رائحته وملوحته وبهجته التي لا يضاهيها شيء من خلق الله. فالبحر كأفئدتنا التي تتقلب وتتبدل في سويعاتٍ وتعتريةا العواصف والرياح والأمواج العالية ثم يسودها السكون والصفاء.

نظر سندباد إليه نظرة عابرة وأكمل انتباهه إلى البحر وقال:

- كلّ خلق لما يُسر له، للبحر بهجته وكذلك خطره الذي يداهم من لا ينتبه ويمعن النظر. البحر كالدنيا لا أمان له، تصبح آمنة فيه وتمسي خائفاً، يحملك قدر الله فيه إلى حيث أراد. في البحر أنت بين يدي الله إما ينجيك منه أو يسلط عليك الموج والرياح والعواصف والوحوش فتهلكك.

نظر مروان إلى الخرائط وأدوات الملاحة النحاسية العجيبة التي بعضها كان لمواقع النجوم وبعضها لسُبل البحار.

داعبت الرياح وجهه واشتم ملوحة البحر ورائحة شواء الأسماك أسفل قمرة القيادة فشعر بالجوع يعتريه وزقزقت بطنه فتخرج وحاول أن يخفي جوعه إلا أن الببغاء فضحه قائلاً:

- مروان جائع. مروان جائع.

قبض مروان على منقار الببغاء ليخرصه فتبسم سندباد وأشار لأحد رجاله أن يحضر الطعام لهما، ولمُهاب الذي جلس عند مقدمة السفينة يتأمل البحر صامتاً شاردًا.

جاء الرجل بالأسماك الشهية فسال لعاب مروان وحك يديه بقوة من فرط السعادة، جلس سندباد على طاولة خشبية وسمى الله وشرع يأكل من الأرز وينهال على السمك ليلوكة في فيّه متمتعًا شاكرًا الله على تلك النعمة. حين شاهده مروان لم يقدر على كبح نفسه واندفع إلى الطعام يأكل أكل الوحوش. بعد أن أكل ما سد رمق جوعه قال لسندباد:

- ما الذي حملك على ركوب البحر ومطاردة الوحوش.

أخرج سندباد عظام السمكة من فيّه متلذذًا بلحمها وشحمها ثم قال:

- مُد كنت صغيرًا وددت أن أرى تلك الجزر التي حكمتها بغداد قبل أن تنشق عنها بسبب أولئك الضعفاء الذين توالوا عليها، وودُّتُ أن استكشف خبايا تلك الجزر من عجائب ومخلوقات تعيش عليها، ذلك أمرٌ حلمت به حتى كتب الله أن يتحقق، فقد نشأت أقرأ عن رحلات ابن بطوطة وابن فضلان وغيرهما، وها قد وانتني فرصة لأرى ما وصفوه في رحلاتهم بأم عيني!

- هلا حدثتني عن رحلات ابن بطوطة وابن فضلان!؟

جلس سندباد يقص عليه رحلات ابن بطوطة في الأمصار بعد أن تمزقت إلى جزرٍ وأشباه جزر وكان الشوق يتلأأ في عيني مروان حتى تذكر سندباد

بريق عينيه لما كان طفلاً. أخبره حدسه أن تلك المرة الأولى التي يركب فيها مروان البحر.

أنهى قصته ثم سأله قائلاً:

- أنت ابن الذهبي إمام بركة بغداد وأقوى رجل عليها كما يصفه العامة والخاصة. سمعتُ أنه سحق جيشاً جراراً بمفرده وأنه يتحكم بأكثر البكتاش في بغداد ويطوعهم لخدمة الخليفة، لا ريب أن بداخلك قوة عظيمة كأبيك.

- لم تحد عن الحقيقة بكلمة، لكنه أيضاً عجوزٌ صعب المراس متصلب الرأس إن قابلته.

- لم لم تبق معه لترث الإمامة من بعده؟

- من قال أنني تركته! أردتُ أن أركب البحر وأرى ذخائره وعجائبه ثم أعود لأكمل تعلمي عن سيل البركة.

- إذن أردت راحة من المسؤوليات التي انكبت عليك انكباب السباع على الطبيان، فجنّت إلى البحر معي! وفرحتاه. لقد جنّت إلى هلاكك يا ابن الذهبي إن لم تحترس. إن صيد الوحوش مُفزع ويَهْلِكُ فيه الشجاع والجبان والقوي والضعيف.

- حسبك. ما جنّت إلا عن بينة. أعلم ما ينتظرنا ولا أخشاه، فوالدي مخيفٌ أكثر من أعتى الوحوش.

- هل يرضى والدك بما يفعله المستقوي بالله من بذخ وإسراف لخزانة الدولة، ومن خوضه معارك لا خير يرجى منها على الجزر المجاورة؟

- لا. لأصدقك القول إنه يبغض المستقوي بالله، ويتمنى لو حدّ عنقه، فقد ضعفت بغداد في عهده واستقلت الجزر عنها وساد النزاع وتفشى الفقر.

قاطعته سندباد بسؤالٍ مباغتٍ قائلاً:

- إذن لما لا يريحنا منه؟ إنه أقوى رجل في بغداد والكلّ يهابه كما أنّ البكتاش بين قبضتيه يسوقهم كيف يشاء. فلم التريث والحيلة والصبر؟

- أتريده أن يستجلب عليه سخط كلّ بني العباس وأعيان الدولة وأسنانها؟ إن أمراً كهذا يحتاج إلى الصبر، كما أن المصائب التي قد تأتي من خلع المستقوي قد تصبح أشد وطأة من تركه يعيثُ فساداً في الأرض.

قال الببغاء بصوته المضحك:

- سندباد المارق. سندباد المارق.

ثم فجأة تغير صوت الببغاء تغيراً جذرياً عجيباً حتى انقلب على غير حاله وأمسى خشنأً، وصار ريشه يهتز وينتصب ثم اخشوشنت قسماً وجهه حتى صار كالإنسي الغاضب الساخط وقال:

- مروان يا سبب شقائي ونكبتي. أخرجت إلى البحر وقد حذرتك ومنعتك من الذهاب. أيّ شيء فعلته في حياتي لأبتلى بك؟

فزع مروان ووقف منتصباً كالذي يتخبطه الشيطان من المس وتبدلت ملامحه وذهب الخوف به كلّ مذهب واختنقت الكلمات في حلقه حتى استحث نفسه قائلاً:

- أبتاه. كيف علمت..

- ألا تعلم أنني أراقبك من طائرِك أيها الأبله. لقد استشعرت أن الطائر قد خرج عن حدود بغداد فباغتتني الظنون والشكوك حتى استيقنت الآن من فعلتك الشنيعة. عد حالاً وإلا قطع رأسك. البحر ليس لك. من سيرث علمي ومنصبي وكلّ ما بنيته إن لقيت مصرعك في البحر؟ ألا تُفكر في أبيك أبداً.

وقف سندباد متعجباً ضاحكاً إذ أصبح وجه الببغاء وقد تملكه الغضب كنسخة مضحكة من الذهبي الذي يهابه العالم أجمع.

قال مروان وقد تصبب العرق من جبينه وأغرق وجهه كجداول ماء لا ينضب معينها:

- أعدك أن أعود بعد أن نصطاد وحش سمرقند.

زاد صياح الذهبي وعلت نبرته:

- وحش سمرقند! أتريد أن تقضي عليّ أيها الفتى المغرور. عد حالا ولو على ظهر الوحوش وإلا فسأوافيك بعقابٍ لن ينساه أهل بغداد أبداً.

- أبتاه. كفاك خوفاً عليّ. قل لن يصيبنا لا ما كتب الله لنا.

- ولماذا تنسى أن الله قال: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة. أم أنك تقتص من الآيات ما يخدم أهواءك الدنيئة. عليك من الله ما تستحق.

- سأعود حين يعود السندباد من البحر فهو لن يؤخر رحلته من أجل أن يُعيدني. ثق فيّ مرة واحدة ولن أخذلك.

تدخل سندباد قائلاً:

- لا تدخلني في نزاع مع الذهبي.. إمامنا المبارك، أنا لم أطلب منه القدوم بل هو من أقحم نفسه في سفينتي إقحاماً. فلا تحاسبني على فعلته أكرمك الله.

رفع مروان كتابه وقرأ منه بصوتٍ خافت لم يسمعه سندباد فعاد البيغاء إلى طبيعته وقال:

- يا ويلنا. يا ويلنا.

تبسم سندباد ونظر إلى مروان المستاء وأدرك أنه لم يأت ليتأمر عليه بل جاء هرباً من أحمالٍ ثقيلة وضعت على ظهره حتى قسمته.

عاد إلى دفة القيادة ليوجه السفينة بين الأمواج العالية التي أتتهم بغتة.

مرت بضعة ليالٍ حتى وصلوا إلى وجهتهم، حملت الأمواج الكهرمانه ولعبت بها يمنا ويسرة واشتدت الرياح وهطلت الأمطار ودوى هزيم الرعد من فوقهم وارتجت السفينة من أسفلهم. ركض أحد البحارة إلى سندباد قائلاً:

- يا أمير البحار، لقد وصلنا لكن البحر متقلب وسنلقي بأيدينا إلى التهلكة إن صار عنا الوحش الآن.

أخرج سندباد سيفه من غمده بإصرارٍ دون أن يرف له جفن قائلاً:

- إلى الأمام. لن نعود بخفي حنين؛ ليس هذا الوحش بأعظم من العنقاء.

وقف مُهاب على طرف السفينة وأبصر زوبعة مائية تلوح في الأفق، فصاح فيهم أن غيروا تجاه السفينة قبل أن تبتلعنا، فضرب سندباد الدفة فدارت يميناً ودارت معها السفينة التي تقاذفتها الأمواج.

صاح الببغاء قائلاً وهو يضرب بجناحيه الهواء:

- هلكننا هلكننا.

ركض مروان إلى طرف السفينة وشاهدها تنجرف إلى الزوبعة حتى أمسى الفرار منها صعباً. فتح مروان كتابه وقرأ منه بضع أبيات من الشعر بصوت عال قائلاً:

- لا أركبُ البحرَ حذارِ الردى

للبحرِ أهوالٌ وأمواجُ

والبرِّ لا زلتُ له سالكاً

لي فيه ولا في البحرِ منهاجُ

شعر سندباد والبحارة بسيلِ البركةِ يحوم حول جسد مروان وفجأة سمعوا صوت أشياء ترتطم بالسفينة، ذهبوا إلى جوانبها فأبصروا الحيتان تدفع السفينة برأسها دفعًا بعيدًا عن الزوبعة. دهش الجميع وأسقط في أيديهم وذهبت الدهشة بهم كلّ مذهب، وبلغ العجب منهم كلّ مبلغ.

صاحوا ببهجةٍ وفرح وانهالوا على مروان بالثناء والمديح.

تنفس سندباد الصعداء قائلاً:

- لله درك يا مروان. لقد أنقذتنا من الهلاك.

اقترب سندباد منه وحمله فوق كتفه يدور به بين الرجال الذين يقذفونه بالثناء والمديح والتهليل والفرح.

لكن فرحتهم تبخرت مع هواء البحر المالح حين سمعوا صيحة عظيمة أتت من الأفق وأبصروا من تحتهم أسراب السمك تولى الأدبار ومن فوقهم الطيور تفر.

وقف أحد البحارة على سارية المراقبة ينظر بمنظاره إلى الأفق حتى أبصر جسداً ضخماً عظيماً يهز البحر هزا ويندفع إليهم اندفاعاً.

صاح البحار قائلاً:

- يا أمير البحار إنه قادم.

صاح سندباد في جنوده أن استعدوا وجهزوا المدافع والرماح.

تدافع الرجال كل إلى وجهته وقد تملكهم الخوف والترقب والخشية.

أما سندباد فقد وقف على مقدمة السفينة بمحاذاة مُهاب ورفعه سيفه إلى الأمام قائلاً ومُهاب يشاهد:

- هلم إلي أيها الوحش. لقد خاضت تلك السفينة أقاصي البحار؛ وبها ذبحت عشرات الوحوش؛ فلن تُعجزني ضخامتك ولا قوتك عن الظفر بك كما فعلت بمن قبلك.

خرج الوحش يدفع ماء البحر من حوله حتى صار كالطود العظيم، وزأر زئيراً عظيماً رجفت له الأفئدة وقشعرت منه الأبدنة وبلغت منه القلوب الحناجر.

اتسعت عينا سندباد حين أبصر ضخامة الوحش عظيم الهيكل ضخم البنيان وأدرك أن الأمر يفوق ما تخيله. ما كان هذا الوحش إلا عظيم البحار السبعة ومُفزع سفن القراصنة والخلفاء، وأعظم وحش جلبته الهزة الأرضية إلى بحارهم. حاول آلاف الصيادون أن يصيدوه وفشلوا وانتهى بهم الأمر طعاماً للأسماك، وأمست سفنهم حطاماً يجوب بطن المحيطات.

إنه "أكل الجزر". لقد أكل الكثير من الجزر الصغيرة وروّع أهل البحار السبعة لسنوات.

وقف مروان مذهولاً يحاول أن يدرك أعلاه من أسفله. نظر إلى أقاصي السماء ليبصره والماء ينقشع عن جسده ورأسه ينظر إليهم من عليائه في السماء بشموخٍ وكبرياءٍ، والبحارة قد أسقط في أيديهم وفُزع عن قلوبهم، وأسقطوا أسلحتهم أرضاً في يأسٍ واستسلام.

لمعت شرارة الغيظ في عين سندباد حين أدرك مصيره وهو ينظر إلى ذلك الثعبان الضخم الذي تبدو سفينته "الكهرمانه" أمامه كحشرةٍ أمام فيل من أفيال الهند.

صاح سندباد فيهم قائلاً بحنقٍ وغيظ:

- أين همتكم يا بحارة الكهرمانه. لا يغرنكم ضخامة هذا الوحش، فالوحش يظل وحشاً ولو لامس أبواب السماء، ولكلّ وحشٍ هفوة، ولكلّ صياد أسطوره التي سيخلدها التاريخ، وصيد آكل الجزر سوف يصير أسطورتنا التي سيتغنى بها البحارة، وينشد شعراء القصور الأبيات تخليداً لها، ويرددها العامة لسنوات بينهم في الأسواق والمساجد، وتحكيها الأمهات لأطفالهن لتتشد من عزيمتهم وتبث الروح فيهم. ثبتوا الأشرعة وانطلقوا. الموت الموت.

صاح البحارة من خلفه واندفعوا بين السفينة يشدون الحبال ويثبتون الصواري والأشرعة ويجهزون المدافع والرماح ولكنهم في قرارة أنفسهم علموا أنهم هالكون بلا ريب. لكنّ عناد ربانهم كان أشد عليهم من الغرق في البحار. يعلمون أنّه لن يوقفه أحد حتى ينال من ذلك الوحش.

مال الثعبان العظيم برأسه وصاح صيحة عظيمة جلبت عليهم الأمواج وتراقصت السفينة على أنغام المحيط الهادر العاصف وسقطت البحارة أرضاً على خشب الكهرمانه المبلل، وشعروا وكأن سفينتهم تبكي؛ لا يعلمون أتبكي خوفاً أم شغفاً وترقباً!

تحرك الثعبان بوجهه من السماء وهبط ناحيتهم ليبتلع السفينة.

نزع سندباد الخرقه البيضاء عن يده وتأججت يده الحمراء بلهبٍ أحمر قانٍ، فقبض يده واستجمع السعير في يديه بينما انطلق مروان إلى حافة السفينة

وشرع يردد أبياتاً ينادي بها حيتان البحر التي جاءت مسرعة تُلبي طلبه وما لبثت أن دفعت السفينة بعيداً عن فك الثعبان الذي شرع يهبط بثقل وزنه قريباً منهم.

هبط الثعبان إلى البحر فارتجف البحر رجفة عظيمة وارتفعت الأمواج إلى عنان السماء واندفعت الكهرمانه يميناً تكاد تنقلب برجالها من هول الأمواج والاهتزازات التي خلفها الثعبان، وكاد سندباد أن يسقط من فوق السفينة لولا أن أمسك به مُهاب من يده ودفعه داخل السفينة مُجدداً ليغرز سيفه في أرضها ويتشبث به.

نظر مروان إلى الموجة الهائلة التي حجبت قرص الشمس عنهم وفغر فاه وقد علم علم اليقين أن سفينتهم هالكة بلا ريب إن لم يخلقوا حلاً ينجيهم من عذاب أليم.

صاح البحارة خوفاً وفزعاً وبكى أكثرهم من هول ما ألمّ بهم، وضغط سندباد على أسنانه مُفكراً فيما قد ينجيهم من موقفٍ عصيبٍ كالذي وضعهم فيه بعناده. لكنّه عجز عن الإتيان بحلٍ.

وقف مروان في منتصف السفينة وقلب صفحات كتابه بحثاً عن شيءٍ ينجدهم حتى وجد أملاً ضئيلاً كالضوء الخافت في النفق المكفهر. قرأ الأبيات بأعلى صوته لكنّ أحداً لم يسمعه من هول الرياح وتلاطم الأمواج.

حين اكتشف أئمة البركة هذا السيل المبارك، رأوا أنّه لا يتفاعل معهم إلا إن ربطوه بالكلمات، فالسيل كالكيان الحي يُحب أن يربطه الناس بعالم المعنى، ولا يُعيرُ عن عالم المعنى إلا اللغة والكلام. فطفقوا ينسجون الطرق والوسائل التي تربطه بالكلمات فربطوه بأبيات الشعر والحكمة والنثر وأكثر من ذلك. لكن ليس كلّ من يحفظ تلك الأبيات الشعرية يقدرُ على استخدام السيل، بل للسيل تمرينات قاسية طويلة للتواصل معه وإنشاء رابط يربطه بإمام البركة.

ظل مروان يقرأ ويصدح بصوته مما حرم عليه والده استعماله، ظل يقرأ الصفحات التي أهلكت أخيه من قبله وأودت به إلى غيابة الجُب وأودية

الظلام. قرأ من الجانب المُحرم من سيل البركة. سيل العرم² كما أسماه أئمة البركة؛ أو طيف الظلام. لقد تسلل مروان من خلف أبيه ودون كل ما في كتابه عن سيل العرم حتى يكشف حقيقة ما حدث لأخيه ويفك عُقد ما التبس عليه، وها قد أودت به الحياة لاستعمال هذه القوة العظيمة التي تُهلك من البشر من يستعملها.

ظل يردد ويرتل الأبيات حتى أظلمت السماء وحل الظلام وفجأة وجد مروان نفسه في ساحة سوداء لا قرار لها ولا بداية أو نهاية. نظر من حوله فرأى السفينة قد اختفت والبحارة في طي النسيان، والظلام من فوقه ومن تحته ومن بين يديه ومن خلفه. تعرق جبينه وارتعد جسده من برودة المكان وظن أنه قد مات وذلك البرزخ. لكن قلبه رجف حين سمع فجأة صوتاً يدوي بين ثنايا الظلام بصوتٍ شديد كقرع الطبول:

- مروان بن الذهبي. لقد ارتقيت مرتقاً صعباً حين قررت أن تطلب الغوث مني.

التفت مروان في كلّ اتجاه كالمجنون وتلعثم لسانه وهو يقول:

- من يحادثني؟ أنا لا أرى إلا الليل القاتم.

اهتز الظلام فتطايرت عباءة مروان والصوت يعلو ويطغى قائلاً:

- أنت في ملكوتي، وأنا من يسأل أيها العبد. سلني حاجتك أو أغرب عن وجهي.

بلغت الحيرة من مروان كلّ مبلغ وذهب به التوجس كلّ مذهب. لم يدر أية مصيبة أوقع نفسه فيها. أحس كأن الواقع قد اختلط بالخيال وكلّ الدنيا صارت في طي النسيان. تردد برهة ثم استجمع رباطة جأشه قائلاً:

- تكاد سفينتنا أن تهلك من الأمواج ومن ذلك الوحش البغيض قبحه الله. فهل تغيننا من هلاك وخيم؟

² سيل العرم معناه: السيل الشديد الذي لا يطاق.

- ولماذا أنجيتكم أيها البشر وقد قال الرب عنكم: فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كقُوراء. إن أعرضتم عن ربكم فماذا تفعلون معي إن أنجيتكم؟

تعجب مروان من حديث هذا الكائن العجيب ورآه يعلم الكثير عنهم وكأنه يراقبهم منذ أمد ويحفظ طباعهم. قال مروان:

- أعطيك عهدي وعهد الله. ماذا تريد منّا حتى تساعدنا؟

- أريد قطعة من أرضكم أستخلصها لنفسي.

- لكن الأرض ليست لي لأهبها لك! إنها أرض الآباء والأجداد والملوك والفرسان والعامّة والغوغاء. فمن أنا لأهبها لك؟

- لا أريد أرضاً تعيشون عليها. بل أريد قطعة من بحركم الواسع، قطعة لا يقربها أحد منكم.

- حتى لو طلبت قطعة من البحر فكيف سيرضى أهل الأرض كلهم جميعاً أن تحصل عليها؟

- لا أحتاج إليهم جميعاً. كلّ ما أبغاه هو إنسيّ واحد يرضى أن آخذها وسوف آخذها.

لم يفهم مروان هذا المنطق الأعوج، فليست الأمور على الأرض بهذا اليسر! عدل عمامته قائلاً:

- وماذا تريد من تلك الأرض إن أخذتها؟ وأين الأرض التي تريدها؟

- لا تكثرث لما سأفعله بها. أما مكانها فهي امتداد لبحر الظلمات العظيم. إنها الأرض التي تلي بحر الظلمات.

سطعت الأفكار في رأس مروان فجأة وفهم ما يرمي إليه، فقال:

- إذن أنت وراء بحر الظلمات. أخيراً انكشفت الحقيقة التي حيرت العلماء وأرهبت البحارة. تريد إذن أرضاً تقي بها نفسك منّا، أم تريدنا لتزيد من رقعة ملكك حتى تطغى علينا؟

- لا أكثرث بالهيمنة على أرضكم يا معشر البشر إنما أريدها لأجعل بينكم وبين المينجوراء سدًا منيعًا يمنعهم عنكم ويحفظكم منهم. إن عبروا بحر الظلمات من أرضهم إلى أرضكم فسوف تهلك الأرض ومن عليها.

سرت قشعريرة في جسد مروان وتلجلج لسانه قائلاً:

- المينجوراء؟ من هؤلاء القوم؟

- إنهم الهلاك الذي لا يُبقي ولا يذر. لا يتركون أرضًا وطؤها حتى يجعلوا عاليها سافلها. إن قوتهم عظيمة تنوء بالعصبة أولي القوة؛ وهيئاتهم تبتث الرعب في أفئدة الخلق، ولا يشبهونكم أيها البشر قيد أنملة بل هم خلقٌ آخر لا تفقهون عنه شيئاً.

ارتجف بدن مروان وألفى البرودة تنهس جسده وتأكل أوصاله. لم يدر أيّ شؤم جلبه على نفسه. قال لنفسه:

- ويح مروان. أيّ بلاء هذا الذي دسست نفسي فيه. كان عليّ أن أنصت إلى والدي. اغفر لي يا والدي فقد ظلمت نفسي.

قطع مروان حاجز الصمت قائلاً:

- إذن بحر الظلمات يحجب هؤلاء المينجوراء عنّا! وما النفع الذي ترجوه بحمايتنا يا .. يا..

- للبشر دور كبير لم يأتِ بعد وعلي أن أحجبكم عمّا يحيق بكم حتى تزداد قوتكم ويتعاضم سلطانكم وعلمكم. سوف تعلم دورك أيضاً يا ابن الذهبي حين يتكالب عليكم الخلق كما تتكالب الأكلة على قصعتها. أما الآن فأصدقائك ينتظرونك.

- سأصدقك لأنّي لا أملك من أمري شيئاً، ولك الأرض التي تريد. السلام عليك.

عاد مروان إلى السفينة وكان حديثه مع هذا الكائن إنما كان من نسج خياله. رأى أنه لا زال كما هو وكان حديثه الطويل لم يكُ إلا برهة من زمان.

سمع سندباد يصيح في رجاله أن يتمسكوا والموجة تنسكب عليهم انسكابًا، اهتز البيغاء على كتف مروان وصاح قائلاً:

- مروان أحبك. مروان أحبك.

مرت الموجة من فوقهم كجبلٍ يتهاوى عليهم من السماء، فتذكر مروان قصة بني إسرائيل حين قلع الله جبل الطور ورفعهم فوقهم يخافون سقوطه عليهم. أدرك ما شعروا به وقتها وتعجب أنهم تمادوا في طغيانهم بعد الذي أبصروه من عظمة قدرة الله. أما هو فأراد لو ينجو ويعمل صالحًا حتى يقابل الله وقد تطهر من ذنوبه.

فجأة عمّ الظلام السماء وهببت الأمطار وضرب البرق الأمواج ودوى هزيم الرعد، وصعد الظلام من قاع البحر فأحاط السفينة وغلفها كلؤلؤة سوداء صلدة عتيبة لا ينازعها شيء صلابتها. هوت الأمواج على السفينة وسمعها البحارة لكنها لم تمسهم وتماسكت السفينة وثبتت وكأنها على أرض صلبة، وبعد دقيقة من تدافع الماء فوقهم انقشع الظلام وأبصروا الثعبان العظيم ينظر إليهم بخبثٍ وعينيه تطلق شررًا. لكنّ الظلام فجأة أحاط جسده وشرع يخنقه فصار يتلوى ويحاول الفكاك فهبط إلى الماء وخرج والظلام يحيطه ونصال سوداء تخترق جسده فيصم فحيحه الأذان. ما لبثت النصال أن خرقت من كلّ حذبٍ وصوب فما تركت موضعًا فيه إلا أصابته.

تمايل الثعبان يمنا ويسرة وصاح صياحا اهتزت له الأبدان وتموجت منه المياه وشرع يميل على السفينة، وقف سندباد برهة متحيرًا من الشيء الذي يُهاجم الثعبان ويناطحه بل ويصرعه، لكنّه اغتبط غبطة كبيرة وأدرك أن الحظ معه وأن الله قد نصره؛ فركض في أنحاء السفينة رافعًا سيفه المشتعل نارًا يُحفرُ رجاله ويستحثهم على المضي قدمًا وحمل سيوفهم قائلاً:

- يا رجال إنها معجزة من السماء انصبت فوق ذلك الوحش البغيض. اشحذوا همتمكم وانطلقوا ببركة الله حتى نصرعه بأيدينا.

حمل الرجال سيوفهم وفؤوسهم ورماحهم واندفعوا خلف سندباد. استدارت السفينة يمينًا مبتعدة عن الثعبان الذي سقط بوجهه بالقرب منها، فركض سندباد إلى حيث يستقر الثعبان ومهاب ورائه يحمل فأسه الضخم ثم قفز

كلاهما إلى جسد الثعبان وقفز خلفهما عدة بحارة وشرعوا يركضون جميعاً فوق جسد الثعبان المهتز ويثبتون السيوف في جسده إذا تحرك وكاد يسقطهم حتى وصلوا إلى رأسه. قفز سندباد مصوباً سيفه إلى عين الثعبان حتى خرقها فصاح الثعبان صيحة عظيمة ورفع جسده عاليًا إلى السماء حتى ظهرت من حوله بقع سوداء تحلق في الهواء ومن هذه البقع خرجت عدة أياد سوداء تقبض على جسد الثعبان وتقيده.

تعجب البحارة وذهلت عقولهم من هول ما يرون، كانوا معلقين بسيوفهم على رأس الثعبان. تحرك مُهاب بجسده القوي الفتى وتسلق جلد الثعبان التخين حتى وصل إلى عينه الأخرى ورفع فأسه والثعبان ينظر إليه نظرة تهوي بقلوب أعتى الرجال، لكن مُهاب لم يرتد له طرف وعرز فأسه في عين الثعبان فتلوى وفتح فمه يبيث سمومه في البحر وسقط بعضها على السفينة لتهلك بعض رجال سندباد. غضب سندباد غضبًا عظيمًا لمصرع رجاله وتأججت براكين فؤاده وصعدت الدماء إلى رأسه فنظر إلى رأس الثعبان وصرخ قائلاً:

- لتندمن على هذا أشد الندم.

دفع نفسه عاليًا وشرع يركض على جلد الثعبان إلى أعلى حتى وصل إلى أعلى رأسه فقفز عاليًا وأشعل قبضته نارًا فتوهجت كتوهج النجم الثاقب وهبط إلى رأس الثعبان ولكمه لكمة عظيمة دفعت به إلى البحر دفعًا فأضحى سندباد يهوي في الفضاء بينما سقط رجاله في البحر مع الثعبان.

أمسك سندباد بسيفه المشتعل وهبط به مخترقًا رأس الثعبان الذي حاول أن ينهض مُجددًا وصيحته تسمع القاصي والداني وطعنه طعنة نفذت إلى أعماق مخه، فظل الثعبان يتلوى ألمًا وسندباد يقبض سيفه ويتطاير يمناً ويسرة حتى استقر الثعبان وطفى على سطح البحر جثة خامدة.

تنفس سندباد الصعداء ونام بجسده فوق رأس الثعبان يلتقط أنفاسه حتى أتته الكهرمانة ببهارتها وألقوا إليه الحبال فأمسك بها وصعد إلى السفينة وسط تهليل وبهجة وفرح وسرور من بحارته. حملوه فوق ظهورهم وقذفوا به إلى

أعلى وسندباد يضحك ويمرح، ومروان ينظر إليه مُغْتَبِطًا والبغغاء يحلق حول سندباد قائلاً:

- أمير البحار. أمير البحار.

أعد الرجال الوليمة للاحتفال بانتصارهم العظيم، وشرع بعضهم في ربط جسد الثعبان بالحبال حتى يسحبوه معهم إلى بغداد ليراه القاضي والداني، وليبيعوا لحمه وشحمه بأعلى الأثمان، وحتى ينالوا الثناء والسمعة الطيبة والصيت والشرف والمكانة، وأخيراً حتى تصل أسطورة سندباد والكهرمانة إلى أقاصي البحار.

مخرت السفينةُ عباب البحر ورفرف علمها بشموخ أمام صفحة الماء التي تَلَأَت كمامةً نفسيةً. أقاموا جنازةً للأموات منهم ووليمة شرف تُعيد لهم طاقتهم وتهبهم القوة ليصلوا إلى بغداد تارة أخرى.

ظل البحارة يأكلون ويشربون ويقص كلّ منهم دوره في حماية السفينة ويترحمون على من مات، وبعضهم يبكي على رفيق دربه المقرب الذي هلك أمام ذلك الوحش العتيد. لم تصدق أعينهم ولا أفئدتهم أنهم أهلكوا هذا الوحش، وظلوا يتساءلون عن سر تلك الأيدي السوداء التي أمسكت بالثعبان وأغاثتهم من هلاكٍ مُبين.

كتم مروان الخبر حتى ذهب الرجال إلى النوم ثم صعد إلى قمرة القيادة ووجد سندباد وحده يقود السفينة عبر البحر المُظلم والنجوم من فوقهم تلمع وتتلاألأ وترشدهم عبر البحار إلى وجهتهم.

قص مروان على سندباد ما حدث فاعتزته الدهشة وظل في حيرةٍ وتوجسٍ لم يخرجها منها إلا صعود مُهاب إلى قمرة القيادة ليشاركهما الحديث.

رحب به سندباد وأثنى عليه وعلى جهده في فقع عين الثعبان الثانية. كان مُهاب يحب الصمت يهوى التأمل والتدبر في ملكوتِ الله وفي سماءه وماءه وأرضه، وقد أعجبه جسارة سندباد وأحس معه بغبطةٍ لم يشعرها منذ أخرج من أرضه ظلمًا وقهرًا.

طلب سندباد من مروان أن يكمل حديثه وألا يكتمه عن مُهاب. فقص عليهما القصة وأخبرهما عن المينجوراء الذين يستقرون خلف بحر الظلمات العظيم، فتغيرت ملامح وجه مُهاب وقطب جبينه وبدى النفور على وجهه جلياً. لاحظ سندباد ذلك فسأله قائلاً:

- أتعرفهم؟

نظر إلى الأرض وقد تبدى الألم على قسماات وجهه. قال بنبرة خافتة:

- أعر فهم حق المعرفة. لقد ذبحوا قبيلتي بأكملها ونجوت من برائتهم بمعجزة من الله حتى وجدني بعض بحارة بغداد وباعوني في أسواق النخاسة وصرت عبداً. لقد مزقوا حياتي كلّ ممزق.

انطلقت كلمات مُهاب كالسهم المتراشقة في فؤاد سندباد، لم يكُ قادراً على تحمل سماع مصيبتته فماذا عن الذي عايشها! وضع يده على كتف مُهاب قائلاً:

- رحم الله قبيلتك وأدخلهم فسيح جناته وألهمك الصبر والسلوان. إن مصيبتك عظيمة ولا تقدر الكلمات أو الأشعار أن تصف مقدار ما تحملت من ألم. لكن الله يجزي الصابرين، فاصبر واحتسب مصيبتك عند الله ولك الجزاء الأعظم. قص علينا كيف يبدو هؤلاء القوم يا مُهاب.

قال مُهاب:

- لو وصفتهم فلن تقدرُوا على تخيلهم. لن يصورهم صورة حسنة إلا من رآهم أو رأى لوحة تصفُ وجوههم. لكنهم قومٌ قساة غلاظ لا يشبهون البشر، بل هم أقرب للوحوش والسباع. لهم قوة عظيمة لم ترها عين قط، وإن الواحد منهم لقادر على سحق المئات منّا دون أن نخدشه.

قاطعه مروان قائلاً:

- إذن كيف ذبحوا قبيلتك؟ كيف عبروا إلى هنا؟

نظر مُهاب إلى عينيه نظرة طويلة ثم قال:

- لقد جاء ثلثة منهم قبل أن يظهر بحر الظلمات وتوغلوا في بحارنا وفعلوا الأفاعيل ثم عادوا أدراجهم.. أريد أن أنال قسطاً من النوم. أستودعكم الله.

غادر مُهاب وأشفق عليه سندباد أشد الإشفاق. لقد رأى هؤلاء الوحوش المفزعة بأَم عينيه! بل ذبحوا قبيلته! أيّ رعب قديم يحوم حول عالمهم دون أن يشعروا. ظلت الحيرة تخيم على أمخاخ العلماء وهم يبحثون في أمر الهزة العظيمة التي قسمت القارات، والتي جلبت كلّ الوحوش العجيبة. لم يعلموا من أين أتى كل هذا! أم أنّ تلك المخلوقات كانت تسكن باطن البحار وبرزت حين جاء الزلزال العظيم؟! لا أحد يعلم، لكن عالمهم تغير حينئذٍ.

3

المكر

عادت الكهرمانة إلى مرفأ بغداد وسط بهجة الناس وفرحتهم. ركض الصبية يتسابقون ليشاهدوها ولهيب الحماسة لا ينطفأ داخلهم، تمنوا لو صاروا

كسندباد وشقوا البحار صيدًا للوحوش العظيمة. كانت الابتسامة لا تغادر شفاههم وصيحاتهم لا تنفك تتأجج.

ظل الناس يدورون حول المرفأ ينظرون إلى الوحش العظيم بتوجسٍ ورهبة، وبعضهم يقذف الورود والقرنفل والريحان على سندباد وبحارته الشجعان.

توقف السفينة وهبط الجسر الخشبي ونزل سندباد ورجاله تبعًا كالملوك والأمراء الذين عادوا من غزوة ناجحة لبلاد الروم. نظر سندباد إلى العامة يحيونه ويسألونه كيف قتل أكل الجزر فبادلهم التحية وقد اشتعل فؤاده غبطة وبهجة وفخرًا بما حققه ورجاله. أراد لو يوقف الزمن عند هذه اللحظة العظيمة حتى ينتشي من رحيقها لعله يشبع. لكنه يعلم علم اليقين أن لحظات المجد سريعة تمر مر السحاب. رفع رجال سندباد أيديهم في الهواء وهللوا باسم ربانهم أمير البحار الأسطوري الذي هزم أعتى وحوش الأرض. كان سندباد فخر بغداد قاطبة وأفضل من امتهن مهنة الصيد بعد أن فقدت المهنة بريقها من فساد الصيادين. أراد أن يشعر الناس أن الصيد له أصل وأن ما عليه هؤلاء اللصوص من حال تشيب له الولدان ليس من الصيد من شيء. ما أفعالهم الشنيعة إلا استغلالًا لسطوة الصيد على أرواح الناس.

سار مروان مبتهجًا فرحًا يتبخر في مشيته بكبرياءٍ وزهو وقد شعر لأول مرة في حياته أن لوجوده معنى يتجاوز مسؤولياته المضجرة لاستخلاف والده في منصب إمام البركة الأعظم. أحس بالحرية كالطير يرفرف بأجنحته وسط الهواء العليل لا يحمل همًا ولا كمدًا. يخلق فقط دون أن يكثرث للأرض من تحته. تمنى لو ظل يخلق هربًا من حياةٍ فرضت عليه فرضًا، لكن بهجته لم تدم إذ رأى أمامه ما جعل شعر جسده ينتصب من هول الفرع. رأى والده الذهبي أمامه قد شخصت عينيه وتطاير الشرر من مقلتيه وضغط على قبضته ضغطة شديدة برزت منها عروق يده وأوردتها. انتفض الببغاء فرعًا وصرخ قائلاً:

- لقد هلكننا. الفرار الفرار.

أطلق مروان ساقيه للرياح واندفع بين الحشد يهرول كالمجانين والذهبي وراءه يصيح فيه قائلاً:

- لن تفر مني ولو ذهبت إلى أقاصي الأرض. لقد جنيت على نفسك يا فتى.

كادت الدموع تتطاير من عيني مروان وهو يشق سبيله شقاً بين حواري بغداد ورائحة التوابل والأسماك تزكم أنفه. لم يدر أيبكي خوفاً أم أن التوابل أسالت الدموع من مقلتيه.

راه سندباد راكضاً والذهبي المُسن وراءه يركض كالشباب سريعاً فضحك حتى ألمته بطنه وأكمل طريقه إلى قصر الخليفة.

أكمل سندباد ورحالته طريقهم إلى قصر الذهب ذي القبة الخضراء كالياقوتة الخضراء والتي أسماها الناس تاج بغداد، وقد رُكب على رأس القبة تمثالاً لفارسٍ يمتطي فرساً. شيدَ القصر أبا جعفر المنصور وجعله دُرة بغداد ومأثرة من مأثر بني العباس؛ فالقصر ضخم عظيم يقع في منتصف بغداد ويراه جميع أهلها في أيِّ مكانٍ كانوا؛ بل كان الناس يحددون اتجاههم في المدينة من اتجاه القصر وزواياه. أما الإيوان المستطيل فكان في صدر القصر يبلغ طوله 53 ذراعاً وعرضه 35 ذراعاً.

وصل سندباد ورجاله إلى سور القصر فُتحت له الأبواب، فأبصر النعيم من رياضٍ وحدائق وبساتين وزهور، وأعجب ما كان يعجب الناظرُ في هذه الروضة الزاهرة منظرُ المياه المتدفقة من النوافير تنثرُ الخصبَ حولها نثرًا وتدور حول الأزهار والأشجار. والخمائلُ والأشجارُ أوشحةٌ ومناطقٌ منتشرة على كلِّ جانبٍ ثم تتلاقى أطرافها فتكوّنُ بركاً صغيرةً مستديرة تحفُّ بها الأعشاب المخضرة كما تحفُّ بالعيون أهدابها فإذا انعسكت على تلك البرك زرقة السماء خُيل إليك أنها المرايا الصافيات في أطرها أو أحجارُ الفيروز في خواتمها.

أما الأشجار المورقة فرمان وبرتقال وخوخ وتفاح وغيرها من نعم الله. زقزقت العصافير وغردت وغنت بألحانٍ شجية أطربت سندباد ومن معه.

ملأ الحرس القصر يقفون كالتماثيل بسيوفهم ودروعهم لا يتحركون ولا ينظرون إلى أحدٍ. تقدم سندباد إلى باب القصر ليتأمل هيئته وزخارفه التي لا يملُ منها مهما رآها، يجانبه مسجدٌ له أعمدة تيجانها مُزخرفة وقباب ومآذن مخروطية متوجة بشرُفٍ من نِصال، وبعض نوافذ القصر ذات ألواح خشبية

مُرصعة بالعاج المنقوش، وبعض جُدره مكسي بالفسيفساء وتزينه النباتات، ويزخر بالأقواس العربية والزخارف الهندسية والنباتية والمقرنصات التي تُشبه خلايا النحل في تدليها بعضها فوق بعض، وهناك أبراج مربعة من الحجارة ذات نوافذ مقوّسة، وحول القصر تجد النخيل يُضفي روحًا تهبُّ من يراها سكيّنة لقلبه.

أما داخل القصر فللنعيم ألوان وأشكال لا تحصيها العين ولا يعقلها القلب.

فالخزف يملأ أرجاء القصر والقناديل عُلقَت لتنيره والسجاد الشرقي افترش على الأرض تغوس فيه الأقدام من ليونته وزخارفه، والبخور يملأ ردهة القصر برائحة طيبة زكية تشتهيها الأنف والأنوف سواء. والخدم والجواري والعبيد يجولون في القصر ينظفون ويطبخون ويرتبون أرجاءه حتى يظل جنة لا يخرج منها الملوك طوال حياتهم إلا إن اضطرتهم الحاجة. عُلقَت الثرايا المذهبة المُتدلية القناديل منها وكُست الجدر بالفسيفساء والزخارف النباتية، وارتفعت الأسقف حتى تُشعر من داخل القصر كأنه يحلق إلى السماء.

تحرك سندباد حتى وصل إلى الحاجب الذي كان يرتدي عباءة مزركشة وعمامة فضية يزينها ياقوتة حمراء بهية. كان وجهه غليظًا كئيبيًا لا تجد البسمة إلى وجهه سبيلًا، له شاربٌ كث طويل ولحية قصيرة. سلم سندباد عليه وأخبره برحلتِه التي كُلت بالنجاح فلم يتبسم الحاجب ولم يبتهج وبدى على وجهه الضيق. كان سندباد يعلم بحقده على جسارته وشهرته وحب أهل بغداد له. فالحاجب من الصيادين إلا أنه لم يصطد يومًا دجاجة! كان امرؤ سوء يعشق الأذى وسلب أموال الناس وزيادة الضرائب والمكوث والأعشار، وإن همّ الخليفة المستقوي بفعل عملٍ حميد دائمًا ما يثنيه عنه الحاجب ويزين له الشر خيرًا ويزين له الخير شرًا. لذلك أحب سندباد دائمًا أن يقص عليه ما أنجزه ثم يبصر الغيظ والحقد والحسد يقطرون من وجهه دون حاجب يحجبهم عن أعين الناس من حوله.

نظر الحاجب إلى مُهاب مضيّقًا عينيه برهة وقال:

- من هذا؟

نظر سندباد إلى مُهاب ثم إلى الحاجب وقال مستكماً فخره وفرحه:

- هذا صنيعتي الجديدة. إنه أقوى رجال الكهرمانة. لقد استخلصته لنفسه وقد نفعني حين ماتت بنا البحار وطغى علينا الوحش.

هز الحاجب رأسه في صمتٍ وقلبه يقطر حسداً ثم أشار لسندباد حتى يدخل إلى الخليفة. أثناء سيرهم قال سندباد لمُهاب همساً:

- فلتعلمني بمكان سيدك حتى أشتريك منه وأعتقك. محاربٌ مثلك لا يستحق أن يظل في الأسر، بل يستحق أن يعبر معي أقاصي البحار. هل اتفقنا يا أخي؟

تبسم مُهاب وأوماً برأسه دون أن ينبس ببنت شفة.

دخل سندباد إلى إيوان الخليفة ورآه يجلس على كرسيه الخشبي المصنوع من شجر الأرز والمطلي بلونِ بني داكن. أما المستقوي فكان عريض الجسد وسيم الوجه حلو الملامح مهيب الطلة له لحية ناعمة طويلة ويلبس عمامة سوداء وعباءة بيضاء تزينها الزخارف النباتية السوداء. جلس عن يمينه ويساره رجال دولته وخاصته. كانوا ثمانية يديرون شؤون بغداد وكلّ منهم يحوز منصباً كبيراً.

دلف سندباد ورجاله من حوله وقبل الأرض بين يديه وظل على حاله حتى أمره المستقوي بالوقوف ففعل. قص سندباد على المستقوي مغامراته العظيمة التي ستخلدها الأشعار والكتب والمستقوي لا يرف له جفن. تعجب سندباد إذ كان المستقوي عادة يبتهج لسماع قصصه التي يرويها ويطرب من حديثه فلا يمل، حتى حسده خاصة المستقوي وشرعوا يوغلون صدره اتجاه سندباد لعله يقطع رأسه ويريحهم منه ومن مآثره التي لا تنتهي.

يبدو أن بثهم السموم في نفس المستقوي قد آتت أكلها أخيراً، فقد ظل الرجل مقطب الوجه لا يبتسم ولا تنبسط أساريره. لاحظ سندباد ذلك فقال:

- إن أذن لي مولاي. هل من خطبٍ يؤرق حضرة الخليفة ويكرهه؟

وقف المستقوي غاضبًا وصاح في سندباد قائلاً:

- أصبت. هناك خطبٌ تجاوزت عنه كثيرًا حتى بلغ السيلُ الزبي. لقد علمتُ أنك تتهرب من نزاعاتنا مع الصيادين من بني جلدتنا حتى لا تلوث يدك بالدماء، فقلتُ للرجل مذهبه ولا أكرهه على ما لا يطيق. إلا أنك ظللت تراوغ وتتفلت من مسؤولياتك بصيد الوحوش حتى حدثت الطامة.

ابتلع سندباد ريقه وتصيب العرق من جبينه وتلعثم لسانه وهو يقول:

- أي.. أي طامة يا مولاي؟ خيرًا.

تحرك المستقوي حول سندباد موجهاً ذبابة سيفه إلى جسده قائلاً:

- أما علمت أن عسكر الشام قد باغتنا وهاجموا سواحل بغداد، والمعركة الآن تدور رحاها على سواحلنا بينما كنت تتنزه في البحر لتحوز المجد والذكر على السنة العامة والغوغاء! ألم يباغتك القتلة أمس؟ ثم أرسلت إلينا أحدهم لنستجوبه. ألم يريبك ما حدث فتبقى في بغداد لتحمي خليفتك وتزود عنه إذا عاد هؤلاء الأوباش؟ لقد تجاهلت الأمر وألقيت به في غيابة الجب حتى تحظي بمجدك.

قاطع سندباد قائلاً:

- لكنك يا سيدي من أرسل إلي طلبًا لصيد ذلك الوحش الذي يقطع طرق التجارة!

استشاط وجه المستقوي غضبًا وضرب السيف في الأرض قائلاً:

- أتكذب علي وأنا واقفٌ أمامك؟ ويحك وما تفعل. لقد ارتقيت مرتقًا صعبًا يا رويعي الغنم. لقد جعلنا منك شيئًا ورفعناك وهكذا ترد لنا الجميل؟

أسقط في يد سندباد وفزع عن قلبه ودُهل من إنكار المستقوي للرسالة التي أرسلها إليه، لكن إذا عُرف السبب بطل العجب؛ فقد أبصر سندباد الحاجب بيتسم ابتسامة خبيثة ذات دلالة فعلم أنه من دبر له تلك المؤامرة وقد بيتها بليل. يا لخبثه ومكره. لكن أين المفر الآن؟ الرسالة!

وضع سندباد يده في جيبه يبحث عن الرسالة لكنّه لم يعثر عليها. لعلها سقطت في البحر حين قاتل الثعبان. لقد سارت الرياح كما يشتهي الحاجب ولا مفر من الهلاك. قال سندباد في محاولةٍ أخيرةٍ ينجد بها رقبتة من القطع:

- مولاي لقد قتلت أعظم وحوش البحر رفعة لدولتك ودوامًا لملكك. ما كنت أعلم بمكيدة أهل الشام علينا ولسوف أذهب الآن إن أمرتني لأضرب أعناقهم. تدخل الحاجب قائلاً بنبرة يملأها المكر والدهاء:

- أرى يا مولاي أن نختبره مرة أخيرة وبعدها لا حُجة له. لقد وصلتنا أنباء أن عسكر الشام قد أرسلوا الدنانير والطعام إلى إحدى القرى الفقيرة حتى تنور علينا وقد فعلت. لقد ثار أهلها وأضرموا النيران في معسكرات الجند وشرطة المدينة العليا، وقد انتقلت العدوّة إلى القرى المجاورة في وقتٍ حرجٍ تتعرض فيه الخلافة للغزو. أرى يا مولاي أن تُرسل سندباد ورجاله لإخماد تلك الفتنة ولو بالقوة، فإن فعل سامحناه، وإن فشل أقمنا عليه الحُجة.

مرر المستقوي يده على لحيته بوجهٍ عبوس ودار حول سندباد عدة دورات ثم قال بعد أن فقد رجال سندباد رباطة جأشهم:

- إذن نفع. أمرك يا سندباد أن تذهب وتُسكت هؤلاء الغوغاء للأبد، وأجعلهم عبرة لمن يُفكر في خيانتني والعبث بأمور الخلافة حين يهاجمنا الأعداء.

حاول سندباد أن يتفلسف من المأزق الذي أوقعه فيه الحاجب الخبيث فتدارك الأمر قائلاً بنبرةٍ مترجبةٍ ملحة:

- أرى إن أذن لي الأمير، أنّ الأولى لنا أن نُقاتل عسكر الشام وندناطحهم في البحر بالكهرمانه فنُغرق أسطولهم وحينئذ سيصل الخبر إلى أسماع الثوار فيدركون مصيبتهم ويخضعون ويتراجعون وتُخمد ثائرتهم لأن من يدعمهم قد هُزم وتقهقر وبذلك نحقق نصرًا يفخر به أهل بغداد ويرفع من مكانة الخليفة في قلوبهم ونجتنب إراقة الدماء وأن نجلب على أنفسنا سخط الناس.

رفع المستقوي حاجبه وظل كلام سندباد يراود نفسه ويدور في عقله حتى سمع الحاجب يتدخل قائلاً بحنقٍ وغضب:

- تقصد نصرًا آخر لك لا للخليفة. ما تريدُ إلا المجد لنفسك لا لبلاط الخلافة.
إن انطلقت الآن فلن تجد عسكر الشام لتقاتلهم لأنني قد أرسلت برسالةٍ لإمام
البركة "الذهبي" للذهاب وقاتل عسكر الشام، وأنت تعلم قوة هذا الشيخ الكبير.
سيسحقهم سحقًا ويرمي بجثثهم إلى حيطان البحر. لن تفرّ هذه المرة من واجبك
يا سندباد. نفذ ما طلبه الخليفة منك ولا تعد إلا برؤوس هؤلاء السفلة.

أدرك سندباد أنه قد حوصر حصارًا خانقًا لم يمر به في حياته قط. رأى حياته
وكلّ ما بناه ينهار أمام عينيه، وكأن الخير يأتيك وبين ثناياه بلاء عظيم وشر
كبير، لكن الناس يفرحون ويهللون وهم لا يعلمون أن أرزاء الحياة تنتظرهم
في نهاية الدرب. ظل يعصرُ دماغه عصرا لعله يجد حلاً لكنها لم تُسغه.
أخذت الأرض زخرفها أمامه حين صار أشهر صياد وأزينت له حين هزم
أعظم وحش في البحر، حتى أتى أمر الله. إن لم ينفذ ما أمر به فسيخسر كلّ
ما شقى وكد واجتهد من أجل أن يرنو إليه. لقد فعلت به مكائد الحاجب ما لم
تفعله به وحوش البحر.

أدرك أن تقلبات الدهر لا تترك أحدًا وأن من سره زمن ساءته أزمان.

تسارعت أنفاسه وتفصد جبينه بالعرق وارتجف جسده عدة رجفات سريعة
متقطعة واحتنق الدم في عينيه وهز رأسه قائلاً بعد صراع طويل مع نفسه:

- لك ما أمرت به يا أمير المؤمنين.

أشاح له الخليفة أن ينصرف وجلس على كرسيه وأخذ نفسًا طويلاً بينما سكب
له أحد الخدم كوبًا من عصير اليقطين.

تحرك سندباد ورجاله من خلفه وقد ألمّ به هم لا يعلمه إلا الله. أدرك أنه إن
أطاع أمرهم فسيبغضه الله ويبغضه الناس. هل يلوثُ يده بدماء الأبرياء من
أجلهم؟ أيعقل أن يهدم كلّ ما بناه على أمل أن يحتفظ بمنصبه؟ وحتى إن ظل
في منصبه فما قيمة ذلك وقد كرهه الناس وغضب عليه الله. تذكر قول موسى
عليه السلام للخضر حين قتل الغلام: "أقتلت نفسًا بغير نفسٍ لقد جنّت شيئًا
نُكرا". لكن الخضر قتله لعلمه بالغيب أما سندباد فسيقتل ليحفظ منصبه. يا

لخساسة دربه الذي يسير فيه، يشعر باللعنات تهبط عليه من السماء مع كل خطوة يخطوها فولى شطره إلى السماء والدموع تترقرق في عينيه وقال:
- أوما تحنار من يوم عبوس قمطير اقمطر الشر فيه بعذاب الزمهير.

وقف الذهبي فوق السهل الأخضر المُطل على ساحل بغداد وعسكر الشام يهبطون من السفن ويحملون سيوفهم ورماحهم وأقواسهم وكل ما يقدرن عليه لاقتحام بغداد. كان عددهم ألفاً أو يزيدون. وما كان ليحراً هذا العدد الضئيل أن يغزو بغداد لولا ضعف رجالها وخليفتها. فقد أقنع الحاجب المستقوي أن يقلص عدد الجنود في بغداد من أربعين ألفاً إلى ثمانية آلاف وأن يستغل من أخرجهم من الجيش في تجارة جلود الوحوش وحراشفها وشتى التجارات المربحة الأخرى كتجارة التوابل والبهارات والحرير وغيرها لزيادة خزينة الدولة وبذلك يقلص رواتب الجند الباهظة التي تنقل كاهلهم والتي لا يستفعون منها بشيء ويستفعون من المال الذي سيجلبه أولئك الجنود فبغداد لا تُقاتل أحداً منذ عشرات السنين اللهم إلا بعض الجزر المجاورة الضعيفة وكأنها صارت اسماً على مُسمى؛ بغداد "مدينة السلام". ظل الحاجب يلح عليه ويزين له الأمر ويقنعه أن الجميع يهاب بغداد ولن يجرأ أحد على أن يمسه بسوء ولو قل عدد الجند. وإن تعجب فالعجب كله أن المستقوي اقتنع بكلامه وأصدر مرسوماً بتقليص عدد الجنود! لكن قحطان أمير الشام سمع بالخبر وسرعان ما تجرأ بالإغارة على بغداد لعله يظفر بها أو ببعض الغنائم.

مرر الذهبي يده على لحيته ونظر للرجال الخمسة من حوله نظرة ذات دلالة فركض كلّ منهم إلى اتجاه واختبئوا وظل الذهبي وحده مكشوفاً أمام الجند. كان رجلاً في الخمسين من عمره ذا شعرٍ يميلُ إلى اللون الأحمر الداكن ممتزجٌ باللون الرمادي، لحيته تمتد إلى صدره ووجهه صارمٌ تظهر على ملامحه الحكمة والقوة، وصوته حادٌ يُضفي الخشية على من معه، يرتدي عباءةً بنية تميل إلى الأصفر مزخرفةً بزخارف زرقاء ويلبس عمامة ذات طبقة سفلى زرقاء وأخرى فوقها صفراء ويتدلى قماشها إلى أسفل رقبته، ويمسكُ بعصا مطليةً بماءٍ ذهبٍ عليها بعضُ الزخارف العربية ليتكأ عليها.

تفرس في الجند فرأهم يرتدون الخوذ ذات الرأس المُدببة ويتدثرون بأردية خضراء ويحملون سيوفاً دمشقية تقطعُ وتفتكُ بمن تمسه.

أخذ الذهبي نفساً عميقاً وصاح قائلاً بصوتٍ هز أفئدة عسكر الشام:

- يا عسكر الشام عودوا إلى بلادكم سالمين ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة.

نظر إليه عسكر الشام وقائدهم "عزيز الدولة" من أسفل التل. قال عزيز الدولة بنبرةٍ ساخرة:

- أرسلوا لنا شيخاً كبيراً ليأمرنا بالرجوع. كان علينا أن نغزو بغداد منذ سنوات.

ضحك الجنود حتى سمع الذهبي ضحكهم من فوق التل فقال بنبرةٍ خافتة:

- لقد ضحك من قبلكم عليّ وكانت تلك آخر مرة يضحكون فيها. فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً.

قال عزيز الدولة مُشيراً بسيفه إلى تلال بغداد:

- تقدموا وأحضروا لي رقبة ذلك الشيخ الخرف.

رفع الجنود سيوفهم لتلمع نصالها تحت ضوء الشمس الذهبي واندفعوا يرجون الأرض رجا وكان هناك عشرة من الخيالة يسبقون الرجالة إلى الذهبي.

لم يكُ الذهبي كمروان يحتاج إلى كتابٍ ليستعمل سبل البركة، لقد حَفِظَ كلُّ شيءٍ داخل رأسه فكان إما يردده في ذهنه أو يُعلنه ليُلقي الخوف في قلبِ عدوه. انتظر حتى يقربوه ثم قال رافعًا عصاه:

- لا يَحْمِلُ الحَقْدَ من تَعْلُو به الرُّتْبُ ولا يِنَالُ العلى من طَبَعُهُ الغَضْبُ

ومن يكن عبد قومٍ لا يخالفهم إذا جفوه ويسترضى إذا عتبوا

قد كنتُ فيما مضى أرى جمالهم واليوم أحمي حماهم كلما نُكِبُوا

لله درُّ بني العباس لقد نَسَلُوا من الأكارم ما قد تنسلُّ العربُ

ضرب الأرض من تحته بالعصا والخيالة يصعدون التل إليه فاهتز التل ورجف رجفة عظيمة واضطربت طبقاته حتى هوت الأحصنة وسقطت بمن فوقها. رأى المشاة ذلك فوقفوا لوهلة لكن عزيز الدولة استحثهم على التقدم وتوعدهم إن خافوا أو وجلوا ففعلوا.

تقدموا وصعدوا التلة والذهبي يهبط ناحيتهم بهدوء وتريث وهو يقول:

- إذا كشف الزمانُ لك القناعا ومدَّ إليك صرْفُ الدَّهرِ باعا

فلا تخشِ المنيةَ وإقحمها ودافع ما استطعتَ لها دفاعاً

ولا تختزِ فراشاً من حريرٍ ولا تبيكِ المنازلَ والبقاعا

أمر عزيز الدولة الرماة أن يخرقوا جسد هذا الشيخ فتقدموا وجثوا وشدوا أوتار أقواسهم واندفعت السهام بالعشرات ناحية الذهبي كالصواعق المرسله فرفع الذهبي سبابته الذي كان أعلاه نوراً ذهبياً مشعاً كلهيب الشمع وشاهد جند الشام الأسهم وهي تتجمد في السماء ففغروا أفواههم. حول الذهبي سبابته من ظاهرها إلى باطنها فالتفت الأسهم في الهواء وأصبحت موجهة إلى جُند الشام بعدها قال الذهبي:

- يا سماء أمطري.
فهبطت الأسهم إلى الجنود الذين يصعدون التل وأمطرتهم حتى أبادتهم عن
بكرة أبيهم.

وقف عزيز الدولة مشدوهاً كأن على رأسه الطير وبدأ الخوف يطرق أبواب
قلبه لكنه لم يفتح له وتدارك موقفه قائلاً:

- لا شك أنك الذهبي إمام بركة بغداد. لقد سمعنا عنك أيها الشيخ، فأنت
أشهر من النار على العلم. لكن أن أوان أن تُدفن أسطورتك على يدي.

تبسم الذهبي من غرور هذا الفتى وضم قبضتيه خلف ظهره وشرع يهبط
التل بهدوءٍ يُربك خصومه ويتلاعب بأنفسهم تلاعب القطة بالفأر.

أمر عزيز الدولة الرماحة بالتقدم فضموا دروعهم وأخرجوا الرماح من
بينها وتقدموا تقدماً بطيئاً ناحية الذهبي بينما ابتسم عزيز الدولة ابتسامة
النصر قائلاً:

- أرني كيف ستخترق هذه الصفوف المحكمة أيها الشيخ الخرف.

رفع الذهبي يمينه وفرقع بإصبعيه قائلاً:

- لا أحتاج أن أخترقها بنفسني.

برز ثلاثة من البكتاش من فوق التلة وهبطوها ركضاً وأرجلهم الضخمة
تهز الأرض هذا ففزع الجند وهم يرونهم يهرولون كعربة خيولٍ ضخمة
تكاد تدعسهم، تراجع الجند وكاد بعضهم أن يسقط أرضاً وساد الهرج
والمرج بينهم فصاح فيهم عزيز الدولة "أن اثبتوا وإلا ضربت أعناقكم
جميعاً".

حاول الجنود أن يثبتوا لكنها المرة الأولى التي يبصرون فيها البكتاش بأم
أعينهم. لقد سمعوا عن هؤلاء القوم العمالقة الذين يحرسون بغداد ويقبعون
في كهوف الشام داخل الضباب القرمزي الذي يُحيط بالصحراء المسحورة
التي يهابها أهل الشام؛ لكنهم ما رأوهم قط. مر البكتاش بجانب الذهبي الذي

لم يرتد له طرف واندفعوا إلى صف الدروع بأكتافهم حتى أحدثوا شرخًا في صدر الجيش. انكسرت الرماح حين اصطدمت بأجسادهم الصلبة.

أمسك أحد البكتاش بجنديين وشرع يضرب الأرض بهما أمام أعين الجُند ففر بعضهم خوفًا ولم يتحمل الثبات. اغتاز عزيز الدولة وضرب الأرض بقدمه وأخرج سيفه وطلب من بقية الرجال أن يتبعوه ففعلوا على مضضٍ.

هرول عزيز الدولة إلى البكتاش صارخًا مستصرخًا جُنده وقفز على أولهم بسيفه فعاجله بلكمة أسقطته أرضًا. رأى الجُند ما حل بسيدهم فثبتوا أماكنهم وتراجعوا خطوة إلى الوراء لكنّ عزيز الدولة نهض وبصق الدم من فيه قائلاً:

- تقدموا واستهدفوا أقدامهم حتى تسقطوهم. إنهم أشبه بالفيلة التي يستعملها أهل الهند.

استجمع الجُند شتات أنفسهم وانطلقوا يحاصرون البكتاش من كلِّ حذبٍ وصوب ويوجهون سيوفهم الحادة إلى أقدامهم لكنها بالكاد تخرقهم أو تلتصق في جلودهم الثخينة فلا يستطيعون سبيلاً لإخراجها.

رفع أحد البكتاش سيفًا ضخماً عظيمًا مُعلقًا على ظهره ودار به دورة كاملة قطع بها خمسة رجال. أخرج الاثنان الآخران رمحين عريضين وطفقا يضربان به الجُند من حولهما حتى أسقطوا العشرات.

أدرك عزيز الدولة أن جُنده سيهلكون إن لم يتدخل. فرفع سيفه وشحذ ذهنه وهمته حتى تضخمت عضلات يديه وقدميه وزاد حجمه وبرزت العروق من جسده وابتضت عيناه وكأنه صار على غير فطرته.

لاحظ الذهبي تبدلُ الغريب وأدرك أنه فالٌ سوء. اندفع عزيز الدولة إلى البكتاش الذي يحمل السيف الضخم ولاحظ الجميع كيف ازدادت سرعته ورشاقته. رفع البكتاش سيفه ووجه ضربة رأسية إليه فثبت برهة والتف حول نفسه متفادياً السيف ودفع قدميه في رمال الشاطئ ليندفع تارة أخرى حتى قفز في الهواء كالليث ينقض على فريسته ووجه ضربة عظيمة برأسه إلى صدر البكتاش فأسقطه أرضًا. اتسعت أعين الجُند وهللوا فرحًا وطرِبًا

من قوة عزيز الدولة. ركض عزيز الدولة إلى ثاني البكتاش فحاول أن يطعنه برمحه لكنَّهُ مال بجسده أسفل الرمح فتفاداه، بدأ الذهبي يتحكم بالبكتاش حتى يظفروا بعزيز الدولة لأنَّه لو تركهم وحالهم لقتلوا جميعًا على يده! أمر الذهبي البكتاشي أن يُدافع عن نفسه فصالب ذراعيه بينما كان عزيز الدولة يقفز عليه مُسدِّدًا لكمة شديدة جعلته يتراجع إلى الخلف لكن احتكاك قدميه بالأرض حفظهُ من السقوط.

انطلق عزيز الدولة تارة أخرى لِيُسْقِطَهُ لكنَّهُ لمح بعينيه رمحًا مقذوفًا عليه فقفز عاليًا والتف بحركة بهلوانية في الهواء ليمر الرمح بالكاد من تحت جسده ويستقر في أحد جُند الشام. انطلق البكتاشي الثالث بعد أن قذف رُمحه وقفز قفزة عظيمة محاولاً القبض على عزيز الدولة الذي انزلق من بين قدميه ووثب مُسرِعًا والتف موجهاً طعنة إلى ظهر البكتاشي بجُل قوته فشرع السيف يخترق جلده الثخين رويدًا رويدًا لكن البكتاشي الأول باغت عزيز الدولة من الخلف وكاد يظفر به لولا أنَّه لمحه وتحرك سريعًا كالشهد تاركًا سيفه داخل جسد البكتاشي الثاني. توجه جُند الشام بالرمح يقذفون البكتاش فرفع الذهبي خنصره فتشعشع الضوء وتحولت رماح الجُند إلى ثعابين تلتف حول أجسادهم ففتك الرعب بأوصالهم ورموا أسلحتهم وهرب بعضهم بينما سقط الآخر أرضًا وساد الهرج والمرج تارة أخرى. وسط انشغال الجُند أراد الذهبي أن يفتك بعزيز الدولة لتنتهي تلك المعركة فأمر البكتاشي الأول أن يدفع الجُند من عليه وينهض، فصاح صيحة عظيمة جعلت الجُند الذين يربطونه بالحبال يضعون أيديهم على آذانهم حتى انفجرت طبلتها وانسلت الدماء منها. لاحظ عزيز ذلك وأدرك أن لهؤلاء البكتاش قدرات عظيمة لم تظهر بعد. صيحة واحدة أصمت جنوده! عليه أن يحترس لأنَّ أذنيه حساستين لأدق الأصوات حين يُفعل قوته. أدرك الذهبي ذلك وأمر البكتاش أن يصيحوا صيحة عظيمة ترج الأرض والجبال، فصاحوا فأدرك عزيز مأزقه فوضع يديه على أذنيه وألغى تحوله ليعود كما كان. سادت الصيحة لِيُغْطِي صوتها صوت الأمواج وصليل السيوف والرماح وعزيز يكتُم الصوت عنه لكنَّ أذنيه آلتاهُ ألمًا شديدًا فجلس على الأرض وضم قدميه إلى أذنيه ليحجب الصوت أكثر، وما إن انتهى البكتاش

من صيحتهم وقف عزيز الدولة وتنفس الصعداء لئفاجئ بالذهبي يقف خلفه قائلاً:

- ارجع إلى أرضك أيها الغازي.

وجه الذهبي إلى ظهره ضربة بكف يُمناه اندفع منها رياح هادرة كثيفة دفعت بعزيز الدولة إلى البحر مُحلّقاً دون أن يوقفه شيء حتى اصطدم بأحد سفنه فخرقها وأكمل طريقه إلى أعماق البحر. لولا أنه فعّل قوته قبل تلقيه الضربة بلحظةٍ لتهشم عموده الفقري ولأصبح قعيداً طوال حياته.

رأى جُند الشام ما حل بقائدهم فخفتت عزيمتهم وساد اليأس والهلع قلوبهم وقرروا الهرب لكنهم سمعوا صوت عزيز الدولة تحمله الرياح إليهم أثناء تحليقه بعيداً وهو يصرخ قائلاً:

- لا تنسحبووووووا.

أعجب الذهبي بعناد ذلك القائد الفز وإصراره، ولمح الجُند من حوله وقد قرروا الانتقام بعد أن عادت سيوفهم كما كانت، فحملوها واندفعوا إلى الذهبي وقد بلغ العيظ بهم كلّ مبلغ وذهبت مرارة الهزيمة بهم كلّ مذهب.

توجه أول الجُند إلى الذهبي فأشار بخصره فابتلعت الرمال ودُفن وسطها، وأتاه الثاني من خلفه موجهاً ضربة إلى عنقه فأمسك الذهبي بالسيف بين إصبعيه وحطمه أمام دهشة الفارس ثم وجه ضربة براحة يده دفعته ليرتطم بجسد أحد البكتاش الذي قبض عليه بذراعيه وشرع يطحنه طحناً والفارس يصرخ مستنجداً برفاقه.

هجم ثلاثة دفعة واحدة على الذهبي بسيوفهم ورماحهم فتفادى الذهبي أحدها ببراعةٍ ووجه ركلة إلى صدر أول الجُند بينما ظهر أحد البكتاش ليباغت من تبقى ويلكمهم لكلمات طحنت عظامهم طحناً. شرع الجُند يهرولون إلى الذهبي فيضرب أحدهم تارة والبكتاش يضربون الآخر تارة والجُند يتوافدون ويسقطون أرضاً بجراحٍ بليغة حتى استسلم من تبقى.

أمر الذهبي رجاله فوق الجبل أن يهبطوا ويقيدوا بقية الجند مع البكتاش ففعلوا.

نفض الذهبي التراب عن جسده ونظر إلى البحر قائلاً بنبرة خافتة:

- أتمنى أن تستمتع الوحوش بالوجبة التي أرسلتها إليهم. أم تراه ينجو؟ إنه أعند من أن يموت هكذا.

وجد عزيز الدولة نفسه في منتصف البحر وعلم أنّ جنوده سوف يهلكون قبل أن يعود أدراجه إليهم سابقاً، فصاح صيحة غضب أخافت الأسماك من تحته وبعد أن أخرج غضبه ترك جسده للتيار يحمله ونظر إلى السماء متأملاً حاله وصورة الذهبي تدور في ذهنه ولهيب الانتقام يتأجج في فؤاده.

انتظر حتى حل الليل ليبصر النجوم ويهتدي بها إلى جُزر الشام، وبعد أن برزت النجوم وتلألأت على صفحة الماء شرع يسبح تجاه جُزر الشام مُستعملاً قوته التي تزيد من ضخامة عضلاته ومدى تحملها. ظل يسبح ثلاثة أيام حتى وصل إلى البحر ونام على الشاطئ وقد لفحت الشمس وجهه وجسده وصار جلده طرياً هشاً من ملوحة البحر وقيظ الشمس. عثر عليه بعض الحرس بعد سويغات قليلة وحملوه إلى دمشق.

كان سندباد يعي جيدًا ما تعنيه الفتنة. الفتنة أن يأتيك اختبار يُخبرك بين أهوائك وشهواتك وبين ما ينبغي فعله لأنه الحق ولو مت في سبيل ذلك. فالصحابا كانوا يتحملون الجلد والضرب والتعذيب والتنكيل من أجل ما يؤمنون به ولو كلفهم ذلك حياتهم. لقد تجردوا من حُب الدنيا فاستطاعوا التحمل. لكن سندباد رأى نفسه بعيدًا كلَّ البُعد عن هؤلاء القوم. إنّه لا يقدر على تحمل خسارة منصبه فماذا عن الضرب والتعذيب؟ شعر بضميره يقتله وهو يتقدم إلى القرية التي نشب فيها التمرد والخروج على ولي الأمر. أيقظهم لينجو بنفسه أم يدعمهم ويفقد منصبه وربما حياته؟! اعتصر الألم قسماات وجهه ولاحظ مُهاب ذلك فوضع يده على كتفه الأيمن قائلاً:

- افعل الحق ولو كلفك حياتك، أن تموت بشرفٍ خير من أن تعيش وقد مات ضميرك وفسد قلبك وأظلمت قريحتك وكرهك الناس وأبغضك الله. اختر طريق الحق وسأكون عونًا لك حتى آخر رمق.

أوماً سندباد برأسه وارتاح قلبه قليلاً لكنّه وجد بحارته يكررون ما قاله مُهاب وردد أحدهم قائلاً:

- نحنُ معك يا أمير البحار. سندفع عنك سيوفهم ورماحهم بأفئدتنا إن شئت. قال الآخر رافعاً سيفه:

- لقد أبحرنا معك لأنك اجتنبت سفك دماء الأبرياء وسرقة أموال الناس. ما خرجنا معك إلا لأننا أردنا أن نُعيد الصيد إلى سيرته الأولى. أن نصطاد الوحوش لا جيوب العامة والفقراء.

ابتهج سندباد من أصالة رجاله ومروءتهم فقال لنفسه:

- يُعرفُ الرجال بالحق ولا يُعرفُ الحق بالرجال.

أكمل طريقه مُفكرًا في العواقب مترددًا وجلًا يفكر في مهربٍ من هذا المأزق. ربما يقنعُ أهل القرية أن يكفوا أيديهم درءًا للفتنة وحقنًا للدماء. إن له حُبًا كبيرًا في قلوب العامة ولعلمهم يستمعون له.

أكمل طريقه حتى وصل إلى أعتاب القرية ورأى الفوضى قد عمّت أرجائها إذ عسكر الجُند على أولها يحاولون كبح جماح الناس الذين ما لبثوا يقذفونهم بالحجارة والفخار وأشياء أخرى لا يعلمها إلا الله.

حين رأى الجُند سندباد فرحوا وأفسحوا له الطريق فتقدم سندباد داخل القرية وأبصر ملابس الناس الرثة الممزقة وأسمالهم البالية وأطفالهم الجوعى يجلسون على الأرض يقرص الجوع بطونهم ووجوههم متسخة قذرة. وأما البيوت فكادت أن تهوي على أهلها من ضعفها. إنّه فقرٌ ما بعده فقر. تذكر سندباد البذخ الذي يتمرغ فيه المستقوي والحاجب ورجالهما ونظر إلى هؤلاء المساكين الذي لا يجدون ما يطعمونه أطفالهم فاشتد غضبه وغلّى الدم في بدنه وخلق في ذهنه صورة لعمر بن الخطاب نائمًا تحت الشجرة وسط العامة لا يكثرث بشيءٍ حتى رآه سفير ملك الروم وقال: "حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر". أين هم من عمر؟ أيتركون الناس جوعى وهم يتمرغون في الذهب والفضة والدنانير والحريير والديباج والطعام الشهي؟ تعسًا لهم.

وقف سندباد أمام جمهرة الناس وكادوا أن يفتكوا به لولا أن عرفه أحدهم وأخبرهم أنّه السندباد البحري، فأمسكوا أيديهم عنه وخاطبهُ شيخ كبير قائلاً:

- لماذا جنّت يا سندباد إلينا؟ أخيراً تُريد أم شر؟

جلس سندباد على ركبتيه قائلاً:

- جنّت أطلب منك العفو أيها الشيخ. سامحني أن تركتكم تعانون لسنوات دون أن أعلم عنكم شيئاً. كان عليّ أن أخصص حصة لكم من الأوقاف³ والمال الذي أحصله من صيد الوحوش العظيمة في البحر. لكنني جهلتكم ولم أعلم بحالكم إلا الآن.

رفع ثوبه ليكشف عن ظهره قائلاً:

أنشأ سندباد أوقافاً تقوم على حاجة الفقراء والجوعى. يذهب المحتاج إليها ويطلب³ قدر حاجته فيعيطه القائمون على الوقف من طعامٍ وشرابٍ ومأكليٍّ ومشرب دون أن يطلبوا منه مقابل. وقد أوقف سندباد عدة أوقاف في شتى بقاع بغداد من المال الذي حصله من صيد الوحوش، فسندباد من أثرى أثرياء بغداد.

- هذا ظهري أيها الشيخ الكريم إن أردت أن تجلده فلن أمانع، إن كان ذلك يخفف عنك بعض ما رأيته طوال حياتك.

ترقرقت الدموع في عين الشيخ ولم يكذب صدق ما يراه. وقف الجميع في صمتٍ مُطبقٍ أمام ما فعله سندباد.

انحنى الشيخ وأمسك بيد سندباد وطلب منه الوقوف قائلاً بشجن:

- أكثر الله من أمثالك. ما سمعنا عنك إلا الخير وتمنينا لو كنت من تحكم بغداد وليس هؤلاء اللصوص الكسالى الذين أضعفوا عاصمة الخلافة العباسية وقلبة العالم بغداد.

نظر إليه الفقراء نظرة تحمل ألواناً من المشاعر المختلجة، لقد شفى بعضاً مما يعتمل في صدورهم أن يبصروا بأعينهم من يشعروا بهم ويكثرث لأمرهم وهم من هم من الفقر والوضاعة.

وقف سندباد وأمسك بيد الشيخ الكبير ونظر إلى عينيه وقد شعر أن صدره انشرح وأن ما اختاره هو الحق ولو قالوا غير ذلك. نظر إلى الجند ثم إلى الناس وقال:

- لقد أرسلوني لأخمد ثائرتكم. إن أردتم نصيحتي كأخ لكم، عليكم أن تخدموا فتيل الفتنة وسأوقف الأوقاف لكم منذ الغد ولن أترك فقيراً أو مُعدماً منكم إلا أكرمته. لقد طلبوا مني أن أبطش بكم وأنكل وأثخن في الأرض حتى تكونوا عبرة لمن خلفكم. فإن عُدت وأنتم على حالكم فسوف يرسلون إليكم من لا يرحم وسوف يببطشن برجالكم ونساءكم سواء. فخذوا مني واسمعوا لي فإني لكم من الناصحين.

التف الشيخ إلى الوجوه الجائعة الغاضبة من خلفه وأطرق برأسه واجماً مُفكراً ثم صافح سندباد قائلاً:

- لك عهدنا وعهد الله، لا ننزع حتى تنزع. فإن أخلفت وعدك نعود إلى ما كنا عليه ولا نكف أبداً حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين.

أمر سندباد الجند أن ينسحبوا ففعلوا وتركوا القرية بينما ذهب أهلها إلى بيوتهم وهدأت ثائرتهم.

رفع سندباد يده إلى السماء وشكر الله أن جنبه فتنة الدماء وأن أبقاه في منصبه. لقد فعل ما لم يتنبأ به الحاجب. سوف يعود إلى المستقوي ويكيد الحاجب بكلّ السبل الممكنة حتى يتلذذ بمشاهدة وجهه يعتصر غضبا وحقدا.

بعد سويغات من السير وصل سندباد إلى باب قصر الذهب ومثل أمام المستقوي بوجه غير الوجه الذي غادر به. كان بالكاد يخفي الابتسامة عن وجهه ويحاول ألا ينظر للحاجب حتى لا يضحك.

وقف المستقوي قائلاً بعد أن سمع منه:

- إذن أخذت ثائرة هؤلاء الشرذمة.

رفع سندباد بصره إلى المستقوي قائلاً:

- فعلتُ يا مولاي. لن يعودوا لما عادوا إليه.

- وكيف تعلم أنهم لن يعودوا؟

- لقد أخذت ميثاقاً غليظاً منهم وعاهدتهم عهداً.

- وما ذلك العهد الذي عهدته إليهم دون أن ترجع إليّ؟

- سوف أوقف لهم الأوقاف من مالي ليسدوا حاجتهم من المأكل والمشرب. ذلك إن رضي مولاي أمير المؤمنين حفظه الله.

تدخل الحاجب قائلاً وقد خرج عن طوره واحتقن وجهه بالدماء:

- أتوقف الأوقاف للخونة الذين تآمروا علينا مع والي الشام وأرادوا بث الفتنة في أرجاء بغداد وإسقاط دولة أمير المؤمنين؟ ويحك وما فعلت.. أولئك ليس لهم إلا السيف حتى لا يفعل الناس مثلهم فيثوروا كلما ضاق عليهم الحال لا أن نوقف لهم الأوقاف ونهب لهم العطايا. بل العصا لمن عصا.

نظر إلى المستقوي وقال:

- أرى يا مولاي أن سندباد قد أكرم الخونة وما جزاء الخيانة إلا القتل أو السجن أو النفي من الأرض. لكنه فعل فعلة شنيعة لم يأت بها أحد من قبله.

تدخل سندباد قائلاً بغضب عارم لا ينضب معينه:

- بل هم جوعى أيها الحاجب. لولا عوزهم وحاجتهم ما أخذوا المال من جُند الشام وما ثاروا علينا. لقد طُفح الكيل بهم وأرادوا أن يسمع أمير المؤمنين صوتهم إيماناً منهم أن أمير المؤمنين يناصر المظلوم ولا يرضى أن يجوع الناس في عهده.

- ومن قال أن الناس جوعى في عهد أمير المؤمنين؟ لو كانوا جوعى لماتوا من قلة الطعام، لكني أراهم قد أخذتهم العزة بالإثم فبذلوا طاقة عظيمة في مهاجمة الجُند والحرس وتحريض القرى علينا. فهل الجوعى يقدر أن يقاتل ذلك؟

- إذن اذهب بنفسك وانظر حالهم وسينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير.

وقف سندباد منتصب الجسد ونظر لمن حوله قائلاً:

- يا قوم ماذا أصابكم؟ ألا ترون حال الناس؟ علينا أن نجعل عهد أمير المؤمنين عهد رخاء وخير ودعة لا عهد ظلم وفقر ونصب. إن الناس ما عادوا يطيقوننا وحتى أنا لا أسلم منهم حين لا يتعرفون عليّ بين الطرقات. لقد كدت أُقتل والناس يشاهدون ولا يتدخلون ليزودوا عني. لقد تمنوا من قلوبهم أن أُقتل فيستريحوا من صيادٍ آخر يسلبهم ويعتدي عليهم في الأسواق. أليس فيكم رجل رشيد يوقف هذا الحاجب عند حده؟

تورد وجه الحاجب واهتزت لحيته من الغضب فصاح قائلاً:

- يا أمير المؤمنين، ضع حدًا لهذا المارق فقد تهجم عليّ وأنا خادمك وابن خادمك.

نادى المستقوي في الملاء قائلاً:

- أراك قد انحزت للخونة يا سندباد وصرت تردد ما يقولون عناً، لقد فطرت قلبي حين فشلت في أن تنصرتني. يا حراس خذوه إلى السجن.

سحب الحراس سندباد وجروه وهو يستصرخ المستقوي قائلاً:

- لقد حقنت الدماء يا مولاي حتى لا يقول الناس أن عهدك كان عهد دماء وخراب. ما فعلت ذلك إلا نصرة لله ولك. فلا تصدق هذا الحاجب الخبيث فإنه سينفت سمومه في أذنك حتى يأخذك معه إلى الهلاك.

أشاح المستقوي بوجهه وقد ساوره الحزن لخيانة سندباد الذي كان فخراً لبلاطه ولملكه. لقد حسده الملوك على سندباد ومآثره في البحار وها هو يسجنه.

علم سندباد أن ذلك قد يحدث ولم يغفل عنه رغم أنه منى نفسه بالظفر من الحاجب لكن الغضب أخذه وقال كلاماً أودى به إلى الهلاك. لكنه أخبر مهاب وبحارته أن ينتظروه فإن خرج الجند إليهم دونه فليفروا بجلودهم حتى لا يبطش بهم الحاجب كما فعل به. نظر سندباد إلى وجه الحاجب فرآه مغتبطاً فرحاً وقد ذهب به السرور كلّ مذهب، فعلم علم اليقين في هذه اللحظة أن الحاجب هو من دبر لاغتياله وأرسل إليه القتلة!

وقف مهاب داخل ساحة القصر عند نافورة الماء يتأمل انعكاس القمر على صفحاتها ويتفرس في وجهه العبوس الهادئ ثم سمع جلبة في القصر ورأى الجند يخرجون بأسلحتهم إليهم. فانقبض صدره وعلم أن المصيبة قد حدثت فصرخ في الرجال أن فروا ولا تلتفتوا أبداً.

قال أحد البحارة:

- ونترك سيدنا؟

دفعه مهاب أمامه وهو يقول:

- لن ننفعه بشيء إن متنا هنا. فروا إلى الكهرمانة وسوف نفكر في طريقة ننجده بها.

ركض مهاب وخلفه عشرات البحارة يبكون جميعاً كالأطفال الذين فقدوا آباءهم ويصيحون في بعضهم أن انطلقوا إلى الكهرمانة ولا تفجعوا سندباد فيكم. والجند يلاحقونهم ويأمرونهم أن يتوقفوا لكن هيهات هيهات. شقوا طريقهم

بين قرى بغداد وتفرقوا جميعًا بين الحواري والطرقا وكَلَّ يعلم كيف يصل إلى الكهرمانة دون أن يتبعه الجُند.

انتشر الجُند خلفهم وساد الهرج والمرج في الأسواق والناس ينظرون ويتعجبون، عرف بعضهم بحارة سندباد وتساءلوا عن سبب مطاردة جُند الخليفة لهم.

ركض مُهاب ركض الأسود والتف في أحد الحواري إلى اليمين فوجد أحد البكتاش فأكمل سبيله ودفع البكتاش بكتفه لئسقطه أرضًا! نظر الجُند من خلفه إلى البكتاشي ودُهلّت عقولهم مما فعله مُهاب. لا أحد يقدر على إسقاط البكتاش في بغداد كلها اللهم إلا الذهبي، فكيف لعبدٍ أن يفعل ذلك؟ أكمل مُهاب طريقه فكاد يصطدم بوجهٍ يعرفه جيدًا. إنه مروان بن الذهبي.

نظر إليه مروان بحيرةٍ فدفعه مُهاب دفعة واهنة بينما قال مروان:

- ما شأنك يا مُهاب؟ لم الفرار.

قال مُهاب وهو يبتعد:

- لقد أمسكوا بسندباد.

وقف الجُند أمام مروان وقال أحدهم:

- هل رأيت عبدًا ضخم الجثة يفر من هنا.

أشار لهم مروان إلى تجاهٍ غير الذي سلكه مُهاب فانطلقوا إليه لكن مروان أمسك بكتفٍ أحدهم قائلاً:

- أنا ابن الذهبي. أخبرني بما يحدث فقد أساعدكم.

قص عليه الجندي ما حدث سريعًا فأخبره مروان أن يلحق برفاقه وأنه سيبحث معهم عن هؤلاء المارقين.

بعد مطاردة طويلة استطاع بعض البحارة الوصول إلى سطح الكهرمانة وانطلقوا بها عبر البحار يشقون طريقهم حول بغداد بعيدًا عن أسطولها

وحرسها حتى يدركوا مصيبتهم ويجدون حلاً لها. بينما هرب البعض عبر سفن التجارة واختبأوا فيها، والبعض قُبض عليه وزج به إلى سجن القلعة.

جلس الشيخ الكبير بعد صلاة الفجر يقرأ القرآن ويسبح الله في مسجد القرية البسيط وسرعان ما سمع جلبة تحدث في الخارج فأغلق مصحفه وحمل بين ذراعه وخرج ليجد الناس يركضون إلى أول القرية فأوقف أحدهم يستفهم منه ما يحدث، فأخبره أن جمعاً كبيراً من جند المستقوي وأربعة من البكتاش قد وصلوا إلى أعتاب قريتهم.

فزع الشيخ وتوجه يشق طريقه بين الناس حتى وصل إلى أول الصف فرأى الجُند يصطفون وابن الحاجب المُلقب بالمظفر يقفُ بكبرياءٍ ويرمق أهل القرية بازدرائٍ واحتقارٍ.

أشار الشيخ للناس أن اصمتوا وتقدم بتريثٍ وتوجسٍ وهو يقول:

- خيرًا. أجنتم لتوقفوا الأوقاف لنا وتصلحوا قريتنا؟

ضحك المظفر ضحكة عالية وضحك الجُند من خلفه بينما وقف الشيخ وأهل القرية في حيرةٍ من أمرهم. قطب الشيخ حاجبيه قائلاً:

- لا أجد ما يضحك في حديثي يا بن الحاجب. لقد عاهدنا سندباد على أن نكف أيدينا عنكم مُقابل الأوقاف وغيرها. فأين عهده وميثاقه؟

اقترب المظفر منه وعلى وجهه ابتسامة خبيثة ثم استل خنجره وطعنه طعنة نجلاء غادرة فشقق الشيخ ونظر إلى الخنجر ودماءه تسيلُ عليه وشرعت الحياة تنسحب من عينيه فقال ودماء تسيلُ من فيه:

- أتقتل شيخًا كبيرًا.. قبحك الله.

سقط الشيخ جثة هامدة وسط صراخ النساء وصيحات الرجال وبكاء الأطفال.
أشار المظفر بسيفه إليهم قائلاً:

- إن عهد سندباد لاغ، وليس لكم إلا السيف أيها الخونة. لأنكلن بكم حتى
يسمع صريخكم كل القرى المجاورة حتى يتعضوا من مصابكم.. أيها الرجال
أهجموا.

استل الجند سيوفهم وتقدموا يذبحون كل من تقع أيديهم عليه ففرع الناس
وفروا بحياتهم بين البيوت والجند يتوغلون بين ثنايا القرية يحرقون بيوت
القش والخشب ويدوسون الأطفال والشيوخ بالأحصنة ويستبيحون البيوت
ويضربون أعناق كل من سقط بين أظفارهم. أما البكتاش فشرعوا بأجسادهم
الضخمة يسقطون البيوت ويردمونها فوق أهلها حتى قُتل ثلاثة آلاف في يومٍ
واحد ومُزقت العائلات وفُرقت الجماعات ودمرت نصف البيوت تدميرًا،
ورأى أهل القرى المجاورة النيران تشتعل في القرية التي أشعلت فتيل الفتنة.

زحفت امرأة على الأرض وقد أثنختها الجراح وسالت دماءها على التراب،
ونظرت حولها إلى الجثث والخراب وشاهدت بيتها وقد هُدم وأطفالها وقد
قتلوا وزوجها وقد ضُربت عنقه، فبكت وصرخت واستنجدت الله وجاءها أحد
الجند يمشي فقالت وهو يرفع سيفه ليهوي به عليها:

- لقد خدعنا سندباد. لقد أسكتنا ليفعلوا بنا هذا.. لا أصدق أنه قد يفعل ذلك.
إنا لله وإنا إليه راجعون.

نفض السيف إلى جسدها فشبهقت وخرجت روحها إلى بارئها وطويت معها
صفحة من صفحات بغداد المظلمة.

سجن القلعة

جلس سندباد في ززانةٍ كئيبةٍ مُضائةٍ بمشاعلٍ افترشت أرضها بالتراب اللهم إلا من حصيرةٍ خشنةٍ يضطجع عليها، وأما جدرانها فكانت رمادية صخرية وفي أعلى الغرفة نافذةٌ وحيدةٌ ينسل منها ضوء القمر الباهت على سندباد. جلس سندباد في همٍّ وكربٍ وعالج في نفسه ألمًا يكدره وينغصه ويقض مضجعه، ونظر إلى السلاسل التي سُلسل بها لا يُصدق ما ألمَّ به. قد غدرت به الحياة وأودعته المهالك وجارت عليه وألقت سهامها وأرزاءها دُفعةً واحدةً، وصدق من قال: المصائب لا تأتي فرادى. بل تأتي جمعًا كالخميس العرمرم⁴ يشقُّ طريقه عبر الوديان والقفار والحصون والبروج المشيدة حتى يظفر بعدوه. وها قد ظفر به. ظل سندباد في حاله ساكنًا ومع من يتحدث؟ لقد كان وحيدًا في هذه الغرفة الموحشة. لم يجلسوه مع أنيسٍ يأتس به ويروي له ما يشفي بعضًا من غليله. تذكر قول الشاعر: والدهر لا يبقى على حدثانه. دار الزمان عليه دورته ورفعته تارة وأرداه تارة كأنه حلق إلى السماء ثم خرّ منها فتلقفه الطير. أدرك أنه قدر الله النافذ في كلِّ عبادِهِ، فالحياة تتقلب وتدور ونحن ندور معها، ولن يبقى على وجه البسيطة أحد لم يذق طعم اللذائذ ولا مر الهزائم. علينا أن نتجرع كأس الحياة كُلِّه.

مرت ساعاتٌ طويلةٌ وسندباد يجلس القرفصاء دون أن يرتد له طرف ثم قطع صمته المطبق صوت السجان يفتح الباب الحديدي بمفاتيحٍ صداة حتى انفتح على مصرعيه ثم قال بجفاوةٍ:
- انهض أيها المارق.

نهض سندباد والسلاسل قد أحاطت قدميه ويديه فدفعه السجان دفعًا أمامه حتى عبر بين الرُدهات والزنازين ووصل إلى غرفة حجرية كبيرة مليئة بالمشاعل.

أمسكه بعض الجُند وثبتوه وكشفوا ظهره ثم وقف خلفه رجل ضخم الجثة عريض المنكبين وقال بصوتٍ أجشٍ غليظ لا شيء فيه إلا الوعيد:

4 الخميس: الجيش
العرمرم: كثير العدد

- أين فر رجالك؟ أخبرني بمكانٍ قد يختبئون فيه.

علم سندباد أن رجاله قد فروا ففرح وسُر من هذا الخبر، وحمد الله أن أنجاهم.
قال سندبادُ بتهكمٍ:

- أبحث عنهم في البحر ربما وجدتهم في جزيرةٍ قريبةٍ يصطادون السمك.

أمسك الجلاد بسوطه وجلد سندباد جلدة قوية جرحت جسده فتلوى من الألم واصطكت أسنانه. ردد عليه الجلاد نفس السؤال فكرر سندباد ردوده المتهكمة الساخرة فجلده جلدة أخرى وسندباد يُعاند ويقاوم وقد كادت نفسه أن تُزهق من كثرة الجلد وقوته. ظل الجلاد على فعلته حتى يأس من سندباد ومل. أمسك بيدِ سندباد الملفوفة بالقماش ونزع القماش عنها فراها تتوهج بلونٍ أحمر داكن. تمنع الجلاد فيها ثم قال:

- إذن تلك يد الشيطان التي يهابها الناس. القليلُ في بغداد يعلمُ أنك من تملكُ يد الشيطان التي يهابها الناس مُنذ نعومة أظافرك. لو علموا بذلك لبغضوك كما فعلوا حين كنت صغيراً. لكنك أخفيتها وأكثرت من البطولات التي جعلت الناس يرددون اسمك ويقصون القصص عنك. لا ريب أنك ستفر من السجن إن تركنا هذه اليد ملتصقةً بجسدك، ربما تحرق قضبان السجن وتتحرقنا معها.. أعلم ما عليّ فعله.. سأضرب يدك بسيفي كما أفعل بالصوص وأرسلها لأحد الجنود يدور بها في بغداد ويُخبر العامة أن المستقوي قد خلصهم من ابن الشيطان الذي تنكر على صورة بشر وخدعهم لسنواتٍ. ربما يُخفف ذلك من وقع خبر القبض عليك فلا يغضب الناس لأننا ألقينا ببطلهم في الأسر.

رفع الجلاد فأسه الضخم وصاح سندباد يسترجيه ألا يفعل، لكن الجنود أمسكوا ذراعه ووضعوها على طاولة من الرخام. هوى الجلاد بالفأس على ذراع سندباد لكنَّ يده توهجت فجأة فانكسر الفأس وتمزق كلٌّ ممزق إلى قطعٍ متناثرة أمام دهشة الجنود والجلاد.

اتسعت عينا الجلاد وخرج عن طوره قائلاً كالثور الهائج:

- أتى له هذا بحق الله؟ كيف لم تُقطع.

سحب أحد السيوف من الجُند وهوى بها على يد سندباد فحدث الأمر نفسه، فاحتقن وجه الجلاد بالدماء فأمسك بسوطه وشرع يجلد سندباد بغلٍ وحنق قائلاً:

- لستُ أنا من يعجز عن أمرٍ يا أمير البحار.

ظل يضرب في سندباد حتى أرهقت مفاصل يده فترك السوط وهمّ أن يغادر الغرفة فقال:

- أقر لك بالعناد والشجاعة والتحمل يا أمير البحار. لم يعش أحد إلى الجلدة المئة. لكننا سوف نرى إن كنت تتحمل مائة مثلها في الغد.

جر الحرس سندباد إلى سجنه ولاحظوا أنه قد فقد وعيه ولذلك كف عن التأوه بعد الجلدة الثمانين. أشفقوا عليه لكنه عملهم وإن كانوا يكونون له التقدير على جسارته ومآثره الخالدة وقصصه التي أزاحت عنهم دائماً ملل العمل ورتابته.

ضمد السجنان جراح سندباد حتى لا يموت الآن فهم لا زالوا يريدونه حياً.

سار بهلول الشيخ الكبير يتكأ على عصاه ويعبث في لحيته البيضاء الكبيرة المشعثة. ارتدى أسماً بالية وعمامة رثة لكنه كان من أعجب الناس في بغداد، كان زاهداً عن الدنيا ممتنعاً عن ملذاتها حكيمًا في أقواله الغامضة التي لا يفقهها إلا نوي العقول والألباب، لكن العامة كنوه بالمجنون والمخبول لأنهم لا يعون أفعاله. فقد عرض عليه الخلفاء آلاف الدنانير من الذهب مُقابل أن يمكث في مجلسهم يلقي عليهم الدعابات والحكم لكنه أبى وامتنع وأثر الجلوس عند المقابر أو السير بين أزقة بغداد وحواريها يحدث الناس ويحذرهم ويُلقي عليهم بالحكم.

وقف في وسط سوق بغداد وضرب بعصاه الأرض وصاح قائلاً:

- لقد سجنوا السندباد يا أهل بغداد. لقد غدروا بأفضل من فينا. فلتفرحوا قليلاً ولتبتكوا كثيراً، فالمصائب ستهاجم بغداد تترًا. إن لم تقفوا وقفة حق فإن موعدكم الصبح، أليس الصبح بقريب؟

لم يصدق أهل بغداد ما سمعوه من بهلول. لم يفقهوا شيئاً ولم يعوا أسباب أسر سندباد في سجون المستقوي. ماذا فعل ابن البحار والأنهار ليصيبه ما أصابه؟!

ظلت الألسنة تتناقل الخبر وتتلقفه الأذان، وسادت موجة غضب عارمة لكنّ خبراً آخر قد وصل إلى أسماعهم أحرصهم جميعاً. مذبحة القرية. لقد علموا بما حدث لأهل القرية المتمردة فأثروا السكوت وخافوا على أنفسهم وأولادهم وضياعهم، وتركوا الحقوق تضيع من أجل عرضٍ من الدنيا. لكنهم لم يعلموا أن موعدهم الصبح وأنه ليس صباحاً كصبح البشر. هز بهلول رأسه في يأسٍ وقنوطٍ وأكمل طريقه قائلاً:

- فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً.

استيقظ سندباد في الصباح شاهقاً وقد جف فمه وبلغ الظمأ منه مبلغاً عظيماً فوجد قارورة ماء قدرة فلم يكثرث وصب الماء في فيه صباً حتى ارتوى. شعر بالجراح تأكل ظهره كأنه النائم على الجمر. فتأوه وتألّم ونام على جنبه حتى لا يؤلم ظهره أكثر. أخذ كسرة خبز ولاكها في فيه ثم نظر إلى النافذة فوجد أشعة الشمس تنسل كخيوط الحرير إلى الغرفة. تنهد وتيمم وجلس يصلي، وحين أنهى صلاته وجد طائراً مألوفاً يقف عند النافذة. تحامل على جسده واقترب من النافذة ليجد البيغاء الذي كان يحمله مروان يقف على النافذة. سمع سندباد نقيقه ثم لاحظ البيغاء فقفز بأجنحته فرحاً وقال:

- سندباد. سندباد. رسالة رسالة.

أشار سندباد بسبابته أن أصمت ولكن البيغاء ظل يدور حول نفسه ويتراقص ويُردد قائلاً:

- الحرية الحرية. سندباد سندباد.

أمسك سندباد بكسرة خبز وقذفها عليه فصاح البيغاء:

- وغد وغد.

ألقى الببغاء بالرسالة وحلق مُبتعدًا فحملها سندباد وفض ختمها ورآها قصاصة صغيرة مكتوب عليها بخطٍ دقيقٍ صغيرٍ.

سمع سندباد صوت أقدام السجنان فوضعها في جيبه وجلس مكانه.

نظر السجنان عبر القضبان وزجر سندباد قائلاً:

- ما هذه الضجة؟ من الذي كنت تحدثه.

تأوه سندباد وأنشد بعض أبيات الشعر ليخدع السجنان ويقنعه أنه يروي الشعر ليخفف عنه مصيبتَه. فظن السجنان أنه حُيل إليه وعاد أدراجه.

تنفس سندباد الصعداء وأخرج الرسالة الصغيرة وفتحها وقرأ الكلام:

- بسم الله. من مروان بن الذهبي إلى سندباد أمير البحار السلام عليك.

علمتُ بنكبتك وقد أفجعتنا مصيبتك وكلنا معك.

بعد أن تقرأ هذه الرسالة تخلص منها حتى لا تقع في أيدي خبيثة.

لقد تواصلت مع أصحابك وسوف يأتون بالكهرمانة عند بزوغ الفجر. سأرسل لك خنجرًا مع الببغاء تدافعُ به عن نفسك، وعليك أن تحرق القضبان بقوتك بينما سأعمل أنا ومن معي على التخلص من الحرس حتى يتسنى لك الفرار.

سوف تفر أنت ومن معك إلى والي سمرقند، فقد سمعنا عن عدله وحُسن خُلقه، وأنه من الصيادين القلة الذين لا زالوا على عهد الدين والصيد فلم يحرفوا كلاهما ويركنوا إلى الدنيا. انتهت الرسالة والسلام.

ترقرقت الدموع في عيني سندباد وأدرك أن الفرج قريب. مضغ الرسالة وابتلعها مع الطعام، وأكمل طعامه حتى يستعيد بعض طاقته. عند الفجر إذن تُشرق شمسٌ جديدة لتخبره أن يومًا آخر قد بدأ فاعمل له ولا تقنط من رحمة الله.

ترك الجلاد سندباد هذا اليوم لأن السجنان أخبره أن جراحه غائرة وأن ضربه مُجددًا قد يقتله وهذا ما لا يريدونه وكان ذلك من حسن حظ سندباد. فقد ظن أن الخطة ستفشل إن ذهب إلى الجلاد تارة أخرى. لن يقوى على الهرب.

ظل خائفاً مرتعداً طوال اليوم خوفاً من أن يأتي الجراد لكنّه لم يأتِ. نظر إلى السماء فأبصر الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر فعلم أن الوقت قد حان.

سمع الببغاء يُرفرف بجناحيه ويُلقى إليه بخنجرٍ ملفوفٍ بخرقةٍ من قماشٍ. حمله سندباد وأخرجه ليطلع نصله الحاد على ضوء القمر ثم قال للببغاء:

- أشكرك أيها الصديق الوفي.

رد الببغاء قائلاً:

- وغد.

ثم عاد أدراجه.

تبسم سندباد وقال:

- يبدو أنه لم ينسَ ما فعلته معه. يحبني كثيراً كما أرى.

كان سندباد يخشى المغادرة خوفاً من مصيرٍ مجهولٍ، فهو لا يعلم أين يذهب كما أن قوته كبيرة لكنها لن تجعله يحارب بغداد ومن عليها. لن يقدر على الذهبي ولا البكتاش ولا عتاة الصيادين الأشداء كالمعتصم بالله ذائع الصيت.

لكنّه الآن يعلمُ أن الفرار قريب، وأن وجهته قد حُددت. سوف يترك كل ما بناه هنا ليبدأ من جديد وكان شيئاً لم يكن. ربما ضاع جهده لكن الثواب يبقى.

وضع يده على قفل الباب وجعلت تبعث حرارة شديدة حتى ذاب القفل وفتح الباب. خرج سندباد ومسح العرق عن جبينه ولف الخنجر بأصابعه.

رآه السجنان فأسقط في يده وهمّ أن يحمل رمحه لكن سندباد عاجله بضربةٍ بمقبض الخنجر على رأسه أسقطته أرضاً. سار سندباد فوجد عدة حرس في وجهه فهددوه وأمرّوه أن يُلقى خنجره فاندفع إليهم ولكم الأول بقبضته الحمراء فارتطم ببعض الصناديق وحطمها، بينما صد سندباد رمح الآخر والتف بقدمه ليسقط الرمح من يده ثم طعنه طعنة في قدمه أسقطته أرضاً وأكمل ركضه حتى رأى بعض أصحابه في الأسر ينادونه فأطلق صراخهم فابتهجوا بلقياه واحتضنوه ثم انطلقوا معه حتى وصلوا إلى الدرج فهبطوه إلى

الباب الخشبي الكبير ففتحوا الباب ليجدوا مروان ومُهاب وبضعة بحارة
ينتظرونهم والجُند من حولهم مُغشي عليهم. أخذوا سندباد في أحضانهم فرحًا
وركضوا جميعًا يتدثرون بظلام الليل حتى وصلوا إلى الكهرمانة. نظر
سندباد إليها وسالت الدموع من عينيه تارة أخرى والبحارة يحيونه.

اندفعت الكهرمانة تحت ستار الليل تمخر عباب البحر وتصارع الأمواج.

تنفس سندباد الصعداء حين ابتعد عن بغداد لكتّهُ ذرف الدمع من أجلها فبغداد موطنه وموطن ذكرياته وأفراحه وأتراحه. فيها عانى في طفولته وفيها بلغ المجد في كبره ورُفِع إلى أعلى المنازل، وفيها أيضاً هوى وظلم وابتلي بلاءً عظيمًا. كم أنت عجيبة يا بغداد مثل الحياة. كلَّ يومٍ على حالٍ وتقلباتك كنتقلبات الدهر والأيام. فلا يُعز فيك أحد إلا ويُذل، ولا يُذل فيك أحد إلا ويُعز.

هبط مُهاب إلى مطبخ السفينة وأعد لهم وجبة عظيمة احتفالاً بعودة سندباد إليهم. نصبت الطاولات والكراسي ووضعت أمامهم أشهى أصناف الطعام البحري من أسماكٍ وسلطعونات وحبّار وأرز وفواكه.

أكل الجميع وتلذذوا بكلّ ذرة من طعامهم. أثنى سندباد على طعام مُهاب وأخبره عن سر طبخه اللذيذ، فأخبره أن حياة العبودية جعلته يطبخ لأسياده حتى أتقن الطبخ بشتى أصنافه.

لم يعجب سندباد من شيءٍ إلا قدوم مروان معهم! ألن يُشير ذلك الشكوك حوله وحول والده لأنه انضم لطاقمه؟ قرر سندباد أن يسأله عن ذلك حين يذهب البحارة إلى النوم وتخلو السفينة لهم. لن ينسى سندباد فضله عليه وكيف حرره من أسره وخاطر بحياته من أجله. لقد فعل له أكثر مما قد يفعل الأخ.

خلت السفينة ونام أكثر البحارة. أمسك سندباد ببوصلته وتمعن في الخرائط وطفق يوجه سفينته تجاه سمرقند.

صعد مروان وجلس بمحاذاته وسرعان ما لحق بهم مُهاب وجلس يأنس بهما. فاتحه سندباد في الأمر قائلاً:

- لمَّ صعدت معي إلى السفينة ألا يُعرضك ذلك للخطر، أو يُعرض والدك الذي في بغداد؟ هل يعلم بشأن تحريرك لي من الأسر؟

دارت عينا مروان في محجريهما واصفر وجهه قائلاً بغضبٍ وحنق:

- ألا يكفيك أنني أنقذتك. لا تسألني عن أشياء لا دخل لك بها.

قطب سندباد حاجبه قائلاً:

- أنت على سفينتي، فلتخاطبني بطريقة أفضل من تلك. لقد سألتك سؤالاً فأجب.

وقف مروان متحفظاً وقال:

- لست مُجبِراً على ذلك. لا تجعلني أندم على إنقاذك.

احمر وجه سندباد وانفجر فيه قائلاً:

- ومن قال لك أنني احتجت إلى مُساعدتك. كان يمكنني إذابة الأصفاد وبوابة السجن والهرب إن شئت. لكنني اخترت البقاء قليلاً للراحة والتفكير.

اقترب مروان منه قائلاً:

- أتمازحني؟! لولا وصولي إلى بحارتك لما خطوت خارج بغداد خطوة واحدة.

ررف الببغاء بجناحيه بحماسة قائلاً:

- عراك عراك.

تبسم مُهاب من عراكهما المُضحك وتراشقهما لبعضهما بعضاً بالكلمات. بدى أنهما قد صارا أصدقاء، فالأصدقاء فقط من يتعاركون على سفاسف الأمور.

في الصباح الباكر استيقظ البحارة وبزغ قرص الشمس من المشرق وألقى بنوره الدافئ على أجسادهم المُتعبة ليضفي عليها راحة وسكينة، وداعبت الرياح وجوههم وامتأ سطح السفينة بالبحارة المبتهجين. اغتبط سندباد لرؤيتهم سالمين لكنّه حزن على من ضاع منهم في بغداد ولم يعلم مصيره. أفرّوا في أرض الله الواسعة، أم هلّكوا قبل ذلك.

وقف مروان يحتسي كوباً من عصير البرتقال، فسمع سندباد يقول:

- كم أودُّ أن أرى الجزر موحدةً كما كانت أرضاً وراية!

بصق مروان العصير من فيه وانهمك في الضحك قائلاً:

- كدت أختنق مما سمعته.. إن أنتَ إلا حالم!

تجاهله سندباد ونظر إلى مُهاب قائلاً:

- أعلم أنه أمر بعيد المنال، ولكنه قد يتحقق يوماً ما، ألا تشاركني القول يا مهاب؟!!

صاح مروان قائلاً وقد خرج عن طوره:

- لا تتجاهلني.

جعل الثلاثة ينظرون إلى زرقاة الماء الخلابة وهي تلمع تحت أشعة الشمس الصفراء البازغة بالأفق مُلقيةً بأشعتها على البحر لتلوّنه جاعلةً إياه يلمع كلؤلؤة براقية تحت ضوء مصباح كبير، وأخذت الأمواج تضرب مقدمة السفينة بهدوء فشرع المركب يتراقص على أنغام الأمواج والأسماك التي تقفز من حولهم، والرياح العليلة تداعب الشراع وتجبره على الانطلاق إلى رحلتهم.

جلس سندباد وهو يتنسم الهواء العليل ومروان منحٍ ينظر بإمعانٍ إلى ماء البحر، فنظر سندباد وهو يحدث مُهاب إلى مروان فوجده يُحرك شفتيه فانبتقت من يده سمكة صغيرة فألقى بها في البحر ثم انتصب وجلس ونظر أمامه في صفون مُغمضاً عينيه، فخبطه في رجله سندباد حتى ينتبه فلم ينتبه، فاستكمل سندباد حديثه مع مُهاب وهو قلق حتى رأى مروان يفتح عينيه وقد بدى عليهما رعبٌ شديد، اقترب منه سندباد يسأله بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

- ما الذي رأيته؟!!

- آزار، من أضخم أنواع ثعابين البحر بل وأكثرها شراسة، إن هاجمنا فستكون العاقبة وخيمة!

ضحك سندباد وقال بكبرياءٍ وهو يمشي الخيلاء:

- لا تخف، لقد قهرت الكهرمانة سيد الوحوش. ما ذلك الثعبان الصغير عليها
بعزيز!

تأفف مروان وتنهّد قائلاً:

- علينا أن نوقف السفينة لئلا يشعر بنا.

أمر سندباد مُهاب أن يُحذر البحارة حتى يخفضوا الأشرعة ويوقفوا السفينة
فإذا السفينة تهتز اهتزازة قوية أفزعت سندباد والبحارة، فنظر له مروان
نظرة توحى بالذي يريد أن يقوله، فأوماً سندباد برأسه على مضضٍ وصاح
في البحارة أن اخفضوا الأشرعة ففعلوا. توقفت السفينة تنتظرُ مصيرَها
المُقدِّمِ عليها وذهب سندباد لينظر إلى الماء يتبصرُ مكان الثعبان، وجعل
البحارة يتفقدون البحر في توجسٍ، حينها قال سندباد لمروان بنبرةٍ حذرةٍ:

- مروان، حدِّ لي مكانه!

أغمض مروان عينيه وتلبس بوعيه السمكة ونظَرَ بعينيها تحت الماء وتجول
سابقاً بها من تحت المركب حتى أبصر الثعبان يرتفع برأسه مُتجّهاً إلى
السفينة، ففتح مروان عينيه قائلاً والعرق يتصبب من جبينه:

- سيخرج من ورائك!

التفّ سندبادُ فإذا رأس الثعبان تندفع من الماء اندفاعاً فزع البحارة منه فجعل
السفينة تتأرجح وهو يصدر فحيحاً تهتز منه الأبدان. كان لونه أبيض يغطي
جسده حراشف تُشبه الفرو في خلقتها. يبدو وجهه كالعظاءة وأما عيناه فكانتا
صفراوين كالذهب.

نظر سندباد حوله فوجد قوساً وكنانة فأمسك بالقوس وجعل يضربه فلا تؤثر
السهام فيه شيئاً. وإذ عاد مهاب إلى رفيقيه حاملاً فأسه بينما حمل بعض
الرجال أسلحتهم واختبأ من الرعب الذين لا يجيدون القتال. توجه المقاتلون
إلى الثعبان في محاولةٍ ليصرعوه فالتقم أحدهم وابتلعه فتردد أحد البحارة
أنستمر أم نقعد عن القتال، فأقبل مُهاب على الثعبان يجري فلما أن دنا قفز
على رأس الثعبان يضربه بفأسه فخدشه بعض الخدوش فتألم الثعبان وجعل
يتلوى برأسه يميناً وشمالاً فابتعد مُهاب عنه وارتطم الثعبان بإحدى الساريات

فحطّمها، جعل سندباد يصب بقوسه على عين الثعبان فلم يُفلح في اختراق جلده السميك، فتقدم مُهاب كرةً أخرى وجمع مروان طيور السماء بأبياتٍ قرأها من كتابه وجعلها تنقر الثعبان وتشتته فطفق الثعبان يهزُّ رأسه يميناً وشمالاً وجعل يلتهمها لعله يتخلص منها. انتصب ريش الببغاء حين رأى الثعبان يلتهم الطيور التهاماً ونفق قائلاً وهو يفر إلى أسفل السفينة:

- يا ويلي يا ويلي.

انطلق الرجال يضربون الثعبان بالسيوف ولكنّ جلده السميك جعل أمرَ خدشه عسيراً، تخلص الثعبان من الطيور المُزعجة وحطم برأسه ساريةً أخرى فصرخ أحد البحارة قائلاً إنّنا هكذا لهالكون، شرع الرجال يرمون الثعبان برماحهم وسهامهم فلم يكن لها تأثيراً، فأخرج مروان سلاسل من كُمّيه فانطلقت تطوق رقبة الثعبان وألقى بالسلاسل إلى مُهاب الذي ركض وأمسك بها بقبضته وجعل يسحب الثعبان بقوته والثعبان يحاول مقاومة هذا الشد، فقيده مُهاب بعد عناء في إحدى الساريات وانطلق الرجال يحاولون النيل منه كرةً أخرى فحطم السارية ودفعهم برأسه فقتل وجرح بعضهم جروحاً غائرة. حاول مروان أن يرتل بعض الأبيات فلاحظه الثعبان وانقض عليه بأنيابه فتجمد مروان مكانه من الخوف فإذا مُهاب يقف أمامه ويمسك بعمق الثعبان حتى يمنع من التهامه. تعجب مروان من قوة مُهاب وجسارته.

هبّ الثعبان يُغلق فمه يُريدُ التهام مُهاب ولكن مُهاب ظل يقاوم في عناء، فصرخ مروان في سندباد قائلاً:

- أطلق العنان لقبضتك الآن.

كاد الثعبان يفترس مهاباً، فملاً سندباد رنّته بالهواء وخلع الخرقة فإذا يده تتوهج، ففرح البحارة وهللوا. مرر سندباد يده الغريبة على سيفه فاشتعل ناراً وانطلق إلى الثعبان فلما أن دنا منه وكزه وكزة شديدة أطاحت بالثعبان حتى اصطدم بإحدى الساريات، فأصدر الثعبان فحيحاً مُزعجاً فانقض على سندباد كرةً أخرى فقفز سندباد قفزةً بهلوانية من فوقه فالتف الثعبان وأطاح ببعض الرجال وهو في طريقه إلى سندباد فقفز مُهاب بقدمه وركله في عينه اليمنى

ركلة قوية فتألم الثعبان منها وعاد إلى البحر، فنظر مروان إلى البحارة وقال محذراً:

- إن هذا النوع من الثعابين لأعمى، لذلك فهو يعتمدُ على الصوت، فحاولوا ألا تُصدروا أيَّ صوتٍ وإلا سيُقتلنا!

قال سندبادُ بلغةِ الإشارةِ لرفيقه خطةً أعدها كي يتهيأ لها، وأشار إلى الرجال أن ابتعدوا عن ساحة القتال، فابتعدوا واختبأ من لا يقدر على القتال في غرفته وهو يندب حظه العاثر.

وقف الرفاق في صمتٍ مُطبقٍ فإذا رأس الثعبان تندفعُ من الماء فجعل السفينة تتأرجحُ، فأمسك سندبادُ بالسارية ولكنْ كاد يفقدُ توازنه وهو يرى رأس الثعبان العملاق يخرجُ من الماءِ ولسانه يَخْنِسُ⁽⁵⁾

ألقي سندبادُ بالقوسِ إلى مهاب فالتقطه وأخذَ سهمًا من كنانته، ومسحَ رأسَ السهم بإسفنجة صفراء، فبدأت السنة البرق تبرز منه، ورفع مروان يده وبدأ يتمتمُ ببعض الكلمات استعدادًا لما هو مُقبل.

فلما أن بدأ الثعبانُ يجوبُ برأسه المركبَ، أخرجَ مروان من قلنسوته فأرًا جعل يركضُ إلى مقدمة السفينة مُصدرًا صريرًا مزعجًا، فاتبع الثعبانُ الصوتَ مُكثِّرًا عن أنيابه فابتلع الفأرَ وجزءًا من السفينة فتلجلجت السفينة، فركض سندبادُ إلى السارية وأمسك بأحدِ الحبالِ وقطعه فرفعه الحبلُ إلى أعلى السارية فأشار إلى مروان أن ابدأ.

كان الفأرُ في فمه قنبلة من سيل البركة فانفجر فيه فأحرق لسانه، ففتَحَ الثعبانُ فمه صارخًا يتألم، فقفزَ سندبادُ بسيفه ذي النيران ونزل به على رأسه فطَفِقَ يتلوى ذات اليمين وذات الشمال من الألم يحاولُ أن يُسقطَ سندبادُ القابضَ على سيفه. فتحَ الثعبانُ فمه بقوةٍ أكبرَ وهو يُصدرُ فحيحًا مُدويًا ترْتَجِفُ منه الأبدانُ، فصوبَ مُهاب على غدة السموم في فمه بعد أن برزت له بوضوحٍ وضربها بسهم البرق، فهبَّت الكهرباءُ تَسْتُقُّ طريقها عبر السائلِ السامِّ في جسده حتى شلَّت حركته، ولكنَّه كان يهزُّ رأسه يمينًا وشمالًا يحاولُ المقاومة

(5) تراجعُ إلى الخفاء بعد تقدم، ثم تقدم ثم تراجع وهكذا.

حتى أوشك أن يُصيب السارية، فرفع سندباد يده اليسرى عاليًا فجعلت تتوهج بلونٍ قرمزي، ونزل بها على رأسه كرهةً أخرى فسقط على أرض السفينة من دون أن يمت، فإذا هو ينتفض ليسقط سندباد في البحر، فركض مهاب إلى الثعبان وهو يصرخ ممسكًا بفأسه الكبير، فقفز عاليًا إذ دنا ونزل به على رأسه وطفق يشجها حتى انخلعت فخر جسدُه ساكنًا، فركض مروان ليُنجد سندباد الذي كان يضربُ بيده مياه البحر عشوائيًا خوفًا من الغرق، فتبسم مروان وقال وهو يستعد لإلقاء حبل الإنقاذ له:

- أمير البحار لا يعرف السباحة!

أخرجه مروان من الماء، فهبَّ سندباد يرتجف من برودة الماء وقال مُتذمرًا إذ أخرج سيفه من رأس الثعبان:

- ثعبان أبله! قذفني فجأة لما أرخيتُ دفاعي.

فلما أن سالتُ الدماء على ظهر المركب، قال سندباد:

- يا لحظنا التعيس، الآن علينا أن ننظف هذه الفوضى!

خرج البحارة من مخابئهم بعد أن بُترت رأس الثعبان فهلل بعضهم فرحًا والتفوا حول سندباد ورفيقه يلقون عليهم وابلاً من الثناء والشكر.

لم تكد الفرحة تعم عليهم حتى برز لهم ثلاثة ثعابين أخرى أحاطت بسفينتهم. أصاب سندباد وبقارته الفرع. لا يكون هذا الثعبان عادة في مجموعات!

صاح سندباد فيهم أن استعدوا لحفظ الكهرمانة بأرواحكم. رفع سيفه وأحكم مُهاب يده على فأسه وشرع مروان يقلب كتابه بحثًا عن حلٍ ينجيهم من عذابٍ أليم. توقف الثعابين فجأة ومن خلفها ظهر باب عظيم الحجم فارع الطول من العدم. كان رماديًا عليه نقوش لوجوه لا يدرك كُنْهها أحد مرصعة بالجواهر النفيسة. انفتح الباب على مصراعيه وبدى ويكأنه يُطل على عالمٍ آخر. أبصروا لمحات سريعة عمًا بداخل تلك البوابة. لمحات لن ينسوها أبدًا.

من داخل الباب برز كائن أبيض ضخم له حراشف كثيرة مُدببة وأربعة زعانف كبيرة كالأجنحة ووجهه كتمساحٍ عظيم الهيكل وفوق رأسه يجلسُ

رجل غريب الهيئة لم يسمعوا عن مثله إلا في أساطير الأقدمين. كان شعره يشتعل بنارٍ زرقاء وعينيه بيضاء لا بؤبؤ لهما ووجهه من الحراشف. كان يلبسُ درعًا أزرق لامع من معدنٍ نفيس.

اقترب الوحش من سفينة سندباد وارتفع بوجهه حتى برز لهم الرجل الغريب الجالس مُصالبًا قدميه. وثب الرجل وانتصبت قامته ونظر إليهم قائلاً بصوتٍ كصلصلة الأجراس:

- لقد ذبحتم صاحبي. تاه مني وأتى إلى عالمكم فذبحتموه وذبحتم من أتى معه. لقد ارتقيتم مرتقًا صعبًا حين مسستم بأصحابي.

تقدم سندباد متفرسًا في هيئة هذا الكائن عجيب الخلقة:

- من أيّ أرضٍ أتيت أيها الغريب؟ ومن هو صديقك الذي ذبحناه؟ نحن لم نرَ أحدًا يُشبهك من قبل.

رفع الغريب سيفًا طويلًا رفيعًا حادًا ذا نصلٍ أزرق ووجه ذبابته إلى سندباد قائلاً:

- لا يهم من أين أتيت أيها الصعلوك فأنتم أدنى من أن تعلموا عنا شيئًا. لقد قتلتم ثعبانًا عظيمًا نادرًا انجرف من أرضي إلى أرضكم ولتندمن أشد الندم على فعلتكم الشنيعة.

تذكر سندباد الثعبان العظيم الذي قتله حين استعان مروان بذلك الكيان المُظلم. أسقط في يديه ولم يدر أين المفر. شعر بقوةٍ عظيمةٍ تنبع من هذا الغريب لم يشعر بها قط. لقد شعر أمير البحار لأول مرة أن القتال في حالته هلاكٍ مُبين.

استجمع سندباد شتات أفكاره وأشار بيده المتوهجة إلى الغريب قائلاً:

- لقد كان يحطم القوافل ويلتقم الجزر ويفزع من في البر والبحر. لقد فعلنا ما يأمرنا به ديننا. لا ضرر ولا ضرار. ندفع الأذى عن الناس، ونقضي مصالحهم بما يحفظ دينهم ودنياهم.

لوح الغريب بسيفه في الهواء قائلاً:

- لا أكثرث بقواعد هذا العالم. لقد قتلتم عزيزًا عليّ وقد جئت لأقتص له.

نظر الغريب إلى الشمس وقال:

- شمسٌ واحدةٌ وسيلٌ طفيفٌ من الطاقة المباركة وقد أتته الكثير من الوحوش لتسكن بحاره. شيءٌ عجيب. ما الذي جذب الوحوش إلى هذا العالم.

رفع الغريب سيفه ولوح به لتنقض الثعابين الضخمة على السفينة تقضم خشبها وتُسقط سواربيها وتلتهم بحارتها، حتى جن جنون سندباد وهو يرى كل ما تبقى له يتحطم تارةً أخرى. قفز سندباد من على السفينة إلى رأس الوحش وأشعل سيفه نارًا واندفع إلى الغريب والتحم سيفاهما وطفقا يناطحان بعضهما بعضا بدفعاتٍ سيفٍ سريعةٍ. نظر الغريب إلى يد سندباد المتوهجة وتعجب كيف وصلت هذه اليد الخطيرة إلى هذا الرجل!

اهتزت السفينة بمروانٍ وشاهد رفاقه يسقطون في البحر فتتلقفهم أسماك القرش التي ظهرت بغتة وهم لا يشعرون. فُزع عن قلب مروان وحلق البيغاء بعيدًا يصيح في السماء. بحث مروان عن مُهاب فوجده متعلقًا بفأسه التي غرزها في السفينة. شرع يبحث بين أوراق كتابه عن صفحةٍ تنجيهم دون جدوى. لقد أظلمت الدنيا في عينيه وندم ندمًا عظيمًا عن فراره من بغداد.

أبصر الثعابين تُحطم الكهرمانه وتدكها دكًا وسندباد يُنافح عنها ويقاثل قتالًا مرييرًا مع ذلك الغريب. انطلق مروان إلى أحد المراكب المعلقة في الكهرمانه وقطع حبله لِيُسقط المركب إلى البحر ثم نادى مُهابًا أن هلمّ معي على المركب. حاول أن يجذب بعض البحارة معه لكنهم أثروا البقاء دفاعًا عن سفينتهم حتى النهاية. أعجب مروان من صبرهم وإخلاصهم لسندباد وسفينته، لقد اختار سندباد رجاله جيدًا، لا عجب أنه صمد في البحار حتى هذه اللحظة.

ركض مهاب عبر السفينة فاندفع أحد الثعابين إليه يحاول أن يلتقمه فقفز من فوق رأسه وتحاشاه، وبعدها كادت إحدى السواري أن تسقط فوقه فركض مُسرعًا وقفز إلى الأمام ورأى مروان يقفز إلى المركب الصغير فقفز وراءه وهبط فوق المركب وجعل يلهثُ والدموع تنهال من عينيه والسفينة تغرق من خلفه. قال متحسرًا:

- أنفر ونترك أصحابنا يغرقون ويؤكلون؟ كيف العيش من بعدهم؟ على أن أرجع إليهم وأموت معهم.

نظر له مروان نظرة عتاب قائلاً:

- ومن قال أننا سنفر.

نظر مروان إلى الغريب الذي احتدم نزاله مع سندباد ففهم مُهاب ما يقصد. لوح سندباد بسيفه المُشتعل ولاحظ أن الغريب يتحاشى النار ويبغضها. لكنّ سيفه الطويل كان يخوله أن يُناجز سندباد من مسافةٍ تقيه شر النار.

لوح سندباد بقبضته المتوهجة وأطلق سيلاً من النيران ناحيته فقفز الغريب إلى الخلف ولوح بأصابعه فقفزت إحدى أسماك القرش إلى سندباد من الماء فقفز من فوقها وضرب ظهرها بقدمه مُندفعاً ناحية الغريب وإذ دنا منه ضربه بسيفه عدة ضربات لكنّه صدها جميعاً وصنع بيسراه كُرة ماء مضغوطة ودفعها إلى بطن سندباد فاندفع إلى الخلف وكاد يسقط في الماء لتتلقفه الأسماك لكنّ مروان أخرج سلاسله وأحاط بها جسد سندباد وسحبه ومَّهاب إلى المركب. وثب سندباد ومسح الدماء عن وجهه قائلاً بصوتٍ مختنق:

- لأحرقنه وأطعمنه لوحوشه الأليفة.

تركهما سندباد وقفز إلى جسد الوحش مرة أخرى وركض مُسرِعاً إلى الغريب الذي رفع يده فظهر قوس فضي بهي يلمع تحت أشعة الشمس وطفق يصنع سهاماً من الماء المضغوط ويطلقها فصاح سندباد صيحة عظيمة وشرع يتحاشاها الواحدة تلو الآخر ويضربها بسيفه ومن ثم قذف بسيفه إلى صدر الغريب فتزك قوسه وأمسك السيف المُشتعل بيديه فاحترقتا فتألم ولكنّه أوقف السيف وما إن نظر أمامه حتى وجد سندباد قد وصل إليه ووكزه وكرزه بيده المشتعلة دفعته بعيداً لكنّ الغريب غرز سيفه في حراشف الوحش فثبّت مكانه. لكن سلاسل مروان أتته بغتة وأحاطته وقيدته ورأى مُهاباً يقفز في الهواء ويهبط بفأسه فوق رأسه، ردد الغريب كلمات لم يفهموها بنبرة جمهورية فاهتز الوحش الضخم الساكن في الماء وأسقط الغريب في البحر وما هي إلا لحظات حتى وجدوه يخرج من الماء مُمتطياً فرساً عجبياً من الماء الشفاف البراق كالبلور. صهل الفرس ذا القرن الواحد وشرع يضرب بحوافره الماء وفجأة زار الوحش العظيم ورفع جسده ليُسقط سندباد وصاحبيه في البحر فأدرك مروان حيلته، لكنّه قد وضع خطة بديلة فردد بعض الأبيات بصوتٍ

خافت فتحرك المركب وحده وأتى إليهم فقفزوا إليه جميعاً. نظر سندباد أسفل المركب ليجد حوتاً يدفعه. التف الوحش الضخم وخرج من الماء وبرزت أنيابه وكاد أن يهوي فوقهم ليلتقمهم فأمر مروان الحوت بالتقدم ففعل. اندفع المركب والوحش العظيم يهوي بفكه حتى افلتوا بصعوبة واندفع المركب من الأمواج التي خلفها الوحش.

ظل المركب يبتعد عن الكهرمانة وسندباد يُشاهدُ رفاقه يصرخون ويستنجدون ويضربون الثعابين بسيوفهم والسفينة تغرق إلى القاع والسواري تسقط والأشرعة تهبط معها. سالت الدموع من عينيه وبكى بحرارة وأمسك بتلابيب مروان صارحاً خارجاً عن طوره:

- أعدنا الآن يا مروان. لن أفر وأتركه يظفر بسفينتي ورفاق دربي.

دفعه مروان عنه قائلاً:

- أترانا ننتصر عليه الآن؟ نحن لا نعلمُ أيَّ شيءٍ عن هذا الكائن العجيب، إنه كما الأباطرة في الأساطير القديمة. أتى لنا أن نهزم أحداً مثله؟ علينا أن نفرَ ونفكر ملياً حتى ننتقم منه.

نظر سندباد خلفه وراه يجول بفرسه حول الكهرمانة يسقط البحارة بضرباتٍ من سهامه ومن ثم أمر وحشه أن يبتلعها بمن فيها ففعل. وقف سندباد يصرخ كالمجنون ووضع يده على رأسه من شدة الألم وشعر بقلبه يكاد يخرج من بين ضلوعه، فظل يصرخ قائلاً:

- لأنتقم منك أشد الانتقام، لن أتركك تهنأ بعيشٍ طالما ظلت روعي في قلبي. ساتي خلفك ولو ذهبت إلى أرضٍ غير الأرض أو سماء غير السماء. ستجدني أينما حللت. ستجدني أينما حللت. أعدك بذلك.

سمعه الغريب فوقف بفرسه ونظر إليه ومركبه يبتعد في الأفق وقال بصوتٍ خافت:

- سأنتظرك إذن لأنني لم أنل انتقامي بعد.. لقد هزمتك في أرضك وأنا ضعيفٌ فيها، فلا ماؤها يُشبه مائي ولا سماؤها كسمائي ولا شمسها كشمسي.

تاه المركب في البحر وتفجع سندباد من مصيبتته ولم يخرج من صمته المطبق وتأمله للماء والسماء والدموع تنهار كالأنهار على وجهه.

خاف الثلاثة أن يضلوا الجزيرة التي أرادوها "سمرقند" العظيمة، المدينة التي حكى عنها الرحالة وعن جمالها وبهاءها. لم يكن معهم زاد يكفي أكثر من يومين.

أنشأ مروان يستلقي مما أصابه من نصبٍ، فقال سندباد لهما بصوتٍ باهت:
- ناما أنتما واتركا لي التجديف.

فاعترض مُهاب قائلًا بل استريحا وأنا سأجدف، ولكن سندبادُ أصرَّ قائلًا:
- أنا سبب ما وقع إلينا! أنا الربان وفشلتُ في أن أنقذ سفينتي.

- لقد كان يفوقنا بأسًا يا أمير البحار. لم يرَ أعظم البحارة والملوك في تاريخهم خصمًا وندًا عظيمًا مثله. أرأيت ما فعله؟ كان يُسير وحوش البحر الضخمة ويأمرها فتأتمر، وصنع فرسًا من الماء! وعجبا.

فقال سندباد وهو حزين منزعج:

- ليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا. لكنني لم أمت، ولذلك سأكمل الطريق حتى أجده وأذبحه ذبح البعير. لقد جاء من بابٍ عجيب لا أفقه عنه شيئًا، لا نعلم إلى أين يؤدي هذا الباب في أرضنا، أم أنها ليست بأرضنا؟ وإن يكن؛ سأعثر عليه ولو فر إلى أعماق المحيط.

تنهد مروان واعترض كلامهما قائلًا:

- فلتنأما يا أخوي، فنهارنا طويل. لا أعلم أين سمرقند، لقد غرقت الخرائط.
سأرسل ببغائي يبحث في السماء عن أقرب جزيرة نهتدي إليها ومنها نذهب
إلى سمرقند.

ظل سندباد مستيقظاً والمشاعر تختلج في صدره وتعصفُ به فجعل يُعالج في
نفسه ما الله به عليم، أحس بما أحسه إمرؤ القيس حين فقد ملكه فتذكر معلقته
الخالده وأنشد يقول:

- وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُولُهُ عليَّ بأنواعِ الهموم لبيّتي

فقلت له لما تَمَطَّى بجوزه وأردف أعجازاً وناءً بكلّ

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح فيك بأمثل

فيا لك من ليلٍ كأن نجومه بكلِّ مُغارٍ القتلِ شُدَّتْ بيذبلِ.

بكى سندباد وذرف الدمع فحملتها الرياح ودارت بها بين ظُلمة المحيط.

حاول أن ينام لكن الكوابيس هاجمته بشراسةٍ وأيقظته عدة مرات حتى نزلت
النوم من جفنيه نزاعاً فكاد يُجن إذ أمسى الفرار من فواده المضطرم ناراً من
المحال، حتى النوم قد حُرِم منه فأين السبيل إلى لحظاتٍ ينسى فيها همه
وغمه! أمسك قلبه وبكى ونظر إلى البحر العاصف وتخيل أصحابه يغرقون
ويُسحبون إلى قاعه ليستقروا على سريرٍ من رمالٍ وصدف تَأْكُل الأسماك
من أجسادهم وتحيطهم ظلمة البحر وظلمة السماء.

بعد يومين مُمطرين عاصفين، اقترب الطعام أن ينفد فأصابَ الثلاثة الكدُّ
والياسُ، ظل الببغاء يبحثُ ويمشط البحر لعله يجد جزيرة. ولكن في صباح
اليوم التالي أشرقت الشمسُ وتجلت للببغاء بالأفق جزيرةً كبيرة، فنقنق وجاء
إليهم بالخبر السعيد، فضحك مُهاب واحتضن سندبادُ بقوةٍ من الفرح حتى كاد
يحطمُ عظامه.

فنظر سندبادُ ومروانُ إلى الأفق فرأيا الجزيرة تتبدى أكثر فأكثر كلما اقتربوا،
فتهللت أساريهم وحمدوا الله أن أعاد لهم الأمل بعد أن قضوا ثلاثة أيام في
البحر الشاسع.

كان مروان يُراقبُ البحرَ تحسُّبًا لأيِّ خطرٍ مُقبلٍ، أمّا مهاب شرع يوجّه المركبَ إلى الجزيرة، حتى وصلوا واستقر المركبُ على الشاطئ الذي بدا مهجورًا وكأنه صحراء شاسعة لا نهايةَ لها.

تنهَّد سندباد قائلاً وهو يائس منزعج:

- سنضطر أسفًا بزدانا هذا الذي يكاد ينفد أن نقطع هذه الصحراء كي نصل إلى أقرب مدينة، لا خيارَ آخر أمامنا!

حمل الفريقُ ما تبقي لهم من زادٍ وارتدوا عمائمَ تقيهم أشعةَ الشمس الحارقة، وانطلقوا يشقُّون طريقهم إلى المجهول.

وإذ تكبدت الشمس السماء لتتنسخ الظل وتُلقي بأشعتها الحارة عليهم، إنسالَ من أجسادهم العرقُ وقهرهم العطش، فتغشاهمُ القلقُ من قلةِ الماء وعجزهم عن العثورِ على أي أثرٍ للحياة، فخشوا أن يهلكوا هباءً بعد كل هذا العناء.

وإذ تعسّر السيرُ على الرمال الساخنة ذات اللون الذهبي اللامع وأضحت النسورُ تترقبُ سقوطهم على الأرضِ إغماءً، قال سندبادُ مازحًا وهو منهكٌ:

- سأضحى طعامًا مشويًا للنسور بعدَ كلِّ هذا ... الآنَ أيقنتُ لما لا يريدُ أن يُغامرَ في الصحراءِ أحدًا!

مسحَ عرقه بمنشفةٍ من صوف، وارتشف من قارورته المُشرفة على الانتهاء. قال مروان لمهاب:

- احملني؛ فسأسلط وعيي على أحد هذه النسور لعلني أجد قريةً قريبةً لأنَّ البيغاء قد أنهكته الرحلة.

فحملهُ مهاب فأغمض مروان عينيه فجعل النسورُ يُحلقُ حينًا طويلًا حتى لاحت بالأفقِ قافلة كبيرة يحرسها بعض الجنود، فتجدد الأملُ في مروان؛ فالقافلة لن تكون وسيلةً تنقلُ فقط بل وقد يقدم لهم المرتحلون طعامًا يطفى نار الجوع. استكملَ النسورُ تحليقه في السماء الزرقاء الشاسعة، والرمال أسفلهُ تلمعُ وكأنها بساطٌ ذهبيّ مطحون⁽⁶⁾ وبعد حينٍ من الطيرانِ لمحَ مروان المدينة تلوخُ أسوارها بالأفق، فتحمّس وأعاد وعيه إلى جسده، فأنزله مهاب فقال مروان وهو مسرور:

- لقدُ بصرتُ المدينةَ ولكنها بعيدة، ثمَّ إن هناك قافلة قريبة منّا وأصحابها يستريحون فإن أسرنا الخُطى فسوف نلحقها.

هَلل سندبادُ ومُهَاب، فاعتصر مُهَابُ جسدَ مروانَ حتى كاد يحطّم عظامه، فأمر مروانُ البيغاء فأتى مُهَابًا ونقره على رأسه الأصلع الكبير نقرًا بمنقاره،

(6) ممتد ومنبسط في جميع الاتجاهات.

فتألم مُهابٌ من ضرباته حتى ترك مروان الذي زجره مرةً أخرى، ووعدته أن سيحوّله إلى عناية إن كررها.

استكمل الرفاق رحلتهم وسط الرمال الحارقة يكافحون للوصول إلى القافلة، وبعد ساعةٍ أنتت أقدامُ سندباد شكوةً من طولِ المسير، فلما أن اقترب غروبُ الشمس، وأمسى قرصُها الأحمر يتوارى في الأفق أسفل السحابِ فصبغ الرمالَ حمرةً وكأنها سجادة حمراء كبيرة ممتدة أمامهم، قال سندبادُ متمماً والكلماتُ تخرجُ من فمه بصعوبة:

- مروان، أين تلك القافلة؟! أم أنك رأيت سراّباً؟!!

قال مروانُ وهو منحني الظهر، وقدماه تئنّان:

- إننا نقترّب، بقي القليلُ أيها المتذمر.

كان مهاب يتقدمهم لأنه أطولهم، فلما أن رأى بحيرةً تلوح له بالأفق، انطلق إليها وهو يناديها ها قد وجدتُ بحيرةً، فحذره مروان صائحاً:

- إنه سراّب، فلا يغرنك!

فقال سندبادُ وهو ضجرٌ:

- لم أكن أظن أن الرحلة سوف تكون مملّة هكذا مقارنةً بسير الرحالة التي قرأتها. أين الكهوف! أين المخلوقات العجيبة! أين ال ...

فإذا الرمالُ تمورُ ليخرجَ منها عقربٌ ضخّم الجثة، فقال مروانُ:

- ها قد جاءك ما طلبت!

- تقصدُ ها قد جاءني ما أيقظت!

- وما كنت تريدي أن أفعل! أتركه يركضُ وراءَ سراّبٍ من دون أن أحذره؟!!

اندفع ذيله السامُّ إلى سندباد فقفز ناحية اليمين وتفاذاه، وتراجع مروانُ إلى الخلف يُفكرُ في مخرج، وأمسك مهاب بفأسه الضخم واستعد للقتال. رفع سندبادُ سيفه ومرّر يده الحمراءً عليه ليشتعل، ورفع مروانُ يديه وتمتم ببعض الكلمات، فبدأت الرمالُ تتحركُ وترتفعُ من حولهم حتى شكّلت شلالاً من

الرمال أغرق العقرب، ولكنّه اخترق الرمالَ وعادَ من جديد فقال سندبادُ ساخرًا:

- لقد جاءنا من أسفلِ الرمالِ، ثُمَّ تعتقدُ أنك بالرمالِ ستقتله!

فنظر إليه مروان في غضبٍ وتجاهله. رفع سندبادُ يده الحمراءً وصوبها على العقربِ وأطلقَ وابلاً من النيرانِ فطوقته، فوقفَ سندبادُ فخورًا ينتظرُ أنْ تنتشعَ النيرانُ كي يراه مسقورًا(7)، فلما أنْ دلكت(8) وجده كما كان، فقال مروانُ ساخرًا يردُّ له الإهانة:

- ألا ترى أنّه يعيشُ في بيئةٍ شديدةِ الحرارة! أفتظنُّ النيرانُ تحرقه!؟

فأشاح سندبادُ بوجهه ولم يرد عليه. طففوا يتفادون ضرباته حتى لاحظوا عقارب صغيرة تقبل نحوهم، كادوا ألا يرياها لولا أن حذرهما مروان منها، فأخذوا يتفادونها ويدعسونها بأقدامهم أو يضربونها بأسلحتهم والعقرب الكبير يستغل أي ثغرة ليلدغهم وهم مشغولون بالعقارب الصغيرة، أسقر سندباد بعض العقارب وثبط مروان بعضها بأبياتٍ ألقاها عليهم وطفق مُهاب يدعسها ويحاول تجنب لدغات العقرب الكبير المميّة.

تعثر سندباد من غزارة الرمال ووقع على الأرض فلاحظه العقرب ودفع ذيله ناحيته ليلدغه ولكنّ سندباد تدرج وما كاد يتفادى ضربته حتى وثب على قدميه وهو يحسُّ خطورة موقفهم، فأخذ يعتصر ذهنه حتى خطرتُ على باله فكرةٌ، فقال وهو يتوجهُ إلى الجانبِ الأيمن:

- مروان توجهَّ إلى الجانبِ الأيسر .. مُهاب حاصره من الخلف؛ فلدي خطة!

فعلا ما أمرَ به سندبادُ، فأمسى العقربُ مُحاصرًا من الجهاتِ الثلاثة، فقال سندبادُ بصوتٍ عالٍ:

- مُهاب قيده عن استخدام ذيله بأنْ تربطه بحبالك، وأغرقه يا مروان بالرمال مرةً أخرى!

(7) اسم مفعول مؤد قياسيًّا، والسَّقْرُ: حرارة شديدة من حدثها تغيّر معالم الشيء.

(8) إزالة برفق، ومنه التدليك والدلوك.

- ألم تكن فكرةً سخيّةً منذُ قليل؟!!

- ثق بي وافعل كما أقول!

فأخرج مُهابَ الحبالَ المُعلقةً حولَ خصره وطفق يلفّها في الهواء وقذفها لتستقرّ على ذيله، فسحبها بقوةٍ شديدةٍ حتى مالَ الذيلُ إلى الخلفِ فصرخَ العقربُ يحاول أن يحررَ نفسه ولكن هيهات، فمروان قد رفع الرمالَ عاليًا حتى تغطته على هيئة إناءٍ ولكن ذيله السام ظل خارجه.

رفع سندبادُ يده، ووجّه راحةً يده نحو الإناءِ الرملي، فأخذت تتوهجُ توهجًا شديدًا فخرجت نيرانٌ فتاكَةٌ اصطدمتُ بالرمالِ فتغطتها، فطفقَ شكلُ الرمالِ يتقلبُ حتى تكونتُ مادةً شفافَةً صلبة، فحاولَ العقربُ أن يخرجَ ولكنه اصطدمَ بهذا الجسمِ الصلب، فانبتَر ذيلُه فصرخَ الوحشُ صراخًا مدويًا، فقال سندبادُ وهو يبتسمُ:

- ألا إنه الزجاجُ، قد قرأتُ عن كيفيةِ صنعِه في أحدِ الكتبِ .. تدمجُ النيرانَ مع الرمالِ فيتشكّل. ليسَ صلبًا بما يكفي كي يحتويه طويلاً، لذلك قد حانَ دورُك يا مُهاب!

ابتسمَ مُهابُ ابتسامةً استمتاعٍ بالأمر، فانطلقَ إلى الإناءِ الزجاجي يجري فإذا العقربُ يضربُ برأسِه الزجاجَ حتّى أوشك أن ينخرق، فأسرَع خطاه ومروانُ يصنع له سلمًا من الرمالِ كي يصلَ إلى قمة الإناءِ، فجعل يصعدُ الدرجَ صعودًا رشيقيًا حتّى وصلَ إلى أعلى الإناءِ ليقفزَ مباغتًا وهو يلوح بفأسِه، فنزل على رأسِ العقربِ ففصله عن جسده وسقط مهابُ على الأرض بعد إذ فصل رأسه فخر العقربُ جثّةً هامدة، فخرجت عقاربٌ صغيرة من رأسِ العقربِ المقطوع واندفعت لتلدغ مُهاب، فدفعها بعيدًا عنه ولكن أسفًا لدغ مهاب عدة لدغات أدمته، فأحس بالسُم يسري في جسده فقال:

- ويح مُهاب! لقد لدغت.

ذهب مروان إليه مسرعًا ليتفقد جروحه، وسندباد يُبعدُ العقارب بنيرانه عن طريق مروان، فلما أن اقترب مروان من مهاب أبعد العقارب ببعض التتمتات ونظر يتبصر فوجد مُهابًا ملدوغًا في يده وصدره وكتفه فامتلاً

مروان توترًا، فوضع يده على الجراح ورتل وأخرج بعض الأعشاب من حقيبته وضمد بها الجراح وقال وهو متوجس:

- أبطأت سريان السُم في جسدك ولكن علينا أن نجد طبيبًا يُطيبك حالاً فالسيل المبارك لا يُعالج السموم!

قال سندباد وهو ينظرُ إلى الأفق وقد شعر أن طاقته قد استنفدت من مواجهة العقب:

- لا نجاة لنا إن لم نعثر على تلك القافلة حالاً!

ساروا طويلاً حتى نفذ الزاد منهم وبدأ مُهاب يهلوس من شدة السُم فقال لهما اتركاني وانجوا وحدكما فأنا ثقيل، وأخذ يترنح ترنحًا غريبًا حتى سقط على الأرض وازرقت شفته، فقال مروان والقلق مستبد به:

- علينا أن نُسرع؛ فالسُم يكاد يفتك به!

ضاق صدر سندباد وخشي أن يفقدوا مُهابًا أيضًا، فطلب من مروان أن يُساعده في حمله وسارا به وقد أنهكهما ثقل وزنه، فمشوا ببطءٍ وهم يدعون الله أن ينجهم، ثمَّ أحسَّ سندباد أنه يكاد يُغشى عليه من شدة الإرهاق ونفدت طاقة مروان فأضحى لا يستطيع استعمال سيل البركة، فأيقنوا أن هلاكهم وشيك فقال سندباد لنفسه وهو يترنح:

- يبدو أنها نهاية الرحلة.

سقط سندباد على الأرض مُغشيًا عليه فلم يتحمل مروان حمل مُهاب وحده فسقط معه.

تحامل مروان على جسده وجعل يزحف إلى سندباد ليhez جسده ولكنه لم يستجب، فنظر حوله ووعيه ينسحب تدريجيًا حتى لمح أشياء بعيدة متوجهة إليهم فظن نفسه يهلوس ولكنه لاحظ أنها تقترب فأمعن نظره فإذا هي القافلة التي رآها تقترب، كانت القافلة عظيمة فيها أموال وبضائع نفيسة من حرير وجواهر وبخورٍ وعطورٍ وبر وشعير وتمر وأرز وذرة، ويحرسها أربعون حارسًا وفيها خمسة عشر تاجرًا.

لفَّ مروان يد سندبادَ بخرقةٍ ليخفي يده الحمراء ولمّا أن اقترب منهم أحد حرس القافلة نظر إليهم نظرة ارتياب فوقف مروان وهو يترنح وأقبل عليه وقال والكلمات لا تكاد تخرج من فمه:

- أرجوك ... صاحباي في خطر ... نريد ماءً وطعامًا، وعلاجًا لسم العقارب إن كان معكم!

نظر له الفارس في نفورٍ من فوق فرسه وقال بحدّة:

- ومن أنتم ومن أين جنّتم؟!!

- إنّا رحالة، ونريد أن نصل إلى المدينة .. أرجوك ساعدنا فالوقت ينفد!

نظر إليهم شيخٌ كبيرٌ فأشفق على حالهم، فأمر الحارس أن اتركهم فوجههم ليست بوجه لصوص، فتوجه الجُند وحملوا سندباد ومُهاب على أحد العربات التي يجرها النعام الأحمر السمين وأسقوهم فاستفاق سندباد ولكن ظل مُهاب في غيبوبته.

قال لهما الشيخ ذو الوجه الوقور:

- ليس لدينا علاج للسم؛ لذلك تعالوا معنا إلى المدينة وسأدلكما على بعض الأطباء، أو ربما نُعالج صاحبكم في البيمارستان⁹ النوري.

نظر له سندباد نظرة ذات دلالة وقال:

- البيمارستان النوري! أتقصدُ أننا في..

قطعه صوت الجمال. أعطوا سندباد ومروان جملين فشكراهما وركباهما وقائد الجُند ينظر إلى الشيخ نظرة توحى بالرغبة والوعيد.

البيمارستان النوري يقع في قلب مدينة دمشق، ويعد واحداً من ثلاثة بيمارستانات اشتهرت بها المدينة. بناه الملك العادل نور الدين زنكي، وخصصه كمشفى للمساكين والفقراء، ثم تحول ليصبح واحداً من أشهر المشافي ومدارس الطب والصيدلة في البلاد الإسلامية، وقد تعلم فيه كبار الأطباء مثل ابن سينا والزهرراوي⁹

وإذ غاصَ آخرُ أثرٍ للشمسِ بالأفقِ وبرزَ القمرُ ليُلقيَ بنوره الخلابِ على الصحراءِ وتشابكتُ النجومُ بأنوارها الساحرة لتبدد ظلام الليل ويكأنها آلاف الجواهر المتألئة، قال سندبادُ مدهوشاً متعجباً:

- سبحان الله .. إنه لمنظرٌ فائقُ الجمال، لم أشهدُ مثل هذا الحسن من قبل!

ظَلَّتْ النجومُ تتلألأُ فوق رؤوسهم مُلقيةً بأنوارها البهية على الرمالِ لثُرشدَهم إلى تلكم المدينة. تأملَ سندبادُ الصحراءَ وكأنه لأول مرةٍ يراها، وأدرك أن بالرغم من خلوها من كثيرٍ من أشكال الحياة، إلا أنها تنبض بالروح، وتزخرُ بآيات الجمال التي قد لا يلاحظها العابر وإنما يفتن إليها المتأمل.

لكن الصحراء أمست تزخرُ بكائناتٍ عجيبة ظهرت مع الهزة العظيمة، كالأفاعي ذات الرؤوس المضيئة التي تلمع في أرض الصحراء كالماس فتضيء للمسافر دربه في الليل ويكأنها قناديل مبعثرة في الصحراء. أما في النهار فتتنشط وتهاجم الكائنات الحية بسمها المُميت. وتنام في الليل مفرغة الضوء الذي امتصته طوال النهار لذلك تشع بضوءٍ بهي يملأ الصحراء ويُرشد الناس. وينتشر في الصحراء كذلك الدود الضخم والعقارب العظيمة والنعام الأحمر والأصفر ذوي الأجسام السمينة الكبيرة والأرجل المتينة السريعة والتي صار يركبها أهل الصحراء للعبور السريع من مدينةٍ لمدينة والكثير الكثير من المخلوقات العجيبة.

استمرَّ سيرُهم بالجمال والنعام والخيل حيناً طويلاً حتى لاحظوا اشتداد الرياح فعلموا أنه لنذيرٌ شويم، فإذا هي تأتيهم مُحملةً برمالٍ كثيفة، فزملوا الوشائح على الوجوه، واستكملوا طريقهم وبعد حينٍ تثبَّتت القافلة من شدة الرياح الرملية ورفضت أن تُكَمَلَ ولكن الجميع كان مُصرّاً، وظلت الرياح تبطنهم حيناً وتسرعهم حيناً حتى تغشاهم الإنهاك، وإذا بعض النتوءات الصخرية تعترضهم، فاقترح عليهم سندبادُ أن يتوقفوا حتى تهدأ العاصفة، فنزلوا من على الجمال والعربات وتوجهوا إلى النتوءات ليحتموا وراءها، ثم غطَّ سندبادُ من تعبهِ في نومٍ حُلْم فيه بعددٍ من الأحلام الغريبة قبل أن يستيقظ مُصبِحاً ويجد الرياح قد سكنت، فأيقظ مروان والتجار والجند وأنشأ يُحضِرُ الجمال

ليستكملوا رحلتهم قبل أن يفقدوا مُهابًا الذي اشتدت الحمرة عليه وتفصد العرق
في جبينه وطفق يُصدر أصواتًا غريبة.

الغيوم

وإذ شقتُ الجمالُ طريقَها وَسَطَ الرمالِ وتجلَّى قرصُ الشمسِ مُعلنًا بدايةَ يومٍ جديدٍ في رحلتهم الطويلةِ وداعبتُ رياحُ الصباحِ المُنعشةُ وجوهَهُم، قال سندبادُ للشيخ:

- لمَ طال الطريق هكذا؟!!

- لقد أوشكنا أن نصل، فقط بضغ ساعاتٍ.

تنهَّد مروان وقال وهو يسقي الببغاءَ المُنهك من القيث شربة ماء:

- لن يتحمل مُهاب بضغ ساعات، فهلا نسرع!

قال الشيخ والإنهاكُ بادٍ عليه:

- صبرًا، سوف نصل في الوقت المناسب. كما أن صاحبكم قوي البدن عظيم التحمل. لم ينجو أحدٌ لدغ من العناكب الكبيرة كلَّ هذه المدة. لا أعلم كيف لا يزال حيًّا حتى الآن!

وإذ اشتد لهيبُ أشعةِ الشمسِ وانسال العرقُ من أجسادهم وأضحى الهواءُ مُحتدمًا لا يكاد يُحتمل، إشرأب سندباد بعنقه ينظر فلمح أناسًا يركبون أحصنة ونعامًا أحمر وأصفر مُقبلين عليهم مُسرعين فقال مستفهمًا:

- من هؤلاء؟!!

نظر الراكبون وهم مذعورون فقال قائد الحرس:

- إنهم اللصوص، يعترضون قوافلنا منذ زمنٍ طويل.

جهّز الجُند أسلحتهم وطلبوا منهما ألا يتدخلا، فلم ينبسا ببنت شفة وقعدا يترقبان المعركة في توتر، فلمّا أن دنا اللصوص طفقوا يضربون الجُند بسيوفهم ضربًا بارعًا يظهر خبرة هؤلاء الحربية، فتقهقر جمعُ الجُند أمامهم رغم أنهم كانوا أكثر عددًا. ارتعدت فرائص التجار وعلّموا أن لا مفر لهم من قبضة هؤلاء اللصوص فتهيأ سندباد ومروان ليتدخلا فأحسا جسديهما لا يقويان على ذلك.

وبعد إذ انتهى اللصوص من الجُند توجهوا إلى التجار المفزوعين فتحامل سندباد ومروان على جسديهما ونزلا من على جمليهما ورفعنا سيفيهما في وجه اللصوص ودعيا الله أن يمدّهما بالقوة، فخرج أحد المُلثمين وقال مُشهرًا سيفه في وجه الرفيقين:

- إنكما لستما من جُند قحطان فعرفا عن نفسيكما!

نظر له سندباد في ضيقٍ ونظر إلى جثث الجُند المغرورقة بالدم فقال وقد فار الدم في عروقه:

- نحن رحّالان من بغداد ومعنا صديق لدغته العقارب ونريد أن نصل إلى المدينة كي ننفذه لذلك إن كان في قلبكم مثقال ذرة من رحمة فاجعلونا نمر بسلام!

ضحك اللصوص فأشار إليهم قائدهم في صمتٍ وقال:

- إنك لا تفهم شيئًا أيها البغدادي! نحن نسرق ما هو حق لنا. ولأنا لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق فسدعكم وشأنكم مُقابل أن تتركوا بضاعتكم إلا ما يكفيكم للوصول إلى المدينة.

تدخل مروان قائلاً يستهجن:

- لا تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق! وماذا عن هؤلاء الجُند المساكين؟!

- إن كنت صاحب حق سوف تعلم حين تصل إلى المدينة لم فعلنا بهم ما فعلنا!

تقدم اللصوص وحملوا البضائع وأخذوا الجمال وكلّ ما ينفعهم وتركوا لهم بعض الزاد وسط عجز سندباد ومروان، ثم انطلقوا مُبتعدين ظافرين بمبتغاهم.

جز مروان على أسنانه وقبض حفنة من الرمال ظل يعنصرها عصرًا وقال:

- لولا أني منهك لحطمت رؤوسهم!

استكملوا الرحلة بقليلٍ من الزاد، وتشققت شفاهم من العطش وقرقرت بطونهم طلبًا للطعام، ثمّ لاحظ سندباد حزن الشيخ الشديد لأنّه فقد بضاعته بعد إذ عبر كلّ هذه المسافة، فواساه سندباد وأثناء حديثه معه بدأت أسوار المدينة تلوح لهم بالأفق.

فتحمس سندباد ومروان بعد أن كاد شبخُ الموت ينتزعهم انتزاعًا، فلما أن وصلوا رأوا جميعًا حارسين يقفان بتأهبٍ لدى البوابة، كانا يرتديان عمامةً بنية اللونٍ ورداءً بنيًا من وبرِ الجمل وسروالًا أبيضَ وحذاءً من جلدِ الأفاعي الصفراء. تناولا رمحيهما وبسطاهما إلى الأمام استعدادًا إذ رأيا القافلة فأوقفوا جمالهم ونزلوا فتوجّه العجوز إليهما، فعرّف عن نفسه ولكنّ الجنديين لاحظا ملابس سندباد ومروان الغريبة فسألهم أحدهم:

- من أنتما؟!

تقدم سندباد وقال:

- السلامُ على من اتبع الهدى، أنا سندباد وهذا صديقي مروان.

نظر الحارسان إلى بعضهما مُتعبّين، ونظرا إليه مرةً أخرى بتجهّم شديد وقال أحدهما:

- ومن أين جئتما؟!

- جئنا من بغداد.

بدا الحارسان أكثرَ حدةً إذ سمعا مكانَ قدميه، فقال له أحدهما:

- إننا لا نستقبلُ أحدًا من بغداد. بيننا وبينهم ما بين المشرقين والمغربيين.

فردّ مروان ليتدرك الموقف:

- سيدي، إننا لا علاقة لنا بسياسات البلاد، فما نحن إلا رحالة نجوب العالم لنشاهد آثاره ونكتشف أسرارَه الدفينة، لذلك أرجوك إسمح لنا بالدخول!

همسَ الحارسُ لصاحبه، فقال الشيخ بحزم:

- دعهما يدخلان فصاحبهما على شفا الموت، مسموم سم عقارب، ثمّ إنهما حاولا أن يمنعا اللصوص بعد أن اعترضونا.

توجّه الآخرُ إلى الداخل وعاد يقول بنبرة حادة:

- يمكنكم الدخول! ولكن فتیان بغداد لا يُمكنهما. فصرخ سندباد فيه بحنق:

- إسمع أيّها الفتى العنيد، لقد أرهقتنا هذه الصحراءُ ونفذ طعامنا وماؤنا ولا مكانَ آخرَ عندنا نذهبُ إليه وصديقنا على حافة الموت؛ فاسمح لنا بالدخول وإلا دخلنا عنوة فنحن لا شيءَ لدينا نخسره!

نظرَ الحارسُ إلى صديقه فأكمل الشيخ قائلاً يُهددهم:

- أنا التاجر خالد بن نصر الدمشقي أحد كبار تجار دمشق ولئن لم يدخلنا فستندمان ندمًا شديدًا.

قال الحارسُ بنبرة باردة:

- انتظروا ههنا قليلاً!

دلف مرةً أخرى إلى المدينة وعادَ لسمح لهما بالدخول، فدخلوا جميعًا دمشق التي في نظر الزائر لا شيءَ يَعْدِل عظمتها وروعها وسحرها، فلها غُوطتها النَّصْرَة التي تقع بين سهل واسع، والتي تتخللها منازلُ القوم وحدائقهم، والتي تحيط بأغرب ما في الدنيا وأسطع ما فيها من أسوار، وتبدو هذه الأسوار – المؤلفة من حجارة صُفر وسُود مدورةٍ ومربعةٍ ومثلثةٍ على ألفِ شكلٍ مع الانسجام – حَمْلَةً مُوشَّاةً بالزبارج.

وليس ذلك النطاقُ كلُّ ما يبدو للأعين، فهناك أسوارٌ داخل المدينة تفصل بين أحيائها، وهناك أسوار ذات أبراجٍ مربعةٍ قائمة على جوانبها، وهناك أسوار تعلوها زخارف على شكل عمائم.

ولكن هذا ليس سوى المرحلة الأولى من المنظر، فصميم المدينة أسنى وأبهى، وهو يتألف من أشجارٍ تَأْلُفُهُ من بيوت، وذلك أن هنا صفًا من شجر السَّرْو، وهنا محلاً للنزهة، وهناك أقواساً عربية، وهناك سوقاً للأخذ والعطاء، وهناك نخلاً تَهْزُ رؤوسها الجميلة فوق حوض على شكل نصف دائرة لِعَيْنٍ عظيمة، وهناك أشجار مثمرة مصفوفة على شكل رقاع الشطرنج داخل قصرٍ يعلو بشموخٍ في نهاية المدينة، ثم هناك أكثر من ألف قبة، وهناك سوقٌ ينبض بالحياة، يتحرك فيه الناسُ ذهاباً وإياباً دون توقفٍ.

قال سندبادُ من فرط انبهاره وقد نسى جوعه وعطشه:

- يا الله! ... إنها دمشق! ... آيةٌ في الجمال!

لكنه لاحظ شيئاً جعل المدينة ذات طابعٍ غريبٍ عن بغداد، وهو أن ثمة تماثيلَ تَمَلَأُ المكانَ يتبرك بها الناس ويقدمون إليها القرايين، هذه التماثيل كانت مزيج بين الإنسان والسنوريات فإمّا نمراً وإمّا أسدً وإمّا فهدً وإمّا قطً ... إلخ. كما أن المدينة كالجنة التي لم ترها عين قط! فالأشجار تحفها من كل جانب والورد والزهور والثمار تملأ الطرق وتحف البيوت.

قال مروان وهو يهمس لسندباد بتعجب:

- أليست دمشق على ديننا! فما الذي حدث لتصبح هذه التماثيل موضع بركة وتعبد؟!

فقال له سندبادُ هامساً:

- يبدو أنه تغيّر الكثير منذ أن ضعفت بغداد وتركت شؤون حكم باقي الجزر.. لقد اختفت أخبار دمشق منذ عقد أو يزيد، ولم نسمع عنها. لقد قطع واليها التجارة مع بغداد وحرّم الناس من الولوج إليها إلا في الحالات القصوى، وحرّم من فيها من الخروج حتى لا يخبروا العالم بما يحدث داخلها. لكن بعض الأنباء وصلت إلى مسامعنا أن على جزر الشام ظهرت العجائب

والمعجزات والآيات وغرق الناس في النعيم والملذات وبعث الله إليهم الأنبياء! أتصدق هذا؟ يقولون أن ثلاثة أنبياء قد جاءوا إليهم دفعة واحدة ونحن نعلم ألا نبي بعد محمد. فمن هؤلاء إذن؟ وهل هم من أمرهم ببناء هذه التماثيل العجيبة؟

قطعهما الشيخ وهو يُشير لهم إلى البيمارستان النوري الذي يبرز في الأفق. أخذهم الشيخ إليه وقد لاحظ نظرات الاستنكار في أعينهم من التماثيل، ولكنه أثار الصمت. ودّعهم بعد إذ تأكد أن مُهَابًا في أيِّ أمينة فودعه سندباد وشكره شكرًا جزيلاً على مساعدتهم وتمنى أن يتقابلوا مرةً أخرى.

حمل الأطباء مُهَابًا وأدخلوه إلى أحد الغرف المزينة بالفسيخاء وانتظرا هما في الخارج يتأملان المشفى النوري العظيم.

يعتبر المدخل الرئيسي للبيمارستان الأثر الأكثر ثراءً في الواجهات الخارجية حيث يفتح بالواجهة الغربية، له باب ذو مصراعين من الخشب، مصفحان بال نحاس، ومزخرفان بالمسامير النحاسية الموزعة هندسياً.

يلو الباب زخارف جصية جميلة، صممت من تسع مداميك من المقرنصات التي يبدو شكلها كشكل الورقة المجوفة. وهذا النوع من التشكيل فن جديد في الشام أتى به السلاجقة العظام، كما أن تجويف البوابة فن جديد أيضاً، حيث تشاهد الأقواس المؤلفة من سبعة فصوص، كما تتكرر الأقواس الحدودية لسلسلة البوائك الصم مرتين في الداخل ضمن الانحناءات ويتخلل تلك المحاريب الصم أعمدة جدارية تتفرع من أعلاها على شكل شجرة النخيل.

يلي الباب غرفة مربعة (الدركاه) تقوم مقام الدهليز مزودة بإيوانين صغيرين شمالي وجنوبي، ومسقوفة بعقدٍ مُزين بزخارف ذات أقواس ومقرنصات جصية تُشبه زخارف بوابة البيمارستان.

تتفتح الدركاه من الجهة الجنوبية على فسحة سماوية شبه مربعة تتوسطها بركة ماء مستطيلة ويحيط بالفسحة أربعة أو اوين، تتفتح على جانبي كلِّ إيوان غرفتان وكل فراغات هذا الأثر مسقوفة بالعقود المتقاطعة. وتحمل جدران

الدركاه أشرطة كتابية وسقفت بقبة عالية تُغطّيها المقرنصات من الداخل والخارج وتعتبر هذه القبة مع قبة تربة نور الدين القريبة من البيمارستان مثالين فريدين في العمارة الشامية.

تنتفح الدركاه على صدر الإيوان الغربي الذي يُغطّيه قبو برمّل مُدبب ويفتح على الصحن بعقدٍ مخموس، وفي الإيوان زخارف من المقرنصات وبابان يفتحان على جانبيه ويوصل كل منهما إلى قاعةٍ مُستطيلة ويقود كل منهما إلى باب آخر معقود يوصل إلى الفناء ويعلو كل باب منور من الجص المفرغ بشكل زخارف نباتية، أما الإيوان الشمالي المقابل فهو مشابه للإيوان الغربي ويفتح مثله على الصحن بعقد مخموس.

أما الإيوان الجنوبي فيتميز بكسوته الرخامية وبمحرابه الرخامي الرائع المسطح والمزخرف الذي يعلوه عقد من الرخام الملون محمول على عمودين مدمجين يعلوهما تاجان كورنثيان وحُليت كوشتا عقد المحراب بالفسيفساء الرخامية وتحملُ الكسوة الرخامية شكل الزنبقة. ويعتبر الإيوان الشرقي أكبر أووين البيمارستان وكان مُخصصاً لجلوس الأطباء وإلقاء المحاضرات وهو كذلك معقود مثل الإيوان الغربي ويفتح به كتيبات. يعد البيمارستان من أهم العماائر الدمشقية التاريخية التي فيها مشفى ومدرسة للطب، ومكتبة يقرأ تعجُ بشتى المصنفات والكتب تدفع عن المرضى الضجر وتفقههم في الطب والعلوم، ولكل مريضٍ وجبة من الدجاج والأرز والفواكه حتى يتعافى ولا يدفع المريض ثمن الطعام. يلبسونه لباساً جديداً وإذا شُفي يرجع الأردية إليهم ويأخذ ثوبه القديم مرة أخرى. كما أن للمريض نفقة تقوم على حاجاته بعد خروجه من البيمارستان حتى يتعافى ويعود إلى عمله، وهناك الحمامات الساخنة التي يجلس المريض فيها ليريح جسده وينظفه وقد انتشرت من سمرقند في الشرق إلى الأندلس في الغرب وعجت المدن الكبيرة والعواصم بهذه الحمامات العمومية. وأما البيمارستان فامتلاً بقاعاتٍ للمرضى حسب التخصصات، فهناك قاعات أو عنابر مُخصصة للمرضى المصابين بالحمى، وأخرى للأمراض العقلية والنفسية، وغيرها لمرضى الرمد. وعنابر خاصة للناقهين من المرضى إلى أن يتم شفاؤهم، يُحكى لهم فيها الحكايات المسلية والقصص.

أجلسوا مُهاب على أحد الأسرة وأحضر الطبيب قارورة فيها سائل أحمر ثم فتح غطاءها وصبها في فم مُهاب صبا حتى بلع كل ما فيها، ثم ألبسوه ثوبًا جديدًا غير ثوبه المُعبر من شعثناء السفر وتركوه على السرير في نومٍ غطيظ.

خرج أحد الأطباء وقال لهما أنهم قد أوقفوا السم ولكنَّهُ يحتاجُ حينًا حتى يتعافى تعافياً كاملاً، وتعجب الأطباء أن مُهابًا قد نجى كل هذه المدة فهو ملدوغ لدغات عددًا، فدلف سندباد ومروان إلى غرفة مُهاب ووجدوه غاط في نومٍ عميق فقال سندباد وهو متأسٍ:

- حمدا لله على سلامته .. لله في خلقه شؤون فهمما بلغ الإنسان من قوة قد تُسقطه أصغر المخلوقات صريعًا!

جلسا قليلاً في الغرفة وهما ينظران إلى زخارفها والصنم الكبير الجاثم على الحائط أمام سرير مُهاب فجعل سندباد يتأمله وهو يقول لنفسه:

- هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون!

وبعد بضع ساعات استيقظ مُهاب من سباته وفتح عينيه وهو ينظر الى الصنم الكبير فقام مفزوعًا وقال وهو متأجج غضبًا:

- ما هذا؟!

ففرع صاحباه من نومهما وقال سندباد:

- ماذا بك؟!

أنشأ يهَمَّ من على سريره فأمسكه رفيقاه فرأياه ينظر إلى التمثال ولا يكاد ينظر إليهما، فهداه قائلين:

- ماذا بك! هذه تماثيل وضعها أهل دمشق في كل دار وطريق! لا نعرف سرها بعد.

- ماذا! أيعلمون كُنه ما يصنعون؟

هدأ قليلاً وقال:

- لا عليكما لقد كنت أهلوسٌ وحلمتُ بعديد من الأحلام الغريبة.

عدل مهاب من وضعيته وقال وهو ينظر إلى الأصنام مليًا وهو ممتعض:

- خبراني كيف وصلنا إلى هنا وما الذي حدث؟!

حكيا له كل شيء حتى وصلوا إلى المشفى، ثم خرجوا من المشفى بعد أن تحسن مهاب فألفوا حارسًا ينتظرهم وينظر إليهم نظرات ريبة، ثم أمرهم أن يتبعوه وقادهم إلى مكانٍ يلبثون فيه حتى انتهاء رحلتهم. لاحظوا أن الناس في الأسواق ينظرون إليهم نظرات استنكار لم يفهم سببها سندبادُ لكن رجَّح أنها قد تكون لاختلاف ملابسهم التي توحى أنهم ليسوا من أهل المدينة. وبعد حينٍ من السير وصلوا إلى خانٍ صغيرٍ ذي ثلاثة أدوار يُزينها من الخارج زخارف عربية وفارسية.

دلف الجميع فقال الحارسُ لصاحب الخان بنبرة صارمة:

- فلتطعمهم ولتؤوهم عندك الليلة، فإنهم من بغداد.

شدَّد على كلمة بغدادَ بطريقةٍ تركت سندبادَ وصاحبيه متعجبين، فاصطنع صاحبُ الخان ابتسامَةً وشكرَ الحارس على إيصالهم، وطلبَ منهم الصعود إلى غرفتهم، ولكن الحارس استوقفهم يسأل:

- كم ستمكثون؟!

قال مروان وهو حائرٌ في أمره:

- لا نعلم بعد ... ثلاثة أيامٍ مثلاً ... نريدُ أن نشاهد معالم المدينة أولاً.

لم تُقنع الإجابة الحارسَ فغادرَ دون أن ينبسَ ببنتِ شفة. صعدَ سندبادُ وصاحبه إلى الردهة التي كانت تمتد عدة أمتارٍ مغطاةً بسجادٍ شرقيٍّ أحمر. سارَ صاحبُ الفندق في صمتٍ مُطبقٍ وفتحَ لهم بابَ غرفةٍ في نهاية الرواق، كانت الغرفةُ تتميزُ بثلاثِ أسرةٍ، وبعضِ الأزهارِ والتحفِ الأثرية الجميلة، والتماثيلِ الصغيرةِ الغربيةِ لتلك المخلوقات التي يتقرب إليها أهلُ دمشق. سرَّ سندبادُ ورفيقاه إذ وجدوا مُكثًا مريحًا بعد هذه الرحلة المرهقة، وألقوا بأجسادهم لا يعباون بشيءٍ إلا الجوعِ والعطش، وقبل أن يفصحوا عمًا في خاطرهم قال صاحب الخان ببرودٍ:

- انتظروا قليلاً سأحضرُ بعضَ الطعامِ والشرابِ لكم.

قال مُهاب وسريره يخشخش من وزنه الثقيل:

- الآنَ أشعرُ أننا لم نُضيعِ وقتنا هباءً!

علّق سندبادُ وهو يتنفسُ الصعداءَ ويتأملُ التماثيلَ العجيبة:

- حمدًا لله أنا وصلنا .. ولكنَّ المدينةَ غريبةَ عجيبةَ وليست كما قرأت عنها في رحلات بن بطوطة وبن جُبَيْر! .. ما هذه التماثيل التي انتشرت في المدينة انتشار الهشيم في النار؟! .. ولماذا ينفر الناس منّا ويكأننا قدمنا كي نقتلهم أو نسرقهم؟! نسرَقهم؟! نسرَقهم! نسرَقهم!

هز مُهاب كتفيه مستنكرًا وقال وهو يوجّه كلامه إلى مروان:

- ألا تستقصي لنا خُبَرَ هذه المدينة يا إمامنا المبارك؟!!

انتظرا قليلاً، ولم يأتِهما أيُّ ردٍّ فلمَّا أن نظرا إلى مروان وجداه قد غطَّ في النوم، فقال سندباد صارخًا:

- كيف نام بهذه السرعة، هذا المحفوظ أنا لا أستطيعُ أن أنام من فرط الحماس!

- ولا أنا، لكن علينا أن نريح أجسادنا المرهقة ثم نذهب نستكشف كلَّ قِشَّةٍ في هذه المدينة.

وافقه سندبادُ الرَّأي، فإذا صاحبُ الفندقِ يلجُ ومعه الطعامُ والشرابُ.

وضعهما على طاولةٍ مُستديرةٍ مُزخرفةٍ ببراعة، فشرع سندبادُ يشرب من شدة العطش فإذا هو يبصق ما شربه قائلاً باستنكار:

- ما هذا الشراب الغريب؟

قال صاحبُ الفندقِ بتعجبٍ:

- إنه خمرٌ، ألم ترَ مثله من قبل؟!!

قال سندبادُ وهو مستاء:

- إنا لا نشربُ الخمرَ، مِن فضلكِ حُذِّهِ معك ولا تأتينا به أبداً.

امتعض صاحبُ الفندقِ وخرجَ ومعه الشرابُ، فقال سندبادُ يخاطبُ مهابَ:

- مثلُ دمشق الآن كمثل أرضٍ منبتةٍ حَجبت عنها الغيوم نور الشمس فأمسّت كنوداً⁽¹⁰⁾! رأينا الخمر في القصور ومجالس السمر واللهو التي يسئها الأمراء والولاة ولكنها لم تصبُ العامة بداءها إلا هنا!

- دع الوقتَ يفصح عن الغموض الذي يحيك في صدورنا.

استكملا طعامهما حتى شبعوا وحمداً لله وتوضأً وصلّىا الظهرَ ثمّ جلسا يتسامران قليلاً، قال سندباد وهو يتأمل الأسواق من الشرفة ويبصرُ التجار في الدكاكين يروجون لبضائعهم، فمنهم من يبيع المنسوجات الحريرية ومنهم من يبيع التوابل النفاذة بشتى ألوانها وروائحها، ومنهم يسوس البهائم خلفه وهناك من يبيعُ الفاكهة الطازجة وآخر يبيعُ البخور والمسك، والناس في دمشق ألوان وطوائف لا يحصيها إلا الله. وأكثر ما لاحظته سندباد وتعجب منه في دمشق هو الأشجار التي تحفها من كلِّ جانب، فأشجار البرتقال تملأ الطرقات والأزقة وأشجار الرمان تفوح بعطرها الفواح والأطفال يتقطفون عناقيد العنب ويلتقمونها في أفواههم فرحين مغتبطين، وغصون الأشجار المورقة تحف البيوت وتمتزج بها وكأنها جزء لا يتجزأ منها، وبتلات الأزهار الوردية والحمراء والزرقاء والصفراء تملأ أسطح البيوت والطرقات، والناس في نعيمٍ ورغد وسعة، وكأنهم لا يعلمون للبلاء سبيلاً، وفي الأفق أبصر سندباد شجرة عظيمة ضخمة ذات أوراق صفراء ذهبية ترتفعُ إلى أقاصي السماء وتعلو فوق قصور دمشق وقبابها وتخلب لب من يبصرها أول مرة. شُده سندباد ومُهَاب من ضخامتها وشعروا وكأنها مصدر الحياة في دمشق وأنها من تبت الروح في بقية الأشجار، ومن الشجرة حتى الخان الذي يجلسون فيه كانت الأشجار في كلِّ حدبٍ وصوب وكان دمشق أمست غابة كثيفة الأشجار. قال سندباد يتنفس عبير دمشق وهواءها الطلق النقي:

(10) الأرض الكنود هي الأرض المنقطع عنها الإنبات.

- يا لها من مدينةٍ بديعة، إلا أنّي لم أرَ وصفًا لها في كتب الرحالة يُشبهه ما أراه الآن. لقد تغيرت كثيرًا بلا ريب! ولكن ما السر؟ فقد تحولت الشام إلى صحراءٍ حين تمزق العالم وتفرقت القارات وأصبحت جزر متفرقة، أظن حسبما أذكر أنّ الشام انفصلت عن نهر الفرات وبعض أنهارها الأخرى وخصوصا دمشق، فأحيل ما حولها إلى صحراء، وقد مرت الشام بجذبٍ وقحط وجفاف وكاد أهلها يهلكون لولا المساعدات التي أتتهم من شتى بقاع الأرض، لكنّي أرى غوطة الشام التي يصفها الرحالة بأنها جنة الله في الأرض قد عادت خضراء نضرة من جديد. فالحمد لله. لكني لا أعلم كيف وجدوا مصدرًا للماء يُعيدُ إليهم جنتهم ويُعيدُ دمشق درة الشرق إلى ريعان شبابها!

ظلُّ مُهاب يتأمل التماثيل العظيمة مُقطب الجبين منقبض القسماة وقال:

- أتمنى ألا يكون السر وراء هذا النعيم سرًّا مُظلمًا. إذن من يحكم دمشق والشام؟

- اسمه قحطان، وقد انتزع السلطة بالقوة حسبما أذكر وأتخن في الأرض وأراق الدماء، كان سفاكًا للدماء حسبما سمعت، لكنّه لا يُسيطر على الشام كلّها، إذ يوجد مُدن خرجت عن سيطرته وأعلنت العصيان ولا زالت الحرب سجال بينهم، آخر ما سمعتُ عنه أن حلب قد شقت عصا الطاعة ودارت حرب بينه وبينها وطلب من المستقوي المدد لكنّ المستقوي كان يبغضه لأنّه قطع الأواصر والعهود التي كانت بين المستقوي ووالي دمشق السابق، كما أنّه أعلن استقلاله عن بغداد وأرسل المستقوي له جيشًا يردعه لكنّهم هزموا هزيمة نكراء وذكروا أنّ لقحطان جُند لم يروا مثيلا لهم قط. أذكر أن عسكر بغداد وصفوهم بأنهم يرتدون أقنعة ذهبية تُشبه السنوريات والسباع.. لكنّ قحطان لم يلبث أن شن الهجمات على بغداد بعدها انتقامًا من المستقوي إلا أنّها فشلت جميعًا، وحين ضُيق عليه الخناق من عدة مُدن من الشام بقيادة إمارة حلب فكاد يهلك ويسقط فاستجار بالمستقوي وطلب منه المدد والعون والعهد من جديد لكن المستقوي أبى، وحينها دفع الكثير من الدنانير الذهبية ليشتري المرتزقة من الصيادين من شتى بقاع الأرض حتى صنع جيشًا هجينًا لا يدين بالولاء إلا له، فقهر به أعداءه وتوسع في الشام وسفك الدماء وخضب

بها الأرض حتى خضعت له الكثير من المدن، لكنه أغلق كل طرق التجارة والسفر إلى الشام منذ ذلك الوقت ولم نسمع أخبارًا عن جُزر الشام بعدها.

تنهد مُهاب وأطرق برأسه مُفكرًا ثم قال:

- لكن يبدو أن الناس يعيشون في رغدٍ في دمشق، فكيف هذا؟

لم يتلق مُهاب ردًا فنظر إلى سندباد فوجده غط في النوم، تبسم مُهاب وافترش بجسده السرير ونام.

وإذ انسلت أشعة الشمس الذهبية قبل الغروب لتتير الغرفة ويكأنها خيوطٌ من حريرٍ، استيقظ مروان والنوم قد تغشى رقيقه، فتذكّر ما فاتته من صلواتٍ فتوضأ ثم صلى، ثم سمع بطنه تفرقرُ، فنظر فوجد بعضَ الطعام المُغطّى، فرفع الغطاءَ وشرع يأكلُ ويشربُ حتى شبع، وجلسَ قليلاً يطلُّ من النافذة على شوارع المدينة الساحرة، فرأى الناس يتحركون بأحصنتهم وجمالهم ينقلون البضائع ويتسامرون، ولكنّه لاحظَ رجلاً يقفُ حوله الناس بدا وكأنه يعظهم فسيطر مروان على ببغائه الذي كان يقفُ لدي النافذة المقابلة، وبدأ يطير به ليتفقد أمر هذا الرجل ويسترقُ السمع، فسمعه يخطب في الناس قائلاً:

- قد سئمتُ الصمت أيها الناس، في البدء قلنا فتنة عابرة سنعبرها كما عبرنا أمواج الفتن قبلها، وقلنا لن يؤمن الناس بخرافاتِ هؤلاء الأنبياء الضالين. قالوا لنا نحن أنبياء رب النور وخالق كل شيءٍ، فقلنا قد فعلها كثيرٌ من قبلكم وذهبوا مع من ذهبوا وبقيت راية الدين ترفرف فوق جثثهم التي أكلتها دواب الأرض. لكنّ هؤلاء الأنبياء غير من سبقهم، فهم يسحرون الناس ويسخرون الأرض فتخرج زخرفها وكنوزها، ويبطشون بمن يعارضهم بطشة عظيمة لا تُبقي ولا تذر.

التف الناس من حول الرجل وشرعوا يسمعون فزاد من صوته حتى يسمعه القاصي والداني وقال:

- لقد نصحتُ وأذيتُ وقُتِلَ أولادي جميعًا من قبل أنبيائكم، وظلوا يضيقون عليّ رغم انكساري وحسرتي وكمدي، وأخذ جُند قحطان أرضي ومنع أوقاف

المدينة أن تُعيلني بطعامٍ أقتات عليه، ثم وضعوا حارساً أمام بيتي يراقبني إن صليتُ لله أو تعبدت، فإن رأني انهال عليّ بالسوط حتى أكف عن الصلاة، ألا يرضى الأنبياء بصلاتنا القديمة! أيّ أنبياء أولئك الذين يمنعون الناس عن الصلاة! يريدوننا أن نصلي أمام التماثيل لإله النور حتى تُقبل صلاتنا! لقد أغلقوا المساجد وحاربوا الفقهاء وضربوا أعناقهم حتى فر من فر وصمت من صمت. لكنني سئمتُ من أفعالهم وأفعالكم أيها الناس. أنتم لا تكثرثون إلا بالنعيم الذي جلبوه عليكم بعد القحط والجذب والجفاف الذي كاد يُهلك الشام وأهلها، وما إن أتوا بالماء والثمار والجنان حتى آمنتم بهم واتبعتموهم دون أن تفهموا كُنه ما جاءوا به. ومن ثم أمسيتم تخافون أن يببطشوا بكم إن كفرتم بهم ويلقون بكم خارج أسوار دمشق كما فعلوا بمن قبلكم. أما أنا فأقولها شهادة أمام ربي: أنا كافر بكم أيها الأنبياء. أيها الناس، سوف يحلُّ عليكم عذاب شديد من ربكم إن لم تعودوا لدينكم. وستذكرون قولي وأفوض أمري إلى الله. سخر جُلَّ الناس منه وقذفوه بالسنتهم وبضائعهم ووقف بعضهم لا ينبس ببنت شفة، وقال أحد الرجال يستهزئ به:

- قبل أن يأتي العقاب أنبئني كي ارتدي أفضل ملابسني لاستقباله!

فضحك البعض على ما قاله وجعلوا يتبادلون السخرية من الواعظ واستنكر بعضهم وجود أمثاله في المدينة حتى الآن، فإذا جُند يرتدون سراويل ودروع وسابغات يتوجهون نحو الواعظ فذعر وهم ليهرب فأمسكوه وكبلوه بالسلاسل وانطلقوا به ناحية الجنوب، فتعجَّب مروان وقال لنفسه:

- ما الذي يدورُ هنا؟!!

أثاره الفضولُ فقرَّر أن يراقبهم عن كثبٍ وبدأ يطيرُ وهو يراقبُ الجُند، يشقُّ طريقه في السماء الزرقاء وقرصُ الشمس البرتقالي يتوارى بالحجاب.

الوعد

جلس رجلٌ يتدثر بثوبٍ حريريٍّ أخضرٍ ويحملُ قدحًا من الذهب الخالص ويلبسُ على وجهه قناعًا ذهبيًا لفهدٍ تبرزُ أنيابه، وجلس داخل مبنى يُشبه المعبد أو دار العبادة ومن حوله عدة تماثيل من الذهب تُشبه قناعه تحفها الأشجار بألونها الزاهية وروائحها العطرة، فالقاعة تمتلأ بالريحان والفل والخزامى واللافندر والليمون والتين والتفاح، وبتلات الأزهار تُزينُ التماثيل. كان السقف مُقرب ومزخرف بزخارف نباتية وبه عدة فتحات تُدخل خيوط الشمس الذهبية لتُساعد النباتات في غذاءها الضوئي.

أما الأرض فكانت تشققها بعض جداول الماء العذبة التي تشربُ منها الطيور بشتى أنواعها، فهناك العصافير الزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء، وهناك الهدد والعنديل والبيغاوات والحمام والبط يرتشفون الماء العذب ويغردون ويرقصون مع الأغصان.

أما الرجلُ الجالس على العرش المُكتسي بالورود والأغصان المتشابكة كانت بعض الأشجار الغربية ذات الأوراق الضخمة العريضة تعلو وتهبط لتُدِرَّ عليه الهواء وتقيه الحر والقيظ.

دلف إليه أحد الحرس وانحنى وقبل الأرض بين يديه وقال بانكسارٍ وتبجيلٍ وتضرع:

- يا نبي الطبيعة والجمال، إنَّ العامة يريدون أن يدخلوا عليك ليتبركوا بك ويهبونك العطايا والهدايا حتى ترضى عنهم ويرضى عنهم رب النور.

أشار له النبي أن يدخلهم فدخلوا صفًا صفًا وكلما اقترب منه أحدهم أمسك يده وقبلها وقبل قدمه وأعطاه بعض الأسورة أو الخواتم أو السلاسل أو الأحجار

الكريمة أو أثواب من أجود الأنواع أو عطور فواحة تزيده طلاوة وبهاء، وظل النبي على صمته يقبل عطايا الناس دون أن ينبس ببنت شفة حتى غادروا جميعًا فجاء الجُند وحملوا الهدايا إلى خزينته في غرفة مُتصلة بالمعبد تعجُ بشتى أنواع الزخائر النفسية.

وقف النبي عن عرشه وقطع المعبد فمالت معه الأغصان وتراقصت الأشجار وغردت العصافير ووقفت على كتفه وضج المعبد بالحياة وكأنه خلق واحد يتحرك ويسكن على وتر واحد. لكنّه علم أن وقت الراحة والرخاء قد انتهى وأن أوان الحرب حتى يستردوا الشام بأكملها ويجعلونها طوع أمرهم.

أمام حمص وقف جُند دمشق بأعدادهم العظيمة وأمامهم يقفُ رجل متوشح بالسواد ويرتدي قناعًا ذهبيًا ذا وجه يُشبه الليث. تقدم قائد الجناح الأيمن وانحنى بتبجيلٍ للرجل قائلاً:

- نبينا وولي الله في الأرض (ميزوراء) عسى أن ترضى عنّا وينصرنا رب النور بنصرٍ نخطف به أبصار أعدائنا.. لقد عجزنا يا مولاي عن اختراق دفاعات حمص، وأغرنا عليهم كثيرًا وحاصرناهم وضيقنا الخناق وقطعنا المدد الذي يأتيهم من حلب ولكنهم لا زالوا على صمودهم وعنادهم حتى الآن.. يكفروننا يا مولاي ويرفضون أن ينصاعوا لكم أو لأمير النور قحطان.

نظر ميزوراء إلى الأفق وأبصر أسوار حمص الشاهقة المنيعة وجُندها ذوي الأردية الحمراء والخوذ المدببة والوجوه المتعبة والأجساد المتهاكلة.

أشار إلى البوابة والجزء المُحيط بها وقال بنبرةٍ جهورية كالزئير:

- فلتنصبوا المجانيق واقصفوا السور حول البوابة ثم ادفع بالجند إلى البوابة لتحتميمها.

اعترض القائد قائلاً:

- إن جند حمص يا مولاي يملكون زيتًا مغليًا يصبونه صبا على جنودنا إن خطونا خطوة إلى البوابة، وكذلك لديهم قناصة ونشابة لا يخطئون بسهامهم أحد، أنظر إلى الجُند الذين أصبحوا طعاما للنسور أمام بوابة حُمص.

تمعن ميزوراء في الرمال فرأى الجُثث متناثرة بالمئات أمام أسوار حمص. فشدد على أمره قائلاً:

- لم أكن معكم في المرة السابقة. كرر الهجوم كما أمرت ودع النشابة والزيت عليّ.

شعر الجندي بعبق الأمل يجتاح روحه وينفذ إليها وسرت رجفة في جسده من هيبة ميزوراء فانحنى له وذهب إلى الجُند والقادة يخبرهم بالخطئة.

نُصبت المجانيق وجهازها الجُند وأشعلوا في قذائفها النار ثم ما لبثوا أن بدأوا قصف حمص. اصطدمت القذائف في السور فأسقطت بعضه وهوت بعض القذائف على جُند حمص فأحرقتهم عن بكرة أبيهم، وسقطت بعضها على البيوت فحطمتها وعلى الناس فأحرقتهم وعلى الأشجار فذرتها حطامًا يبابا وطفق الناس يركضون ويستنجدون بالله. استمر قصف المجانيق ساعة كاملة حتى اشتعل الجزء الجنوبي من حمص وتصاعدت النيران إلى السماء.

أشار ميزوراء للجُند بالتقدم دون خوف أو هلع، ففعلوا واندفعوا يصيحون وفي مقدمتهم أربعة يحملون مدقٍ خشبي يبتغون به البوابة ليحطموها وبقية الجُند أحاطوا بهم ليقوهم شر السهام بدروعهم الصلدة. أحضر جُند حمص الزيت وقذفوه فوق جُند دمشق فاحترقت جلودهم، وشرع الجُند يثابرون حتى وضعوا بعض السلالم الخشبية على الأسوار وطفقوا يصعدون لا يلون على شيء. لكن الزيت بطش بهم الواحد تلو الآخر. نظر قائد الجناح الأيمن لميزوراء والقلق مُتبدٍ على وجهه فرمقه ميزوراء بنظرةٍ من خلفه قناعه أرجفت قلبه وقال:

- أراك قلقا وجلًا. إن ظفرنا اليوم بحمص نكون ظفرنا بموقعٍ استراتيجي نحاصر به حلب ونقطع عليها طرق التجارة فيجوع الناس ويضعف الجُند، فنطوقها من الجانبين ونسحقها، ولعمري إن خضعت حلب لنا فقد خضعت الشام جميعًا.

كاد القائد أن يرد ولكنَّهُ رأى ميزوراء فجأة يندفع إلى الأمام بسرعةٍ تشيبُ لها الولدان، سرعة لا يقدرُ عليها بشر اللهم إلا عزيز الدولة وقليل من الصيادين وأئمة البركة. انطلق ميزوراء يشقُّ طريقه بين الجُند شقا ويسابق الرياح وعباءته تتطاير من خلفه وفجأة قفز عاليًا وطفق يركض على دروع الجند - المرفوعة لأعلى حتى تحجب عنهم الأسهم - حتى وصل إلى السور فقفز تارة أخرى وأخرج خنجرين وعرزهما في السور وشرع يدفع جسده عاليًا ليقطع مسافات كبيرة من السور ثم يغرز خنجره قبل أن يهوي ويتكأ عليهما ليعطياه دفعة أخرى كبيرة حتى حلق فوق السور فجأة أمام دهشة الجُند من كلا الطرفين. صاح أحد جُند حمص "أن ألقموه بالسهم قبل أن يهبط إلى السور" فوجهوا سهامهم وقذفوها فشقت الهواء إليه فالتف ميزوراء بجسده وخنجره ليقطع السهم الموجهة إليه أو يدفعها بعيدًا عنه حتى هبط إلى السور واندفع كأسدٍ يبطنش بفريسته الواحدة تلو الأخرى، فمزقهم بخنجره الواحد تلو الآخر وشرع يتفادى رماحهم وسيوفهم بسرعة ومهارةٍ قل نظيرها وهو يقطعهم قطعًا سريعًا يسابق به حركات الأعين. تكالب الجند عليه لكنهم مُزقوا كلَّ ممزق، ظل ميزوراء يخرقهم فيقذف بعضهم من فوق الأسوار ويُلقي ببعضهم في أواني الزيت ويطعن بعضهم ويركل الآخر حتى نسي الحرس أمر جُند دمشق الذين أخذوا يصعدون الواحد تلو الآخر على السلالم الخشبية بينما يضرب بعضهم البوابة بالأسفل.

ما هي إلا بضعة دقائق حتى ملأ عسكر دمشق الأسوار وشرعوا يذبحون كلَّ من يعترض سبيلهم حتى خضبوا الأسوار بدماء جُند حمص.

هبط ميزوراء من فوق السور حتى كاد يصل إلى الأرض فضرب قدميه في السور فارتد إلى الأمام وذبح بضعة جنود ثم انطلق يعدو إلى البوابة ويطيحُ بكلَّ من يقف بوجهه حتى ظفر بهم جميعًا وفتح البوابة للجنود الذين دخلوا فرحين مغتبتين مهللين بالنصر الذي طال انتظاره، تقدمت حامية القلعة لتدافع عن المدينة بينما يفرُّ الناس بأموالهم وحياتهم.

سار ميزوراء إلى الأمام والجُند من خلفه وزأر قائلًا وهو يُشير بخنجره إلى الأمام:

- اذبحوا نصف رجال المدينة واسبوا النساء واستبيحوا المدينة حتى تسئموا،
قد أدنت لكم بفعل ما يحلو لكم بهؤلاء الخونة.

تهللت أسارير الجُند وفارت الدماء في عروقهم واندفعوا يضربون الأعناق
ويثخنون في الأرض ويحرقون البيوت ويجرون النساء من شعورهن ولا
يفرقون بين شيخ كبير أو طفل صغير، حتى احترق أكثر المدينة واستسلمت
الحامية وسلمت القلعة دون مقاومة. من أعراف الغزو أن الظفر بالمدينة
ليست بأهمية الظفر بقلعة المدينة، لأن القلعة يعتصم فيها والي المدينة وجُنده
وقد يصمدون حتى يأتيهم المدد والعتاد وينسحب المعتدي من المدينة كما
دخلها. تلونت حمص البهية بدماء أهلها وصبغت جدرانها بحمرة قانية، ووهن
جُندها واستسلموا فساقهم جُند دمشق وذبحوهم جميعًا. أما والي حمص فقد
ألقوا بأولاده التسعة في الزيت أمام عينيه حتى مات الرجل كمدًا من فرط
حسرتة وحزنه.

جرت مذبحه عظيمة في ذلك اليوم سمع عنها كل أهل الشام حتى ضرب
الرعب خيامه في قلوب الناس، وصار الناس حين يسمعون بأنباء اقتراب
جُند قحطان منهم يرتعدون ويهلعون ويأمرون والي المدينة أن يُسلمها دون
قتال حفظًا للدماء ودرءًا للفتنة فسلمت الكثير من المدن والحصون الصغيرة
دون قتال، لكن ذلك لم يطفأ شغف أنبياء النور في سفك الدماء.

وقف جُند الشام صفاً كأنهم بنيان مرصوص أمام مدينة حماة وأمامهم وقف
داجوراء يحمل مطرقة الضخمة العظيمة على كتفه وقد انتشخ بالسواد وأخفى
وجهه بقناعه الذهبي، ضرب داجوراء الأرض بقدمه وزأر زأرة خلعت قلوب
جُند حماة الذين وقفوا يرتعدون وقد خفتت معنوياتهم. لقد سمعوا عن داجوراء
كثيرًا وعن وحشيته وصلابته في القتال. الرجل الذي يدعي النبوة ولم يهزم
في معركة قط!

أمر قائد جُند حماة الخيالة بالهجوم وشجعهم وحاول شحذ همهم فاندفعوا
يكبرون وخيولهم تضرب الأرض بحوافرها ضربا فأمرد داجوراء الجُند أن
يلبثوا مكانهم، وركض وحده تجاه الجيش العرمرم ملوحًا بمطرقة في الهواء

وما إن اقترب منهم حتى قفز وضرب الأرض بمطرقته فاهتزت وزلزلت زلزالا عظيماً فسقطت الخيول وتهاوى الجند، بعدها لوح داجوراء بمطرقته كرة أخرى وضرب أول فرس دنى منه فدفعه بعيداً ليسقط فوق المشاة الذين فزعوا من قوة هذا الوحش. لم يفقهوا أيّ قوة تلك التي تجعلُ إنساناً يطيح بفرسٍ في الهواء لعشرات الأمتار.

اندفع داجوراء يصيح بحماسةٍ لا تنضب معينها ويلفُ مطرقته مطوحاً عشرات الرجال دفعة واحدة ومن ثم يضرب بعضهم بكتفه فيطيح بهم، وظل كالعاصفة الهادرة تعصف بمن يقترب منها لا يقوى عليها إنس ولا جان. ضحك جُند دمشق وسرت في عروقهم حماسة نبيهم نبي الحرب، فشدوا اللجام واندفعوا يشقون طريقهم ويصلصلون سيوفهم ويلقون في أفئدة جُند حماة الرعب حتى ظفروا بمعركةٍ سريعة، فانسحب الجُند وأغلقوا عليهم أبواب المدينة لكن داجوراء اقترب من البوابة وظل يضربها بمطرقته كأنه نجار يغرز مسامراً في الخشب حتى انفلقت البوابة إلى نصفين ودخل المدينة ظافراً منتصراً وأقام مذبحاً عظيمة لا تقل عن تلك التي أقامها ميزوراء.

بعدها توجه إلى اللاذقية فخرج إليه شيوخها وأعيانها وكبرائها وطلبوا منه أن يسلموه مفاتيح المدينة دون قتال فوافق واشترط عليهم أن يخرج جميع الرجال بأموالهم وخزائنها خارج المدينة في الصحراء حتى يحصيتهم، فاستجابوا له وفعلوا، وخرجت أعداد ضخمة عظيمة في صفوفٍ مُنكسين الرؤوس مخدولين مُنهزمين لا يأملون إلا طلباً للحياة وإن كانت حياة مذلة وهوان وضيق وانكسار.

ما إن اجتمعوا حتى أمرهم داجوراء أن يجثوا جميعاً ففعلوا وجلس الجميع، فأمر جُنده فذبحوهم حتى شربت الرمال دمائهم. وما لبث الجُند أن تخلصوا من كلّ الرجال حتى دخلوا المدينة واستباحوها وجمعوا الأسلاب والغنائم وسبوا النساء والأطفال وسلسلوهم وكبلوهم بالأغلال ثم ساقوهم كالأنعام إلى دمشق.

أصاب الرعب أهل الشام من هؤلاء الأنبياء الذين لا يرحمون من يعاديهم، وجرت موجة من الفرع بين الناس وهم يتناقلون أخبار المدن التي صارت

تتهاوى سريعاً ويُذبح أهلها حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم يجدوا
أحدًا يُنجدهم من خارج الشام ولا داخلها إلا رجلاً واحداً!

خارج أسوار دمشق - سجن الأحجار السبعة

جلس أناسٌ قد جارت عليهم الأيام أمام شيخاً كبيراً يجلسُ مكبلاً بالأغلال في
سارية مُثبتة داخل سجن حجري عظيم تطل عليه قلعة كبيرة تحرسُ جنوب
دمشق، كان السجن كبيراً ولكنه ليس ككلّ السجون، فقد صُنِع للعمل والحفر
والتنقيب لا للحبس، وقد سُلسل كلٌّ من فيه بأغلالٍ في أقدامهم وطلب منهم
أن يحفروا وينقبوا، وليس بينهم وبين الشمس حجاب. استأذن الشيخ امرؤ أن
يسأل فأذن له، فسأل:

- ألسنا على الدين الذي ارتضاه الله لعباده، فلما لسنا نحن الممكنين في
الأرض!؟

- كي أجيبك عن سؤالك يجب أن تعلم أن الأمر على وجهين: إمّا أن يكون
قوم ممكنون فينتزع منهم التمكين، وإمّا أن يكون قوم مستضعفون فيمكنوا
في الأرض.

أمّا القوم الذين ينتزع منهم التمكين، فإن الله قد ضمن لهم حفظ نعمة التمكين
في الأرض إن لم يغيروا ما بأنفسهم إلى الأسوأ سواء كان ذلك في قيمهم أم
معتقداتهم أم نواياهم ودليل ذلك قوله عز وجل: "ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا
نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" ويعضد
ذلك قوله عز وجل في آيةٍ أخرى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ"

فإذا يضمن الله عز وجل نعمة التمكين لقومٍ إن لم يغيروا ما بأنفسهم، فإن
غَيَّرُوا فلا ضمان لهم. "وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ!"; وانتبه لقوله
عز وجل قوم، أي أن هذا الضمان ضمان اجتماعي وليس ضماناً فردياً، فإننا

في حياتنا قد نرى امرأً غنيًا يتبدل حاله إلى الأسوأ ابتلاءً من الله، والأنبياء إذ يُبتلون فهم حتمًا وحاشاهم لا يغيرون ما بأنفسهم إلى الأسوأ، فالبلاء يأتي بالخير وبالشر "ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون.

- والوجه الآخر؟! -

- أمّا الوجه الآخر فإن القوم المستضعفين قد يُمكن لهم في الأرض من دون أن يغيروا ما بأنفسهم إلى الأفضل ودليل ذلك منةُ الله على بني إسرائيل رغم أنهم أشربوا العقيدة الفرعونية في قلوبهم فاتخذوا العجل من بعد أن واعد الله موسى أربعين ليلة، وورد أنهم اتخذوا البقرة تحور كذلك، ثمّ إنهم كذبوا موسى قائلين "لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرًا" وهذه شذرات مما عملوه، وما كانوا كذلك إلا لأنهم تأثروا بالقوي الذي يحكمهم ألا وهم الفراعنة، قال تعالى "وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أُيُمَةً وَنَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ"، وهذا إما مزيد اختبار لهم من المولى عز وجل، فقد يكون مجتمعهم سيئًا لأنهم عاشوا مستعبدين فيبدل حالهم إلى الأفضل لعلهم يرجعون كذلك جاء على لسان موسى وهو يُخاطب قومه إذ قال "عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"، وظل موسى يربيهم ويخرجهم حتى صلح حالهم فتخرجت منهم أجيال صالحة كيشوع بن نون وداود وسليمان ... إلخ؛ وإما يُمكنُ الله لقومٍ مستضعفين ليستدرج هؤلاء القوم من حيث لا يعلمون، قال تعالى " وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأَمَلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ".

أنشأ مروان يراقبُ الجُند عبر عين بغاءه وهم يسرونَ يجرون الواعظ معهم ويهينونه بالضرب والسباب حتّى وصلوا إلى قصر الوالي، فحيوا جنودًا آخرين ووقف قائدهم مع قائدٍ آخر وبدأ يتحدثُ قائلاً:

- سنذهبُ إلى ما وراءِ الأسوارِ كي نعلمَ آخرَ ما استجد، ونلقي بهذا اللعين في مكانه المُناسب.

- فليكن إداً، ولكن كُنْ حذرًا فالعدو شديدُ المكرِ وقد يهاجمُك في أي لحظة!

- لا تقلق فإننا قادرون على التعامل معه. يجب أن نحصلَ سريعًا على ذلك السيفِ اللعينِ وإلا فسيقطعُ الوالي رُؤوسنا.

- لقد اقتربنا؛ فهم يُفتشون كلَّ أنحاءِ الصحراءِ المسحورةِ وسيعثرون عليه قريبًا.

- أخافُ أن يعثرَ ذلك المارق على السيفِ قبلنا فإن حصل ذلك تنقلب موازين القوى، لذلك علينا أن نجعلهم يعملون بسرعةٍ أكبر. سأزيدُ على هؤلاء العبيد ساعات العمل وأنقص من طعامهم لنلا يلتهاوا عن العمل.

- خطة جيدة. فليباركك أنبياء النور. ولا تنسَ هؤلاء الرحالة الثلاثة الذين جاءونا من بغداد، إياك أن تقومَ بشيءٍ يثيرُ الشبهاتِ وإلا نكتشف.

- لا تخف. فليباركك أنبياء النور. إنني لن أعودَ حتى أحصلَ على رأس ذلك المارق والسيف الأسود.

غادرَ القائدُ عزيز الدولة وتبعهُ جنودُه بانتظامٍ، كان قائدُ جيشِ دمشق عزيز الجولة طویلَ القامةِ قوي الجسد ذا ملامح كئيبة يكاد لا يبتسمُ أبدًا لكنه عنيد لا يملُ ولا يكل.

أثارتُ هذه المحادثةُ مروان فحاك الفضولَ في صدره وقرر أن يستكمل حتى يعلم ما يدورُ خلفَ الأسوار، كذلك ظلَّ مروان يتبعُهم حتى وصلوا إلى البوابة الخلفية ففتحت لهم وخرجوا.

سُئل الشيخ الكبير سؤالًا آخر:

- وهل يأتي يومٌ يسقط فيه الذين ظلمونا وأخرجونا من ديارنا؟ عُذرًا فأنا أسألُ لأنني أراهم في أوج قوتهم فكيف يتأتى ذلك؟!

فرد قائلاً:

- إنَّ الناسَ إذ يرون طودًا عظيمًا يقفون أمامه مدهوشين مُثبطين لا يشكون لحظةً أنَّه قد يقع، إننا إذا جاوزنا الظاهر وتغلغنا في معتقداتهم وتشريعاتهم سنجدُ أنهم يتحللون من الداخل، ثمَّ إنك لو نظرت في تاريخ البشر لوجدتَ

دولاً عظمى راسخة في الأرض تسقط؛ فمن كان يظن قديماً أن دولتي الفرس والروم الشرقية قد تندحرا يوماً، ولكن ها هما هاتان وقعتا إذ واجهتا جيشاً أقل عدداً وعتاداً ألا وهم المسلمون. ثم إن الأرض لا يتجذر فيها باطلٌ ذلك قول رب السماوات والأرض "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ". واحذر فإنما هي دارٌ اختبارٍ وابتلاءٍ وليست دار مقام، فالنصر قد يتأخر ولكنه آت آت، ألا تذكرُ إذ استضعف بني إسرائيل سنيماً حتى أهلك فرعون وجنوده؛ إن مدة استضعافهم تلك حتماً لم تكن بضع سنين وإنما خمسون سنةً أو تزيد، فهم آوذوا من قبل موسى حتى بُعث فيهم وأهلك فرعون، والأنبياء يبعثون في سن الأربعين على المشهور.

وإذ وقف مروان على سور البوابة يتطلع إلى الأفق رأى سجنًا حجريًا كبيرًا ممتدًا وسط الرمال الذهبية وداخله بيوتًا من القشّ والبوص تمتد إلى مساحات شاسعة حولها جنود يطوفونها. عبس مروان وبسر إذ رأى أناسٌ تبدو عليهم آثارُ التعذيب، فكانت ملابسهم باليةً ووجوههم مُتسخةً وأجسادهم مُسمرّةً من حرارة الشمس وجلودهم مُتشققةً من هولٍ ما وقع بهم.

قال مروان لنفسه وهو يفور من داخله كالبركان:

- أضعون العبيد هنا ويعاملونهم بهذه القسوة ويجبرونهم على البحث عن ذلك السيف الغريب، ويجلسون هم في الداخل ينتعمون بكلّ ما لذّ وطاب؟ يا لهم من قوم سوء!

استكمل الشيخ الكبير كلامه والناس من حوله ينصتون:

- وإنا نسأل أولئك الذين يقلدون سلوك القوي إمّا عن درايةٍ بهذا التقليد وإما تشرباً أعمى علي جهل منهم: ماذا لو ولدتم في عصر عاد أو ثمود أو الفرس المجوس أو الرومان الذين ملكوا أقوى الحضارات، أكنتم ستقلدون سلوكياتهم وتتبعون عقائدهم فقط لأنهم مكنون في الأرض؟!!

إن الحضارة والعمران هو أمرٌ متروكٌ للإنسان، ذلك لأن الإنسان كائنٌ شغوف يسعى دائماً إلى كشف الغيوب، قادرٌ وحده أن يذهب بعيداً في هذا المضمار مهما اختلفت العقائد والفلسفات، لذلك ترك الدين هذا الأمر للإنسان، ونزل ليعالج ما لا يقدر الإنسان على الإتيان بمثله كالتشريعات الاجتماعية والتشريعات المالية التي لا تظلم حقوق الأفراد والجماعات.

تقدم أحد الرجال وبدى أن قدمه اليمنى قد بُترت فألقى بجسده أمام الشيخ يُقبل يده ويبكي بحرارة قائلاً:

- أدعوا لنا الله أن يُزيح هذه الغمة، فقد هكلت أجسادنا ولم يبق لنا أمل نتشبث به إلا الله. لقد بترتوا قدمي لأني عانيت من ألم شديد فيها ولم أقدر على العمل. لقد أخرجني من داري وقد كنت من كبار تجار الشام وأعيش في نعمة ورغد بين أهلي وأولادي. حسبي الله ونعم الوكيل.

ربط الشيخ على كتفه وقال:

- اصبر يا عز الدين فكلنا في المحنة نفسها وأنا أشدكم كرباً وأنتم تعلمون. لكني أعلم أن الفرج يأتي بقدر الصبر.

قطع حديث الشيخ الكبير ومن معه دبب أقدام جيش، فقال:

- ها قد جاءنا من نكره لقاءهم!

تبع مروان القائد وجنوده حتى دخلوا السجن الحجري وانطلقوا إلى حيث يجتمع العبيد فانفضوا من حول الشيخ الكبير وفروا إلى أعمالهم، فأشار القائد إلى أحد الجنود فذهب إلى الشيخ وفك قيده وأخرجه وألقاه على الأرض بين يدي عزيز الدولة، فنظر الشيخ في عيني القائد وقال وهو مُمتعض:

- إنا لم نجد ما تبحثون عنه بعد!

قطب عزيز الدولة جبينه وقال وهو يصرخ فيه:

- لم تماري كلما جئتُك أيها العجوز .. أنا لا أتحدث عن السيف .. خبّرني الآن أين هو علي بابا ورفاقه؟!!

- لا أعلم مكانهم.

- كيف لا وأنت المسؤول هنا.

- قلت لك لا أعلم أين هو، كيف لي أن أعلم وأنا لا أتحرك إلا ومعني حارس يتبعني؟! وتكبلونني تحت الشمس لساعات حتى أخبركم بمكانه وأنت تعلم علم اليقين أنني لا أبرح مكاني ولا أراه أبداً أو أسمع أخباره إلى مما تحمله الرياح لي، وثرثرات رجالك.

سكت القائد وقال يستهزئ به:

- اعلم أنني سأجذُّ عنق ذلك البغيض عاجلاً أم أجلاً! .. نسيثُ أن أخبرك أننا سننقلُ حصتكم من الطعام بل وسنزيد ساعات العمل حتى تعثروا على السيف الأسود! فقد نفذ صبر قحطان من تلكأك ورجالك أيها الشيخ الخرف.

فقال له الشيخ الكبير متعجباً:

- ألا تدرك أن ما تفعله سينقلب عليكم! إنكم إن فعلوا هذا إمّا نضعف فلا نقدر على ما تكلفونا به وإما يأتي يومٌ يطغى فيه غضب الناس فينقلبوا عليكم! ولكن ماذا نقول في الذين يستحبون العمى على الهدى!

قطب عزيز الدولة جبينه وقال وهو يشير إلى الشيخ بيديه:

- كفاك لغواً أيها الشيخ الهرم، إن الأمر قد صدر.

لم يكن عزيزُ الدولة يُريدُ أن يقتل الشيخ الكبير لأنه حينها ستفوت عليه فرصة الإمساك بعلي بابا، فركب جواده وقال للناس وهو يستعدُّ لينفتل من المكان:

مَنْ يردُّ منكم أن يؤمن بأنبياء النور، تتبدل حياته رغداً!

سكت العبيد وأبوا أن ينصاعوا لمثل هذه الإغراءات فقال الشيخ ليغيظ القائد:

- ما عندكم ينفذ وما عند الله باق.

انقبضت قسّمات وجه عزيز الدولة ودار بحصانه لينفتل، أسند الناس الشيخ الكبير حتى قام ومشى حتى جلس على كرسي خشبي أمام كوخه وهو ينظر إلى عزيز الدولة، فلما شهد مروان ما شهد اشتعل غضباً، فطاف حول القرية الفقيرة كي يرى المزيد، فإذا العبيد إمّا مكبلون بالسلاسل يُجرّون كالأنعام

وإمّا معلقون أمواتًا على جذوع النخلِ وإمّا أحياءٌ يلهثون من قلةِ الطعامِ والشرابِ، ومنهم من يُضربُ بالسياطِ ليرتدَّ عن دينه، ومنهم من يحفرُ في الجبالِ بحثًا عن المعادنِ النادرةِ وإذا تباطأَ يجلدُ جلدًا أليماً، ومنهم من يبحثُ في الصحراءِ عن أثرٍ للسيفِ الأسودِ، والأطفالُ والنساءُ في البيوتِ يكونون لا يخرجون من الخوفِ.

إكتفى مروانُ بما رآه فعادَ إلى عزيزِ الدولة فسمعه يتحدثُ عن خطيةِ كي يُمسِكُ بعلي بابا، ثمَّ أبطلَ التحكمَ في الطائرِ وهو مستاءٌ، وأيقظَ سندبادَ ومُهَابًا وحكى لهما ما وقع فأصابهما مثل ما أصابه من حزنٍ، فقال بنبرةٍ يغشاها الغضبُ:

- أتى لهم أن يفعلوا هذا وهم يدعون أنهم أنبياء؟ لعمري إنهم يضطهدون ويسحقون كلَّ من لا يتبعُ مذهبهم كما فعل المعتزلة من قبل في بغداد لَمَّا اضطهدوا وسجنوا كلَّ من خالف عقيدتهم ولم يقل بخلق القرآن. علينا أن نوقفَ كلَّ ذلك مهما كانت النتيجة.

اعترضَ مُهابَ قائلاً:

- أتى ذلك ونحنُ ثلاثةٌ فقط؟! أتريدُ أن نفر من الأسر في بغداد لنعود إليه في الشام؟ إذن لِمَا خرجنا من البداية؟

ضغطَ سندباد على سيفه بغيظٍ ونظر إلى مُهابَ نظرة يتطاير الشرر منها:

- إذن أتريدنا أن نذرهم يعذبون الناس ويستعبدونهم ويحرفون الدين ويبتدعون فيه مذهبًا جديدًا وعلينا أن نصمت خوفًا على حياتنا؟ أي حياة تلك التي سأعيشها إن فررتُ من هنا وتركتُ هؤلاء المستضعفين؟

تدخلَ مروان قائلاً:

- ومنذ متى وأنت تقحمُ نفسك في شؤون السلاطين والأمراء؟ كنتُ دائماً تتهرب منها.

- كان هذا قبل أن يفعل المستقوي فعلته ويلقي بي في الأسر، وقبل أن تغرق سفينتي في البحر ومعها أصحابي. قررت حينئذٍ أنني لن أدع أحدًا يمرُّ بما مررت به.

ساد الصمت الغرفة فطرات فكرةً على بال مروان فقال:

- لقد سمعتُ خطةَ القائدِ في الإمساكِ بعلي بابا، ويبدو أن علي بابا ذلك يُشكِّلُ جماعةً من المُتمردين على الوالي يهددُ أمنهم ويقض مضجعهم، لذلك علينا أن نعثرَ عليه ثم نُخطط معه كي نصل إلى حلِّ ما وربما نُبلِّغُ بغداد بما يحدث في الشام ونسألهم المدد والجند إن أمكن.

أحس سندبادُ ببريقٍ من الأملِ ولكنه لم يكُ مُتيقناً من نجاحِ خطتهم لأنَّ المستقوي قد طلب رأسه ويريده ميتاً بلا ريب، وتساءل كم يملكُ علي بابا من جنديٍّ، وهل إذا اجتمعوا به سيقدرُّون على أن يصدُّوا جيشَ قحطان العظيم، دارت كثيرٌ من الأسئلةِ في خَلده ولكنه تذكَّر أنَّما النصرُ من عندِ الله، فقام من مكانه وجهَّزَ أعتده، ثم غادروا المكانَ منبهينَ على صاحبِ الفندق أنَّهم سيتجوَّلون قليلاً في المدينة.

وإذ جنَّ الليلُ عليهم ملقياً بستائره المظلمة على المدينة واشتعلت المصابيحُ الزيتيةُ والقناديل من كلِّ ناحية وتألفت النجومُ ذات الأنوار البديعة في السماء وبرز البدرُ ذو النور الوهاج، سار الرفاقُ طوالَ الطريقِ متدثرين بعمائمهم ليُخفوا هوييتهم، وبعد سيرٍ طويلٍ بين الناس الذين يرمقونهم بنظرات الشك والريبة، بعد فترة من السير وجدوا حلقة يجلس فيها رجل في عقده الرابع ومن حوله جلس بضعة أطفال فطفق يُلقي عليهم مآثر أنبياء النور وكيف استنقذوا الشام من بين براثن وولاتها المتناحرين. قال الرجل:

- لقد كادت الشام تهلك من الجذب والقحط والجفاف وكاد الناس أن يأكلوا بعضهم بعضاً من شدة الجوع إذ فسد الحرث وماتت الأنعام والبهائم وبارت التجارة، فدعونا الله حتى بلغ الجهد مآثراً فأرسل إلينا أنبياء النور من السماء لينجدونا ويجددوا لنا ديننا، فكل مئة عام يبعثُ الله من يُجدد لهذه الأمة دينها، فديننا يصلح لكل العصور إلا أنه يحتاجُ إلى عالمٍ فذ متقد الذهن قوي البصيرة له، يجري الله الكرامات على يديه حتى يُجدد لنا الدين.

قال أحد الصبيان متساءلاً:

- لكن أليس رسولنا آخر الأنبياء والمرسلين؟ فكيف يبعثُ الله بأنبياءٍ جُدد؟ بل ثلاثة أنبياء؟

صمت الشيخ قليلاً وأطرق برأسه مُفكراً ثم قال:

- الله يفعل ما يشاء. أوليس عيسى عليه السلام ينزلُ في آخر الزمان ليقوم العدل في الأرض؟

- نعم يفعلُ إن شاء الله.

- إذن كيف ينزل ومحمد عليه الصلاة والسلام آخر الأنبياء؟

- لا أعلم.

- إن محمداً قد أنزل عليه القرآن أما المسيح فلن ينزل عليه كتاب آخر جديد أو دين جديد، بل سيقبل بالإسلام وتشريعاته ويسير على هدي نبينا، وكذلك يفعلُ أنبياء النور والهدى. إنهم لم يأتوا بكتابٍ جديد من السماء ولا بدينٍ جديد. بل جددوا الدين حتى يتناسب مع العجائب التي أحاطت الأرض بعد الهزة العظيمة التي مزقت العالم إلى جُزر كثيرة. لقد قالوا أن الله نور، وطلبوا منّا أن نبني أضرحة وتمائيل لا لنعبدها بل لنتبرك بها ونطلب منها المدد والعون كما نفعل مع أضرحة الأولياء والصالحين.

- لكن لماذا تبدو التماثيل مخيفة يا إمام؟ أهم موجودون أولئك الذين تجسدهم التماثيل؟

مرر الإمام يده على لحيته وقال:

- لا نعلم ولكن العلماء الربانيين الذين أطل عليهم نور الله وبركة أنبياءه الجُدد قالوا إن هؤلاء يرمزون لقوة الأنبياء، فهم كالأسود يبیطشون بأعداءهم وأعداء الله. أما المنصور سلطان دمشق السابق والذي خلصنا منه قحطان لا حرمانا الله منه، فإنّه ما أراد إلا الوقوف في وجه الأنبياء البررة والخير الذي جلبوه علينا بعد أن كادت تهلكُ الشام كلها. فأطاح به قحطان وطارده أتباعه وأذباله وأولئك الذين وقفوا أمام موجة تجديد الدين العاتية، فأغرقتهم الموجة وقطع

دابِر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. لا أريدكم أن تشفقوا على أحدٍ منهم، وإن سمعتم أحدًا في المدينة يهمسُ بغير ما أقول لكم فأخبروني عنه وأنا سأبلغ عنه الوالي. علينا أن نظهر مدينتنا من أولئك المبتدعة الذين يتحدون الله ورسله.

وقف سندباد ورفيقاه مشدوهين مما سمعوه من القول. دارت بهم الأرض وأجمتهم المصيبة بسياطٍ من حديدٍ. إن علماء دمشق يحرفون الكلم عن مواضعه ويبثون في الصبيان سمومهم ويزينون للناس الباطل بثوبٍ من حريرٍ ويقبحون الحق ولكن هيهات هيهات.

أكملوا دربهم وهم يعالجون في أنفسهم ما الله به عليم حتى تجلى لهم قصر الوالي، القصر الأبيض المزِين بالفسيفساءِ والحدائقِ والنوافيرِ وعليه حراسةٌ مشددةٌ، فقال سندبادُ وهو ينظرُ إليه نافرًا:

- لن ينفك حراسُك هؤلاء حينَ أظفر بك!

قال مُهاب يقترح عليه حلًّا:

- ما رأيك أن نفعَلَ كما أخبرنا مروان ونُرسلَ برسالةٍ إلى بغدادٍ نخبرُ فيها الخليفةَ بما يجري لعله يُرسلُ إلينا جيشًا يدعُمنَا، وبذلك قد تستعيد بغدادُ وحدتها وقوتها إن ضمت دمشق إلى مُلكها، فنحن لا قِبَل لنا بالقوم، وإن أبوا القدوم فلن نصبح في خطرٍ لأنهم لا موطأ قدم لهم هنا في جُزر الشام، وقحطان لن يصل إلينا ليسلنا إلى المستقوي، كما أنه لا يطيق المستقوي.

رد مروانُ عليه مستنكرًا:

- لا أظنُّهم سيستجيبون لنا؛ فلم يعد المسلمون يهتمون بأمور بعض كما كانوا، ولكنِّي سأرسلُ إليهم برسالةٍ لتبرأ ذمتنا ولعلمهم يستجيبون.

أطلق مروان صفيرًا فجاءته حمامةٌ حتى وقفت على كتفه، فأمسك بلفيفةٍ وجعل يرتلُ بعضَ الأبيات بصوتٍ أشبه بالهمس فظهر كلامًا على اللفيفةِ بلغةٍ غريبةٍ لا يفقهها إلا أئمة البركة، فأمر الحمامة أن أرسلها إلى أبي، فلما أن حَلقت الحمامة بعيدًا في السماء استكملوا طريقهم بين الحواري متسللين في ستار الليل، وبينما يتسللون سمعوا جلبة في المدينة. كان شرطة المدينة

يطاردون فتاة صغيرة ذات شعر أسود منسدل كالحرير ووجه متنسخ مُستدير وأسمال بالية مهترئة، ركضت الفتاة بين الحواري والحرس يطوقونها حتى اصطدمت دون قصد بمروان وهي تنظر خلفها. التف مروان وأبصر قسمات وجهها الخائفة فسحبها وأخفاها داخل عباءته. جاء الحرسُ برماحهم ووجهوا ذبايتها إلى وجوه الأصحاب، فقال أحدهم ينهر مروان:

- أرأيت صبية مرت من هنا.

أخفى مروان الفتاة التي يرجفُ بدنُها جيداً وقال مُشيرًا إلى الشمال:

- لقد ذهب من هنا للتو. الحقوا بها.

انفض عنهم الحرس وانطلقوا إلى حيثُ أشار مروان.

تسللت الفتاة من عباءة مروان دون أن يلحظها وكادت تفر لكن الببغاء فضحها قائلاً:

- أمسك بها، أمسك بها.

التف مروان وأمسكها من ذراعها وزجرها قائلاً:

- لقد سرقتِ دنائيري وقد أخفيتك من الحرس! ما خطبك يا فتاة وما قصتك؟ أخبريني الآن وإلا ناديتُ الحرس وتركتك لهم.

ارتجفت الفتاة كأنها ورقة في مهب الريح وفرت الدموع من عينيها وقالت بلسانٍ متلجلج:

- ما قصدت أن أسرقك أيها الكريم. أشكرك على صنيعك معي، لن أنساه لك ما حييت.

ضرب سندباد بيده الحائط وقال:

- إذن لما سرقتيه يا صبية؟ ألم يعلمك أبواك أنّ السرقة تودي بصاحبها إلى النار؟ وإن أمسك بك أحد الحرس ليقطعن يدك التي سرقتِ بها فبنس المصير.

بكت الفتاة وازداد نشيجها فحاول سندباد أن يطمئنها حتى سكنت وجلست تقص عليهم قصتها. قالت بنبرة يختلط بها النحيب:

- كان والدي من المقربين إلى المنصور وكان يرتاد مجلسه كلَّ يوم حتى جاء قحطان ودبر مكيدته وذبح رجال المنصور وأحكم قبضته على المدينة. فر والدي حين علم بالأمر لكنهم تتبعوه وأحضره وزجوا به خارج دمشق في السجن الحجري ليحفر وينقب عن المعادن وذلك السيف العجيب الذي يبحثون عنه مُنذ سنوات.

تدخل مُهاب قائلاً:

- سيفٌ؟ ما سر ذلك السيف.

- لا أعلم يا سيدي، لكنهم يبحثون عنه بحثًا حثيثًا.. إن الناس داخل الأسوار يعيشون في رغدٍ لكن من في الخارج يشاقي من البلاء ما الله به عليم. لقد عجز أبي عن العمل لهرمه فربطوه في جذع نخلة وتركوه ليهلك، فجعلتُ ألف في المدينة أسرق له بعض الثمار والخبز والحليب وأخرج في جوف الليل من شقٍ في الأسوار بالكاد يتسع لجسدي فأطعمه وأسقيه وأرجع.

تأثر سندباد ورفيقاه بنكبة هذه الصبية الصغيرة البريئة التي ذاقت من أرزاء الدنيا ما ينوء بالرجل القوي الفتى. تنهد سندباد بأسى واعتصر قلبه الحزن وقال وقد قطف ثمرتي خوخ من شجرة قريبة وقضم منها قضة وشرع يلوكها وأعطاهما الأخرى:

- يا صبية، لما تعرضين حالك للخطر والخير كثير. أنظري إلى كلِّ الثمار التي تحفنا من كلِّ جانب. لم السرقة إذن؟

- لقد أخبرني أبي أن هذه الثمار التي أخرجها هؤلاء الأنبياء الكذبة مسكرة، فقد بث ذلك النبي – الذي حول المسجد الأموي الكبير إلى معبدٍ أحاطه بشجرةٍ ضخمة هي مصدر كلِّ الثمار في المدينة – فقد بث فيها مخدر يجعل عقول الناس غائبة فلا يفكرون ولا يرتابون من تحريفهم للدين رويدًا رويدًا.

بصق سندباد الثمرة وشرع يمسح لسانه بمنديلٍ من الصوف قائلاً:

- تقولين مسكرة؟

استئنفت الفتاة حديثها قائلة:

- كما سمعت. إنهم يبذلون أفكار الناس مُنذ سنوات ولم يفطن لهذه المكيدة إلا بعض العلماء الذين حذروا الناس لكن دون جدوى، فهذه المادة تُثير لذة في العقل تجعل الناس يكثر من تناول الثمار حتى يتمتعوا أكثر. لولاها لما صدق الناس كل ما يقولون.. كما أنّ رجال قحطان قد منعوا عنّا الطعام والزاد والأوقاف، مما اضطرّ أمي للعمل كخادمة في بيوت الناس لتطعمنا.. لذلك أُجبرت على السرقة وأنا لها كارهة. قد سئمتُ هذا البلاء لكنني لستُ إلا طفلة عاجزة تحاول أن تُنجِدَ أباهَا.

بكت الصبية وغطت وجهها بيديها فوضع مروان يده على كتفها قائلاً:

- هوني عليك، ما جئنا هنا إلا لنحرر والدك ومن معه من هؤلاء الجبابرة. اذهبي الآن لتطعمي والدك وأخبريه عني ثم اشعلي هذا البخور عند موطأ قدمه ولأعثرن عليه إن شاء الله.

أعطاها البخور وفجأة سمعوا صوت الحرس يرجعون أدراجهم ففرت الفتاة واختبأ الأصحاب.

أكملوا طريقهم حتى وصلوا إلى البوابة وكان يحرسها اثنان فلما أن اقتربَ منهما مروانُ قال وهو يمدُّ يده اليمنى إلى الأمام ويحمل في يده مسحوقاً أبيض:

- أحلاماً سعيدة.

نفث مروان المسحوق في وجهيهما فانسل النوم إلى عينيهما وأغشي عليهما. فتح مروان البوابة فقال سندباد ساخراً:

- لولا أنّ معنا غِراً مثلك لاضطررنا أنا ومهاب أن نحطم رأسيهما!

فابتسم مُهاب، ولمّا أن خرجوا غَلَقوا البوابة من خلفهم.

خرجوا إلى الصحراء فاشتدت الرياح عليهم ثمَّ وجدوا السجن الحجري بأسواره العالية تتجلى لهم تحت أنوار النجوم والقمر، ووجدوا الجند يتناوبون في الحراسة فاختبأوا وراء أحد النتوءات الرملية وتسللوا حتى اقتربوا من الأسوار أكثر فقال مروان مشيراً إلى البوابة الضخمة:

- بعد هذه البوابة يجلس الشيخ الكبير مُكبلاً مُقيداً، سيخدعون علي بابا بخطةٍ ماهرةٍ دبروها بليلٍ وقالوا أنهم سيثيرون خبراً كاذباً عن إعدام الشيخ الكبير كي يأتي علي بابا لتخليصه فيمسكوا به، وهم لن يقتلوه بدهاءةً لئلا يثور العبيد عليهم ولأنهم يوشكون أن يعثروا على السيف الأسود، المهم الآن هو أن نجد علي بابا قبلهم.

فسأل سندباد:

- وكيف نجده؟!!

- ذرّه لي، سأراقبُ المكانَ جيّداً جوّاً وبرّاً، فالصحراء تعجُّ بالحيوانات والطيور سأطوعهم لخدمتي وإن جاء علي بابا سيخبرونني بخبره قبل أن يصل إلى هنا.

قال سندباد وقد اجتاحت قلبه الغيرة:

- وتكلم الطيور والدواب أيضاً! ماذا تركت لنا يا بن الذهبي؟!!

نظر مروان أمامه بكبرياءٍ ومشى الخيلاء ثم نفث غبار مسحوق أسود في الهواء فشرع ينتشر حتى أصاب الطيور والدواب من حوله، فسيطر عليهم ونفذ إلى عقولهم يكلمهم ويكلمونه لينبئوه بأي رجل يقترب غير جنود السلطان، وقعدوا ينتظرون فوق تلة عالية من الرمال تُطل على ساحة السجن حتى أنشأت الشمسُ تُشرقُ، فتجهّز الجند كي يعدموا الشيخ الكبير. سار عزيز الدولة والجند من ورائه يُمسكون بالضحية ويضربون بالسياط العبيد الذين حاولوا أن يقاوموا من أجل أن يوقفوا إعدام الشيخ ولكن هيهات فالجنود كانوا يفوقونهم قوةً وعدداً. استشاط سندبادُ غضباً إذ رأى كيف يُعاملُ إخوته فأراد أن يخرج ليدفع عنهم بعض العذاب، ولكن رفيقاه أمسكاه وطلباً منه أن يصبر لئلا تفسد خطتهم.

طلب مروان منهم أن ينتظراه وانطلق يتبع رائحة البخور وخطها الدقيق الذي لا يبصره غيره حتى وصل إلى نخلةٍ خارج السجن مُعلق عليها رجل قد ظهرت أمارات التعذيب عليه، لهُ جسد هزيل ووجه شاحب متقرح وقد

بلغ الجوع والعطش منه مبلغًا كبيرًا. اقترب منه مروان ففزع الرجل وظنه يضره بالسياط فهدأه مروان وقال:

- لا تقلق أيها الرجل، لقد جئت لأنقذك.

فك مروان وثاقه وأخبره أن يذهب إلى ابنته، فشكره الرجل وقبل يده وقدمه والدموع تنهمر من مقلتا عينيه من فرط السعادة، شاهدته مروان يفر بين الرمال تحت دثار الليل حتى وصل إلى ابنته التي عانقته وأعطته الطعام والماء وظلت تبكي فرحًا أن أنجاه الله. أخذته بعد أن أطعمته وفرا إلى حلب.

عاد مروان إليهم وأخبرهم بفعلته فشكراه وبعدها جلسوا يتسامرون.

بعدَ حينٍ وصلَ الجنودُ إلى ساحةٍ واسعةٍ تحيطها البيوتُ القشيةُ وفي منتصفِها عمود عملاق علقوا عليه الشيخ ووضعوا بعضَ القش أسفله، ثم وقفَ عزيز الدولة بثباتٍ وهو يُمسك بليفة في يده يقول:

- لقد قرّرنا اليومَ أن نعدمَ المنصورَ بن عدنانَ الدمشقي، لأنّه كذبَ بأنبياءَ النور والهدى، بل وساعدَ المتمردينَ في إيقافِ سيرِ البحثِ عنَ السيفِ الأسودِ وهددَ أمنَ دمشقَ وشعبها، كما أنّه يتقاعسُ عن العملِ ويعترضُ على القراراتِ الملكيةِ.

احتجَّ العبيدُ وشرعوا يندفعون ولكنَّ منعتهم رماحُ الجندي. عادَ أحدُ طير مروان الذي كان يراقب هو ورفيقاه ما يحدث، ووقف على كتفه فقال لمروان وهو يزقزق أنّه وجد علي بابا، فقال سندباد وهو متوتر:

- ماذا أخبرك؟!

- إنه آتٍ الآن من جهة الشمال ومعه أربعون رجلاً.

غار البيغاء على كتف مروان من الطائر فنقره بمنقاره قائلاً:

- انصرف انصرف.

توجّه سندبادُ ورفيقاهُ إلى الشمالِ ليعترضوا طريقه قبل أن يقع في الفخ، فانطلقوا يشقون طريقهم ويكأنهم يسابقون الزمان والمكان، وبعد حينٍ من الركض نأت ساحةُ الإعدامِ وأصبحَ من العسير رؤيتها، فتوقفوا ينتظرون

قدوم علي بابا فسمعوا دبيب حوافر خيل تضرب الأرض مُخْلِفةً وراءها
غباراً كثيفاً وصهيلها يهزُّ الصحراء، فوقف الثلاثة يُشيرون إليهم فقال سندباد
لمروان وهو متعجب:

- أليس هؤلاء هم اللصوص الذين اعترضوا القافلة التي أنجدتنا في صحراء
الشام حين كدنا نهلك وقتلوا كلَّ الجُند؟!!

- أصبت. إنهم هم بلا ريب.

توقفت الخيول فإذا شخصٌ يُخفي وجهه بمنديلٍ أسودَ يرتدي عباءة سوداء
مُزخرفة وحذاءً أصفرَ اللون من جلدِ الأفاعي. عبسَ الرجلُ وقال بتعجبٍ
وعجلة:

- أستم الرحالة من بغداد اللذين قابلتهم من قبل في الصحراء! أجنتم لتستردوا
ما أخذته من القافلة؟!!

قال سندباد يحاول تهدئته:

- السلامُ عليكم، بلى نحن ... أنا سندبادُ وهذان صاحباي مروانُ ومُهاب. إنك
علي بابا؟!!

- وعلیکم السلام. نعم أنا لما تسأل؟!!

- أريدُ أن أُحذِّركَ فإنك ذاهبٌ إلى فخٍ أعدَّ لك .. إنَّ إعدامَ الشيخ خدعةٌ
ليستدرجوك، فحين تقترب من السجن الحجري وتقتحمه سيباغتك جنود
قحطان بالسهم من داخل القلعة وما حولها، لكنك إن أدبرت الآن يُوْجَل
إعدامه ظناً أنك لم يأتك أمرُ إعدامه بعد.

- وكيف تعلمُ كلَّ هذا أيُّها البغدادي؟! ولمَ ترغب في مساعدتنا أفلم نسرق
القافلة التي كانت تحملكم؟!!

- إنا سافرنا بسفينتي حتى طرأ طارئٌ فغرقت السفينة وغرق بحارتي فتهدنا
في البحر ونزلنا على جزيرة دمشق، حتى وصلنا إلى المدينة ونحن موقنون
أنَّا داخلون دمشق العريقة عاصمة من عواصم الدين لكننا إذ رأينا الأوثان

فيها حاك الفضول في قلوبنا فشحننا حواسنا وراقبناهم طوال الليل .. ثمّ إني الآن أدركت لم تسرق القوافل!

ابتسم علي بابا وقال:

- ألم أقل لك إن كنت صاحب حق سوف تعلم حين تصل إلى دمشق لم نفعل ذلك!

- بلى وها قد جننا لنحذرك!

- أشكرك على كرمك، ولكن ألا تظن أنهم قد يقتلونه ليضعفوا عزيمتي!

- كلا، إنهم إن فعلوا ذلك يثور العبيد، ثمّ إن هدفهم هو أن يمسكوا بك وليس أن يُضعفوا عزيمتك.

- بدا عليه الاقتناع، فنزل عن حصانه وكشف عن وجهه، كان ذا لحية طويلة وشارب كثّ وكانت ملامحه تنم عن وقارٍ، وكان شعره قصيرٌ متموجٌ وبشرته تغلب عليها السمرة.

إقترب علي بابا من سندباد وقال بصوتٍ خافت:

- أتريدون أن تساعدونا؟

- نحن لن نأل جهدًا؛ فديننا يحتم علينا أن ننصر إخوتنا بل وكل مستضعفٍ في الأرض.

- ولكن بذلك ستخاطرون بأنفسكم!

- اطمئن، فقد كدنا نموث عدة مراتٍ قبل أن نجبيكم!

ابتسم علي بابا وطلب من رجاله أن ينسحبوا وأرسل بعضهم ليراقبوا أمر الإعدام، وذهب ومعه الرفاق الثلاثة، ثم وصلت الأنباء إليهم كما قال سندباد فقيل لهم أن الحكم قد أُجّل لسبب مُختلف يُغطي على السبب الحقيقي، وتأكدوا أن جنود قحطان يختبئون في أنحاء السجن يتحينون قدوم علي بابا، فزاد ذلك ثقته في سندباد وصاحبيه.

ساروا في الصحراء الشاسعة متجهين إلى مقرهم السري في قلب الصحراء
القرمزية المسحورة ذات الضباب والمخلوقات المهيبة، لم يكُ يعلمُ أحدٌ كيف
يتجاوز تلك الصحراء التي تاه فيها عددٌ غفير من الناس ولكنَّ علي بابا كان
يعلمُ كلَّ شاردة وواردة فيها، لذلك ظنَّ أن ما من مكانٍ أنسب منها يحجبه عن
قحطان وزبانيته.

يُغطي الصحراء ضبابٌ خفيفٌ غريب قرمزي اللون يُضفي الرهبة في مَنْ
يحاولُ الاقترابَ من ذلك المكانِ الملعونِ، ولم يعد من ذلك المكان أحد ممن
أرسل ليبحث عن السيف الأسود، ولا يعلم مكانهم ولا مكان السيف الأسود
أحدٌ إلا علي بابا.

العهد

مشى الأنبياء عبر طرقات دمشق والناس يرمونهم بالورود والدعاء والتهليل
والدنابير والدرهم على الفتوحات العظيمة التي أتمها الله على أيديهم ولمّا
وصلا إلى قصر قحطان أوقفهما أحد الجند قائلاً:

- إن سلطاننا المعظم قحطان ينتظركم أيها الكرام.

دلف ثلاثتهم إلى حديقة القصر المكلفة بالزهور الحمراء والزرقاء والصفراء
والبنفسجية ويحيطها أشجار الفاكهة المهذبة بعناية، مع نوافير الماء الأخاذة
والأرضية المفروشة بالأعشاب النضرة. فهلل أحدهم في فرح وطرب
وانطلق يشم رائحة الأزهار ويلمسها. وكلما حرك يده في أي اتجاه تحركت
الأزهار معه تتراقص على لحن يده فقال وقد أصابه عشق لنباتات الحديقة
فأخذ يجمع العينات ليدرسها بعناية قائلاً:

- لم أرَ هذه الأنواع الرائعة من قبل لا شك أن قحطان قد جلبها من الهند.
سأجمع الكثير منها لأعينها.

نظر ذو المطرقة إليه وهو ممتعض وقال ساخطاً:

- ما من فائدة في اعتنائك بهذه النباتات ثمَّ إنها ستشتتك عن هدفنا، اترك ما
تفعله وهلم بنا إلى قحطان!

ونظر إلى صاحبه الآخر وقال يزره:

- ولا تقل لي دعه ونفسه مرةً أخرى!؛ فأهل دمشق لا تنفع معهم الورد بل
القوة كي يحترمونا ويوقرونا. ثمَّ أين كنت طوال هذه الفترة، لقد أصبحت
تغيب كثيراً في الآونة الأخيرة يا ميزوراء!؟

قال ميزوراء:

- القوة لا تنفع في كلِّ وقتٍ يا داجوراء، أحياناً علينا أن نسلُك الطريقَ الأعسر
كي نصل إلى أهدافنا .. أما عن اختفائي فقد كنت أتفقد الجُند أنظر آخر ما
وصلوا إليه في البحث عن السيف الأسود.

- ألا ترى أنك أصبحت رقيقاً تجاه أولئك الضعفاء!؟ ثمَّ إن اختفاءك المستمر
هذا يجعلك مريباً في عيني!

- هذا تجنب للمشاكل وليس رقةً، حين نعثُر على هدفنا فلتكن إذا القوة هي
سلاحنا .. وأنا لم أتغير إنما لا أريد لهدفنا أن يفشل بسبب تعجلنا؛ فإننا قد
انتظرنا طويلاً!

حمل الثالث زهوراً في حقيبته وانطلق إليهما قائلاً بتذمر:

- إنكما لا تقدران الطبيعة حق قدرها ولا تُبصران جمالها!

مضى قحطان إلى قصره لابساً ملابسَ ذهبيةً مزخرفةً من أجود الأقمشة
وعلى رأسه عمامةٌ بيضاءُ فاخرة؛ والبياضُ يُلوّنُ لحيته الناعمة وشعره
اللامع؛ كان بديناً مُمتلئاً من فرط تعلقه بالطعام؛ ذا وجهٍ صارمٍ قاسٍ وملامحَ

ماكرة. دلف إلى القصر وفتح الباب المُطلَّ على العرش فلمح غرفته المعتادة المزينة بالفسيساء، تغطي جدرانها الزخارف المبهرة والأعمدة المبهرجة وتماثيل المينجوراء؛ ومن خلف عرشه تمثال لمينجوراء نصفه أسد ونصفه جسد يُشبه الإنسان في خلقه يقف بشموخ ضامًا يديه إلى صدره؛ وكانت التحف والمزاهر موضوعة بانتظام على طول الغرفة، والأرض مفروشة بسجادٍ شرقيٍّ أحمر اللون يليق بمنزلة السلاطين.

خطا الملك نحو عرشه الخشبي المطلي بماءٍ ذهبٍ والمزين بالرخام والجواهر، ويحرسه جنديان وحوله جوارٍ يروحن عنه بمروحةٍ من ريشٍ ثمين. جلس على عرشه يُفكِّر في اجتماعه الذي اقترب وهو يأكل طبقًا من العنبِ الدمشقي اللذيذ وبعض الفاكهة مُختلفة الأصناف، وبعد حين دخل أحد الحرس وقال له بإجلال وتبجيل:

- جلالة الملك إن ضيوفك ينتظرونك!

توجّه الملك إلى ضيوفه لينبئهم بالقبض على علي بابا كما وعده ابنه القائد عزيز الدولة الذي كان قحطان يثق فيه ثقة عمياء لأنه ساعده طوال سنوات في توطيد حكمه بخطه الماكرة وعزيمته الصلبة. وأثناء ذهابه إلى غرفة الضيوف جاءه حارسٌ مُسرّعٌ وانحنى وهو يلهث ويتصبب عرقاً، فأخرج لفيفةً وأعطاها للسلطان، ففتحها وقرأها فارتسمت على وجهه ملامح الرعب والغضب، فقال لنفسه في غيظٍ شديد:

- ويلٌ له من صبي شقي. ألم يُمسكه بعد! ماذا سأخبر الضيوف إذا! اللعنة عليك يا عزيز الدولة!

حاول الملك إخفاء توتره فطلب من الحارس حرق اللفيفة وألا يسمح لأحد بالدخول عليه وضيوفه حتى إن احترقت دمشق كلها.

دلف الملك إلى غرفة الضيوف، وهي غرفة واسعة ذات زخارف جذابة ومساندٍ من حريزٍ على الأرض، يجلس عليها الضيوف يتسامرون وحولهم كل ما يبغون. لمح ضيوفه الثلاثة وهم يرتدون قنسوتهم السوداء ويغطون وجوههم بالأقنعة الذهبية النفيسة، فاصطنع قحطان ابتسامةً مُرّجةً وقال لهم:

- أهلاً بأصحابي الأعزّاء! مَنْ لهم الفضلُ في خيرِ دمشقَ كله.

قال أحدُهم بصوتٍ غامضٍ خشنٍ:

- لمَ لمَ تمسك به إلى الآن؟!

تلعثمُ الملكُ من سؤاله المفاجئِ لكن ربطَ جأشه وقال مُسرِعاً:

- قريباً، قريباً جداً، فبينما نحنُ نتحدثُ الآنَ ينفذُ أذكى رجالي وهو عزيزُ ابني خطةً مدروسةً وضعها للإمساكِ به!

قال الضخمُ:

- أعلمُ أنّ علي بابا هو مَنْ سيعثرُ لنا على السيفِ الأسودِ، لكنّه مع ذلك لن يستطيعَ أن يمسه، فذلك السيفُ ذو قوّة هائلةٍ ويحتاجُ إلى طاقةٍ عظيمة؛ لذلك فالحل أن يدلنا علي بابا عليه إن أمسكنا به.

فقال مُحب النباتات وكان ذا صوتٍ هويد(11):

- لا بد أنّهُ قد عثرَ عليه فهو يعيش في الصحراء المسحورة .. لكن كما ذكرتَ لن يستطيعَ أن يمسه أبداً وإن فعل سنشعر بذلك.

تبلبلَ الملكُ، ولكن تفاعلَ بنياً ابنه في اللفيفة أنّهُ سيمسكه يومَ غد، فقال وهو يحاولُ أن يشاركهم أفكارهم:

- هذا ما ظننته أيضاً، ولكن اطمئنوا يمكنكم أن تستريحوا وسأجلب لكم ذلك السيف أيها الأنبياء الكرام.

قال ميزوراء بنبرةٍ حادة:

- إنّنا لن نستريحَ حتى نعثرَ على ذلك السيف، ولن نغادرَ دمشقَ هذه المرة حتى نجدّه .. لقد كنت بطيباً وأخرتنا عن الوصول إلى هدفنا، أريدُ أن أفهم ما العسير في الإمساكِ بشخصٍ واحد؟!

قال الملكُ مُحافظاً على رباطة جأشه:

(11) الهويد: صوت الإنسان اللين الوداع.

- إِنَّا نَفَعُ مَا بَوَّسَعْنَا، وَلَكِنْ خَطَرُ الصَّحْرَاءِ الْمَسْحُورَةِ جَسِيمٌ وَكُلُّ مَنْ دَخَلَهَا مِنْ جُنُودِنَا فَقَدْ وُتَاهُ أَوْ هَلَكَ.

- سَوْفَ نَرَى مَا تَفْعَلُهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ، لَا تَجْعَلُنَا نَنْتَظِرُ كَثِيرًا وَإِلَّا فَسَيَتَأَخَّرُ مَا وَعَدْنَاكَ بِهِ!

- لَا تَقْلَقُوا يَا كِرَامَ؛ لَقَدْ أَعَدْنَا فِخَا عَظِيمًا لَعَلَى بَابَا لِنَ يَفِرَ مِنْهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ!

النُّور

سار سندبادُ وصاحباؤه مع رجالِ علي بابا أو الأربعين لصًا كما يلقبون، الذين اعتبرهم الملكُ وأعوانه لصوصًا لكنهم كانوا أبطالًا في أعين العبيد وكلِّ من خرج عن طوع قحطان وشق عصا الطاعة وجاهر بالعصيان، كانوا يُغيرون على قوافلِ السلطان يسرقونها ويوزعون الغنائم والطعام على العبيد في الخارج وما يتبقى يأخذونه، كانت هذه الطريقةُ تضمنُ لهم العيشَ داخلَ هذه الصحراءِ المقفرةِ دون الموتِ جوعًا، ذلك ما جعلَ السلطانَ عازمًا على أن يصل إليهم أكثرَ من قبلُ.

وإذ قطع الأصحاب عدةً أميالٍ داخلَ الضبابِ القرمزيِّ الغريب، سأل سندباد:
- هلا تخبرني كيف تميزون طريقكم وسطَ هذا الضبابِ؟ وما كُنه هذا الضبابِ؟

رد على بابا وهو يمسك بلجامه ويتابع بعينيه الصحراءَ لئلا يتوه:

- نميِّز طريقنا بعيني هاتين، وأمَّا الضبابُ فإنَّه بفعلِ أميرِ الصحراءِ الذي يعيشُ في هذه المنطقة ولا يريدُ أحدًا أن يزجَّه، إنَّه أميرٌ من أمراء الطبيعة

في العالم أو من الجن بمعنى أدق، لكن الجن أصناف وأنواع حسبما سمعت وعرفت، فمنهم أبناء السماء ذوي الأجنحة البيض العظام والجمال البهي الأخاذ والشعر الطويل المنسدل كخيوط الحرير، ومنهم جن النار الذين يحرقون القرى والأراضي ومنهم المردة ذوي الأجسام الزرقاء والذين نحسبهم في القوارير إن عثرنا عليهم ويطلب بعض الناس منهم الأمنيات ومنهم دون ذلك ممن نجهلهم، بعضهم يعيش في أرضنا وبعدهم يعيش في أماكن لا نعلم عنها شيئاً.

تذكر سندباد ذلك الكائن الذي قهرهم في قلب البحر وذبح كل رجاله وفكر إن كان هو أيضاً من الجن إن صدق قول علي بابا. لقد سمع عن ظهور الجن للناس عياناً بعد الهزة العظيمة لكنّه لم يبصر أحدهم بعينيه.

استأنف علي بابا حديثه قائلاً:

والجن مخلوقاتٌ تفوقُ قوتنا بل إن قوتهم تخب الألباب ولا تخطر على قلب إنسي، يسكنون في كثيرٍ من مناطق العالم المتفرقة وكل من يحاول أن يقترب من مسكنهم إمّا يضل طريقه وإمّا تقتله الوحوش فيضحى عبداً ميتاً لهم.

فقال مروان وهو حائر:

- لقد سمعت القصص عنهم لكنّي أتمنى ألا أرى أحدهم.

تدخل مُهاب قائلاً:

- وما قدراتُ عينيك هاتين يا علي بابا؟

وكز علي بابا الفرس الذي كان يصهل ليكمل طريقه وقال:

- ذواتا نظري ثاقبٍ أرى بهما ما لا يراه الآخرون.

فالتفت إليهم فإذا عيناه بيضاء للناظرين، فاستكمل كلامه قائلاً:

- إنها تمكّني من رؤية المجهول وتساعدني على التخفي والتخطيط والتحريك السريع، ولا تنفرد عيناى فقط بالغرابة، فجسدي كله غريب؛ فأنا قادرٌ مثلاً أن أسمع أصوات الأعداء من بعيد، كما أنني نجارٌ لا بأس به!

تعجبوا مما سمعوا فقال سندبادُ مستفهِمًا:

- مُدهشٌ ما وهبك الله من قوة وبأس، ولكن أتعلّم شيئًا عن ذلك السيفِ الأسود؟!

- نعم ولكنهم لن يصلوا إليه فهو ملكٌ لأمير الصحراءِ (كيثار)، وهو لا يُعطي من كنوزه شيئًا إلا لو أثبتَ الشخصُ جدارة، ثمَّ إنَّ السيفَ الأسودَ لا يقدر على حمله أيّ إنسانٍ من عوامِ الناس.

هزَّ سندبادُ رأسه وهو متعجبٌ يقول:

- إذا لماذا يبحثون عنه إذا كانوا لا يستطيعون حمله؟

- هذا ما أطال حيرتي، إن بحثهم هذا هو أكثرُ الأشياءِ ريبًا. لكنني أشك أن هؤلاء الذين يدعون النبوة يملكون القدرة على حمله، فقد سمعنا عن بأسهم في المعارك والحروب وعن فعلهم أشياء يعجزُ عنها أعتى البشر وأكثرهم شكيمة.

سكتَ علي بابا وأشار إليهم أن قد وصلوا، فإذا كهف يتجلى لهم في قلبِ جبلٍ فدخلَ الجميعُ إلى الكهفِ الذي كان منارًا بمصابيح زيتٍ ومزينا ببعض الأزهارِ والزخارفِ البسيطة، وكان فسيحًا يمتدُّ إلى وسطِ الجبل. قال علي بابا:

- عثرت على هذا الجبل منذ سنين كان فيها ذا عونٍ لنا.

قال مروانٌ وهو يتأملُ الجبلَ والأطفالُ والنساءُ يلتفون حول علي بابا ورجاله في فرحٍ يحمدون الله على عودتهم:

- إنه كهفٌ أخادٌ، ولكن لم يعثر علينا أمير الصحراء حتى الآن؟

- هو لا يكثرُ ما دُنا بعيدٍ عن مُستقرِّه، ثمَّ إن جنوده يقفون بالمرصاد، ولكن لأنني أعلمُ أماكنَ تمرُّهم استطعنا تجنّبهم.

أطرقَ الجميعُ ينظرون إلى الصبيان وهم يلتفون حول علي بابا وهو يلاعبهم مبتسمًا ويداعبُ رؤوسهم بأصابعه، ثمَّ جمع علي بابا سندباد وصاحبيه وتوجهوا إلى غرفةٍ صغيرة فيها وسائد وطعام وفواكه. أجلسهم وطلب منهم

أن يتناولوا الطعام، فانهمكوا يلتهموناه فلما أن انتهوا حمدوا الله وشكروا علي بابا ثم صلّوا جماعةً وجلسوا معه، فقال لهم:

- والآن، ما الذي تخططون له لنتصر في هذه الحرب؟

قال سندبادٌ وهو ممتلئٌ حماسًا وتصميمًا:

- إنما الحلُّ في السيفِ الأسود!

نظرَ علي بابا إليه بحدّة وقال ببرود:

- ألم أقلّ لك لن نستطيع أن نسلبهُ السيف، إنها معركة خاسرة. ثمّ إنه لا يقدرُ أن يحمل السيف إنسانٌ من عوام الناس إلا من كان له يد من أيدي الجن.

إبتسمَ سندبادٌ وكشفَ عن يده اليسرى قائلاً:

- ومن قال أنّي من عوام الناس؟

انتفض علي بابا من مكانه وقال مذعورًا:

- أنّي لك هذه اليدُ ملعونة؟!!

- لا أدري .. ولدتُ بها، هل تعلمُ عنها شيئًا؟! لقد بحثتُ جُل حياتي عن حقيقتها ورجعتُ بخفي حنين.

- لا أعلمُ الكثيرَ ولكنّي رأيتها في أحدِ الكتبِ التي سرقتها من قحطان، كُتب فيها أنّها تمكّنُ سيدها من حملِ مفاتيحِ العوالمِ الخفيةِ والبحارِ السبعةِ والأراضين السبع؛ بل إنها ذات قوة هائلة قد تصبح مُدمرة في بعض الأحيان. وحسبما جاءني فيدك هذي هي يدُ الجنِ الناري، فلكلِّ مخلوقٍ من المخلوقات التي تعيش في العوالم الخفية وسيلةٌ معينةٌ يحمل بها تلك المفاتيح، لذلك سأسألك هل أنت من الجنِ الناري؟

- حاشا لله، ماذا تقول! بالطبع لا إنما ولدتُ بها، وقد سببتُ لي متاعب عدداً.

- حتى ونحن معنا هذه اليد، كيف حصلُ علي السيفِ من أمير الصحراء (كيثار) وهو أعلى كنوزهِ، إن (كيثار) من جن الرصد الذين يحبون كنز

الذهب والفضة والنفائس والأحجار الكريمة وغيرها. ثُمَّ إِنَّ ثَمَّةَ جَيْشًا مِنْ
الْوَحُوشِ يَحْرَسُ الْمَكَانَ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ فَكَيْفَ إِذَا نَصَلَ إِلَيْهِ؟!

ضحك سندباد قائلاً:

- أَنْسَيْتَ عَيْنِيكَ هَاتَيْنِ يَا صَاحِبِي! حِينَ نَصَلَ ذُرَّ الْبَاقِي لِي، فَأَنَا لَنْ أُخْرَجَ
مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ حَتَّى أَظْفَرَ بِذَلِكَ السَّيْفِ.

ابْتَسَمَ عَلِيٌّ بِأَبَا وَقَالَ وَقَدْ عَزَمَ أَمْرَهُ:

- إِذْنًا، عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، سَنَتَحَرَّكُ حِينَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ .. أُرِيحُوا أَجْسَادَكُمْ الْآنَ
حَتَّى حِينَ.

وَإِذْ غَطَّ الرَّفَاقُ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ أَخْبَرَ عَلِيٌّ بِأَبَا رَجَالَهُ بِمَا يَعَزُمُ عَلَى فِعْلِهِ، ثُمَّ
وَضَعَ خَطَّةً مَنَاسِبَةً كَيْ يَصِلُوا إِلَى الْمَغَارَةِ السَّرِيَّةِ.

قَالَ عَلِيٌّ لِأَبَا لِنَفْسِهِ وَهُوَ مَتَوَجِّسٌ:

- يَبْدُو أَنَا سَنَلْتَقِي مَجْدِدًا يَا صَدِيقِي الْقَدِيم!

اسْتَيْقَظَ سَنْدِبَادٌ وَرَفِيقَاهُ وَهُمْ يَتَنَاءَبُونَ مِنْ شِدَّةِ الْإِرْهَاقِ لَا يَعْلَمُونَ كَمْ لَبِثُوا
نَائِمِينَ، فَأَحْسُوا بِحَرَكَةٍ فِي مَخْبَأِ عَلِيٍّ بِأَبَا فَقَامُوا مَسْرِعِينَ يَحَاوِلُونَ شَحْدَ
حَوَاسِيهِمُ الْمَرَهْقَةِ، فَإِذَا اللَّصُوصُ يَمْرُونَ ذَهَابًا وَإِيَابًا يَجْمَعُونَ زَادَهُمْ وَأَعْتَدَهُمْ
وَأَدْرَعَهُمْ، فَأَوْقَفَ سَنْدِبَادٌ أَحَدَهُمْ وَسَأَلَ:

- مَاذَا يَجْرِي؟!

- سَيِّدِي، إِنَّا نَتَجَهَّزُ لِلْمَهْمَةِ.

تَعَجَّبَ سَنْدِبَادٌ فَهُوَ لَمْ يَحْسَبْ أَنْ يَنْطَلِقَ عَلِيٌّ بِأَبَا بِهَذِهِ السَّرْعَةِ.

لَمَحُوهُ يَضَعُ سَيْفَهُ فِي غَمْدِهِ وَيَرْتَدِي مَلَابِسَهُ وَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ قَائِلًا:

- صَبَاحُ الْخَيْرِ، قَدْ حَانَ ذَهَابُنَا؛ فَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُمْ سَيَكْرَرُونَ مَحَاوِلَةَ إِعْدَامِ
الشَّيْخِ بَلْ قَدْ يَقْتُلُونَهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ، لِذَلِكَ عَلَيْنَا أَنْ نَسْرَعَ فَمَا أَمَامَنَا إِلَّا سِتُّ سَاعَاتٍ
عَلَى الْإِعْدَامِ، وَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي طَرِيقِنَا سَوْفَ يُكْمَلُ رَجَالِي بِنَاءِ شَيْءٍ عَظِيمٍ
أَدْخَرْتَهُ لِهَذِهِ اللَّحْظَةِ.

وقَعَ الخبِرُ على آذانِ سندبادَ كالصاعقةِ، فتوتر ثلاثتهم وعلموا أنّ عليهم أن يسابقوا الزمن لئلا يقطعهم فتفوتُ حينئذٍ فرصةٌ تفوقهم على جيش الملكِ قحطان.

وضع سندباد سيفه في غمده وغسلَ وجهه هو وصاحباه وتجهزوا، فأعطاهم علي بابا بعضَ الخيولِ العربيةِ الأصيلةِ. كان فرس سندبادَ أسودَ اللونِ يبدو عليه العناد، وكان فرس مروانُ أبيضاً، وفرس مُهاب بنيا. قال مروان يهزأ بسندباد إذ امتطى جواده وأمسك بالجام:

- يبدو أن جوادك أسود كقلبك، أمّا جوادي فيمثلني.

ضحكُ سندبادُ ضحكةً سخيفةً معبراً بها عن ثقلِ دمِ مروانَ وقال وهو يمتطي جواده:

- يا خفيفُ الظلِّ! إن جوادي لأسرُعُ وأشد.

وقبل أن يستكمل سندبادُ كلامه هزَّ الحصانُ جسده فسقط سندباد على وجهه وقام وهو قد امتلئ جوفه بالرمال، فإذا مروانُ يقول ساخراً:

- حتى الفرس لم يتحمل سماجتك! فقط لتعلم فضلي عليك إذ تحملت مرافقتك كلَّ هذه المدة.

وقف سندبادُ وهو مستشيط غضباً وقال وهو يشير بسباباته إلى فرسه:

- سأذبحك ثمّ آلك إن فعلت هذا مرةً أخرى!

فبدا أن الحصان قد فهمه فخاف واستكان، فامتطاه وشدَّ اللجامَ وتوجّه إلى الخارج مع باقي اللصوصِ فلما أن اقتربَ من علي بابا، الذي وقف يتطلّع إلى الأفقِ وخيوطِ الضوءِ تنسلُّ من بين السحابِ ونسيمُ الهواءِ الباردِ يداعب شعره وكأنه يتراقصُ مع أنغامِ الرياحِ، والرمالُ تتقلبُ وكأنها أمواجُ بحرٍ عاليةٍ، والضبابُ القرمزي يعسّس⁽¹²⁾، قال له:

- أتعلمُ مكانَ السيفِ تحديداً؟!

(12) يقبل بخفةٍ ورقة حتى يمتلئ.

فنظر علي بابا إلى سندباد وقال:

- نعم أعلم، ولكن لا أعلم إن كنا سننجح في الوصول أم لا!

- وكيف تعلم مكانه؟

- إنها قصة طويلة أفضل أن أحكيها لاحقاً.

لحق مروان ومُهاب بسندباد ووقفا بجانبه ومن ورائهم الأربعة لصاً يقفون مُصطفين بنظام في أتم الاستعداد ليضحوا بحياتهم كي يصلوا إلى السيف الأسود.

قال علي بابا بصوت عالٍ يخاطب الجميع بعد أن التف بفرسه:

- اتبعوني ولا تقفوا أثر أي شيء غريب ترونه وإن بدا حقيقياً؛ فالضباب خادع يسعى لاستدراجكم. قد ترون أحبائكم وأهليكم الذين وافتهم المنية، فإياكم أن تأخذكم العاطفة وتذهب بكم كل مذهب فتتساقوا وراء الأوهام وإلا فالهلاك الهلاك. والآن توكلوا على الله وانطلقوا!

شدَّ علي بابا اللجام فانطلق الفرسُ يشقُّ طريقه وسط الضباب، فلما أن مرَّ حينً توقف علي بابا والضباب قد ازداد كثافة فتوقف الجميع مع توقفه، فالتفت وقال بنبرة يشوبها القلق:

- من الآن ستصبح الأمور أشد خطراً، لوحدتكم الآن قوة تمكنكم من اجتياز هذا الضباب فإن تفرقتم يقض علينا أجمعين. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين. واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا.

أوماً الجميع برؤوسهم، وساروا وراءه بحذرٍ وهم يتفقدون المكان من حولهم والضباب يزداد كثافة حتى أصبح من في آخر الصف لا يرى من في أوله.

سمع أحد الرجال في الخلف صوتاً مكتوماً ذا صدى غريب يناديه من ورائه فالتفت ينظر فألقى أمه المتوفاة تبتسم إليه وتناديه أن يجيئها ويرتمي في حضنها حتى توارت بالحجاب، فامتلاً حنيناً فأراد أن يتبعها ولكن زجره أحد رفاقه قائلاً:

- لا تصدق ما تراه، إنها محض أوهام.

فسكتَ الرجل ونظرَ أمامه وظلَّ يتجاهلُ صوتها. ورأى آخرُ زوجته التي تركها منذُ سنينَ عدا في دمشق فرارًا من قحطان ولا يعلمُ عنها شيئًا منذُ ذلك الحين، كانت واقفةً في الضباب تحملُ ابنتها بين يديها وتُلوحُ له وهي سعيدة متبسمة، ففرت الدموع من عينيه فأخذته مشاعرُه الجياشةُ فشَدَّ لجامه وانطلق إليهما، فحاول أصحابه أن يمنعوهُ ولكنهم لم يُفلحوا، فسمعوا صوته وهو يستصرخُ فهزَّ أوصالهم وأرجف قلوبهم، فأسقط في يد علي بابا وقال وهو غاضبٌ ساخطٌ:

- يا له من ساذجٍ ألم أقل لكم لا تتخدعوا، الآن قد رأيتم ما وقع بصديقكم فلا تحذوا حدوه!

قال سندباد متسائلًا والقلق يساوره:

- ما طبيعةُ هذه المخلوقات؟

- إنها كائناتٌ من أرضٍ أخرى غير أرضنا أحضرها (كيثار) كرهاً لتفتك بكلِّ من يحاولُ الاقتراب من عرينه، وهي تمصُّ دماء البشر وتخاف النور، قادرةٌ على التشكل والتلاعب بالعقول بأوهامها، يذكرونني بالذين يقبعون في الظلام يستغلون ما في الإنسان من غريزةٍ حيوانيةٍ ليستدرجوه، يوهمون الناس أن باطلهم حقٌّ ولمَّا أن يأتيهم نورُ الحق يستفزهم فتجدهم يفرعون.

فطن سندبادُ إلى ما يرمي إليه علي بابا، والتفت فإذا مروانٌ ممعِنٌ نظره في الضباب وهو مرتبك إذ رأى أباه يأمره أن عدَّ فورًا وإلا عاقبتك أشدَّ العقاب، فخشي عليه سندبادُ لأنه يعلمُ أنَّ أكثرَ ما يخافه مروانٌ في الحياة هو أبوه، هزَّ سندبادُ أفاق ونظر إليه وهو مذعور فقال سندبادُ ساخرًا ليخفف عنه توتره:

- لما تبدو خائفًا هكذا؟ رأيتني في الضباب وأنا أبرحُك ضربًا!

ابتسم مروان وسد إليه السخرية بسخريةٍ أشد:

- كلاً، إنَّما رأيتُ جلد المستقوي يجلدك جلدًا!

زفر سندباد وقال:

- لقد كان رجلا غليظ القلب قبحه الله .. خبرني، أفي جعبتك ما يُبعِدُ عَنَّا هذا الضباب أو هذه المخلوقات!

قاطعه على بابا قائلاً:

- حتمًا لديه، ولكنّه سيجذب أنظار كثير إن فعل، ويبدو أنّه يعلمُ هذا جيدًا.

أوما مروان برأسه وركّز نظره على حصانه لنلا يزوغ، أمّا مُهاب فقد كان في صمته المعتاد شارداً في الضباب.

رأى أحدُ اللصوص أمه التي دُبحت أمام عينيه من أحدِ رجال قحطان؛ لم ينسَ قط هذا المنظر وعجزه عن إنقاذها. رأى المشهدَ يعادُ مرةً أخرى والجندي مُستهزئاً به يضعُ سيفه على رقبتها كي يذبّحها كالنعجة، والأم تترجى ولدها وهي تبكي لينقذها من هذا الموتِ المحتوم، فأسقط في يده ورفع سيفه وهو يركض ناحية الجندي صارخاً:

- دونك عنها أيها السافل، لأقتلنك إن مسست شعرةً منها!

حاول أصحابه أن يوقفوه ولكنّه انطلق بسرعةٍ وسط الضباب فأصيب بمثل ما أُصيب به صاحبه، فهاج علي بابا لأنّه بدأ يفقدُ رجاله واحداً تلو الآخر، فدعا الله أن يخرجهم مما هم فيه، فإذا مهاب يصيحُ ويقول وهو يتجه إلى الضباب:

- لن تفلت من يدي هذه المرة!

فاتسعت عيني سندبادُ من الدهشة إذ رأى مُهاباً يقتحمُ الضباب، ولم يفهم ما أصابه فهو رجل هادئ رزين لم تكُ له أيّ صراعات مع أحدٍ اللهم إلا من استعبدوه. شدّ سندبادُ اللجام وانطلق وراءه، فنهره على بابا قائلاً:

- توقف، إن تفعل تمت!

- لن اتركه وحده أبداً!

تبعه مروان وهو مطمئنٌ يعلمُ أن على الوحوش أن تخاف من مهاب وليس العكس.

انطلق سندباد وهو يتبع ظلَّ فرسٍ مهاب الذي يركض أمامه وسط الضباب، فإذا مهاب يتوقّف وحوله وحوش طائرة ذات وجوه شيطانية وأنيابٍ طويلةٍ مُدببة وأظفار حادة وأذانٍ كبيرة وشعرٍ منسدل مُسترسِل إلى الأرض، فشرع سندباد يلوح بسيفه حتى قطع رأسَ أحدها ففرت المخلوقات بخفةٍ يستعدون لأن يباغتوهما، فلما أن اقترب سندباد من مهاب قال وهو راكبٌ فرسه:

- كيف أغفلت واستدرجوك بضلالهم؟! -

- آسف يا صاحبي هذا خطأي .. علينا الآن أن نخرج من هنا!

ظلَّ علي بابا يقودُ اللصوصَ وهو ضائقٌ صدره؛ فإن ماتَ سندبادُ فلا معنى إذًا لسعيهم، فترقّب الضبابَ وأخذ يدعو الله أن يعودوا بسلامٍ آمنين.

دارَ سندبادُ بفرسه يحاولُ أن يُحصيَ عدد هذه المخلوقات الشيطانية، فلما أن رفع سيفه يتجهز للقتال أخرجَ مهاب فأسه وشقَّ بعضها نصفين، فباغتت المخلوقات سندباد من كلِّ مكانٍ فجرحته عدة جروح وهمت لتعضه فصدف عنها وما كاد يفعل، فتنفقد جروحه فإذا هو ينزف. أقبلت المخلوقات نحو مهاب فهبَّ يضربها فناورت فأسه وقفز أحدها على رقبتة وعضه فأمسك به مهاب ورماه بعيدا وأخذ يلوح بفأسه لعلها تبتعد عنه فطفقت تهجمُ عليه تريدُ أن تظفر بدمه فلم تُفلح ولكن خلصت أظافرها إليه فجرحته. وصل مروان إليهما فلبث مكانه ويكأن على رأسه الطير والمخلوقات تنتظر إليه بنهمٍ تظنه من نحافته لقمة سائغة، فابتلع مروان ريقه وأحس جسده يكاد يتجمد من برودة الضباب فركض نحو سندباد وهو يدفعها عنه بسيل البركة.

تذكر سندباد علي بابا إذ قال إنها مخلوقات تخاف النور، فرفع يده المتوهجة رفعا عسيرا من جراحه التي أثختته، وأطلق بها وابلا من النيران فأحرقت عددا قليلا وفر بعضها خوفا من ضوء النيران تنتظر أن تباغتهم كرةً أخرى، فركض مهاب إلى رفيقيه وكاتفهما والمخلوقات تُحاصرهم من كلِّ حدبٍ وصوب فقال وقد انثالت عليه القلاقل:

- أديكما أي خطة نفر بها من هلاكٍ مُبين؟! -

لمعت فكرة في رأس سندباد فقال وهو واثق:

- ألهمني الله خطة، ولكن أحتاج مساعدة مروان!

عالج مروان بعض جراح سندباد بالسيل المبارك وانطلقت بعض الكائنات إليهم تصرخ صراخاً مروّعاً تهتز منه الأبدان فهبّ الأصحاب يقاتلونهم، ففلق مهاب أحدهم بفأسه، وشقّ سندبادُ الثاني بسيفه وقطع رأس آخر فقال:

- سأخرج ناراً فاجعلها تطوّقنا وتدور حولنا فتقينا بأسهم!

أوماً له مروان فرفع سندبادُ يده فأخذت تتوهج فأوجست المخلوقات في أنفسها خيفةً إذ رأوها، فلما أن اشتد توهجها أطلق سندبادُ عليهم وابلاً من نيران ذات حدمة⁽¹³⁾ فزعت منها المخلوقات فأسقرت عشرةً دفعةً واحدة، وجعل مروان يرتل الأبيات وهو يمدُّ يديه إلى الأمام حتى أحكم السيطرة على النار لتخرج عنقاء صغيرة من النار ذات هجيجٍ فطفقت تدور وتدور في الهواء تُطارد الوحوش، فتشتتت هرباً منها فنصحهم سندبادُ أن يعودوا لئلا يضلوا السبيل، فقال مروان وهو ينفتل عائداً:

- حمداً لله أنّي تركت ببغائي عند علي بابا قبل أن أنطلق وراءكم.

قادهم مروان وسط الضباب والعنقاء تحلق حولهم تحفظهم وتحميهم، فقال سندباد بتشددٍ:

- ألم أكن أنا من تذكر قول علي بابا إذ قال أنها تخاف النور، ألن تعترف أبداً أيها العر أن لولا خطتي لهلكتما!

- بل إن لولا تطويعي للسيل المبارك لهلكتما، الفضل ليس لك وحدك!

- يا لك من ناكِرٍ للجميل!

ابتسم مروان فلما أن رجعوا وجدوا الشياطين تُحاصرُ علي بابا ومن معه، فتشتتوا وهم يلوحون بسيوفهم عشوائياً من الذعر، فأرسل مروان العنقاء إليهم

(13) صوت التهاب النار.

ففرعت الشياطين إذ رأته، فقتلت العنقاء منهم عددًا غفيرًا وولى الباقية منهم
مُدبرًا حتى تواروا بالضباب فاطمأن علي بابا، فلما أن اقتربوا قال يحييهم:

- حمدًا لله على سلامتكم .. من حسن حظكم أنكم جئتمونا حين بلغت القلوب
الحناجر وإلا لآزدا الأمرُ سوءًا .. أوشكنا أن نصل إلى المغارة وحينها لن
تتعقبا هذه الشياطين مرةً أخرى!

فانشرح صدورهم ونظروا إلى السماء فرأوا طيفَ الشمسِ يلمع خلف
الضباب القرمزي فزادهم هذا أملًا.



وإذ خرجوا من بين الضباب رأوا صحراء ذات رمالٍ ذهبيةٍ تلمع تحت أشعة الشمس ألهبته عقول اللصوص فنزلوا من على خيولهم وجعلوا يجمعون تراب الذهب والتبر، فإذا جبلٌ من الذهب والجواهر والياقوت الأحمر والأزرق والأخضر والفيروز والزبرجد والعاج واللؤلؤ يتجلى لهم بالأفق، فقال علي بابا مُشيرًا إليه:

- المغارة هناك، لقد اقتربنا كثيرًا.

وقال لجنوده يُحذِرهم:

- عودوا إلى خيولكم فإن هذا ليس وقت جمع الذهب، سنجمع كل ما تبتغون حين ننهي مهمتنا إن شاء الله، ثم إن العدو قد يكون أعد هذا الذهب كي نرخي دفاعاتنا فينقض علينا.

اقترب أحد لصوص علي بابا وأخذ حفنة من الرمال الذهبية وكان الذهب قد غيَّب عقله فأصبح كنائم لا يحس بالذين من حوله، فإذا هيكلٌ عظمي يخرج من بين الرمال ليمسك بيده ففرع الرجل ودفع يده بعيدًا عنه وانطلق يصرخ ليحذرهم فسمعه جمع علي بابا فإذا هيكل يُخرج يده من الرمال ويجرح رجله جرحاً له غور فسقط الرجل أرضاً وطفق يتلوى من الألم فخرجت بضع أيدي عظمية وسحبته إلى الأسفل، فإذا الأرض تمور من تحتهم لتخرج أعداد هائلة من هياكلٍ عظمية ذات سيوفٍ فكوكها تتحرك حركةً عجيبةً وتقعقع قعقة ألفت بالرعب في قلوب اللصوص، فقال سندباد مذهولاً وفاهه فاغر:

- ما هذه الأشياء؟!!

رد علي بابا قائلاً وهو متوتر قلق:

- إنها هياكل أمواتِ هذه الصحراء، وحوشٌ بلا أرواح تقتل دون رحمة، يسخرهم كيثار لخدمته. كلٌّ من هلك سعيًا وراء كنوز كيثار أصبح جسده تحت قبضته يُقاتلُ من أجله حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

فقال مروان مشمئزاً:

- إنها تعويذة مُحكمة محرمةٌ حتى في كتبِ السحر لا يقدر أن يسيطر عليها أحدٌ إلا من كان ذا طاقةٍ هائلة. كلما اقتربنا من مقر ذلك الذي يدعى كيثار ازدادت قلقًا وتوجسًا.

فلما أن أخرجَ علي بابا سيفه وصرخَ في الرجال يُحفرهم كي يتجهزوا للقتال، انطلقتِ الهياكل وهي مصطفة كالبنيان المرصوص، كان عددها يقرب من ثلاثمائة أسنانها تصطك ويكأنها تتحدث بلغة الأموات، فأدرك جمعُ علي بابا أن لا مفر الآن إلا القتال.

فلما أن التحم الجمعان طفق جمع علي بابا يدوسونها بأرجل خيولهم ويضربون رؤوسها بسيوفهم ورماحهم وفؤوسهم، وشرع سندبادُ يشوي بيدٍ من علي شماله ويضرب بيده الأخرى بسيفه الذي اشتعل نارًا، وأخرجَ مُهاب اسفنجًا حمراء مسحَ بها رأسَ فأسيه فاشتعل نارًا فصرع به بضربةٍ واحدة أربع هياكل، وقذف علي بابا شيئًا مستديرًا عجيبًا من جعبته وسطَ جيشِ الهياكل فانفجر فحولَ عشرين منها أشلاءً، فقال مُهاب متعجبًا بعد أن أثارته قوة السلاح:

- ما هذا السلاحُ الفتاك؟!!

رد مروان وهو يصطنع الخبرة:

- ألا إنها متفجراتٌ، تضعُ بعضَ البارودِ داخلَ لفافةٍ ورقيةٍ زيتيةٍ وتشعلها فتنفجر، وثمة أنواعٌ أخرى قرأتُ عنها.

قال علي بابا وهو يشقُّ طريقه ويسحقُ أحد الهياكل ويردع آخرَ بسيفه:

- لقد سرقتها من قافلة كانت ذاهبةً إلى دمشق. لدي الكثير منها كما أني تعلمتُ كيف تُصنع.

كانت الهياكل تقفز عاليًا على الجُند وكان الجاذبية لا تؤثر فيها وتسقطهم أرضًا، وقفز بعضها على سندباد فانحنى لتمر من فوقه وهو يضربُ من على الأرض منها بسيفه، وكان عليّ بابا ينحرف بحصانه لئلا تتال منه فإذا جنوده يسقطون واحدًا تلو الآخر من على أحصنتهم وإذا مُهاب تقفز عليه بضعة هياكل وتُمسك به لتُسقطه من على حصانه، فلما أن سقط أطاحها بعيدًا فجعلت تتقاذف عليه فضل يُمسك بها ويرميها ويضربها برجليه حتى جاءه بعض الرجال ليساعدوه، فإذا الهياكل تُمسك حصي ذهبية وتقذفهم قذفًا أعاق تقدمهم.

قفز سندباد ومروان وجل الرجال من على خيولهم ووقفوا يحمون ظهور بعضهم بعضًا، فأحاطت الهياكل بهم فذهب الرجال بسيوفهم ليدافعوا عن علي بابا إذ رأوا أنهم في مأزقٍ لا يُحسدون عليه، فنظر سندباد إلى مروان المرتاب وقال بعد إذ رآه ينظر نظرةً ذات دلالة:



- يبدو أن في جعبتك شيئاً!
- نعم ولكنه سيعلم كثيرًا بمقدمنا.

توجس سندباد من قوله، ولكنه أدرك كي ينجو فلا خيار آخر، فقال يُشجعه:

- افعله إذا؛ فكيثار سيعلم بوجودنا عاجلاً أم آجلاً.

- إذا احموني حتى أتمكن من إيقاف تعويذة كيثار وأفك سحره.

أنبا سندباد علي بابا بالأمر، فنادى رجاله أن اصمدوا واحموا مروان فالتفوا حوله في دائرة يدافعون عنه، فحاصرتهم الهياكل من كلِّ حذبٍ فوقف الرجال أمامها مرابطين والهياكل تقفز عليهم قفزا تريد جز أعناقهم، فأطاحوا ببعضها وأطاحت ببعضهم وظلت تندفع وتضيق عليهم الخناق ومُهاب يُقاتل قتالا شرسًا وسندباد يسقرها بيده سقرًا، جعل علي بابا يقاوم وهو منهك ومروان يجلس في قلب الدائرة وهو يتمتم ببعض الأبيات الشعرية قائلاً:

- وفارسٍ في غمار الموت مُنغمسٍ إذ تأتي على مكروهة صدقا

غشيتُهُ وهو في جأواءِ باسلةٍ عضبًا أصابَ سواءَ الرأسِ فانفلقا
بضربةٍ لم تكن مني مُخالسةً ولا تعجلتها جُنباً ولا فرقا

صاح الببغاء على كتف مروان وهو يرتعد خوفاً حتى تساقط بعضُ ريشه:
- لا أريدُ أن أموت.

ظلت الهياكل تُطِيحُ بهم وتدفعهم دفعا شديداً وهم صامدون صمود الجبال،
فحفزهم علي بابا أن اصبروا إن الله مع الصابرين، ثُمَّ تخلل اليأس إلى قلوبهم
فجعلوا يتساقطون أمام هذه الهياكل المريدة حتى قال سندباد لمُهاب بعد إذ
لاحظ استسلامهم:

- علينا أن نحفزهم!

فانطلق مُهاب وسندباد يشقان طريقهما وسط الأموات يضربانهم ضرباً
فتشجع الرجال واشتد عودهم فهبوا يدفعون الهياكل دفعا فقاومت بعض
الهياكل وتخللت ثغرات دائرة الرجال المحيطين بمروان وقبل أن يفتكوا به
وقف علي بابا ورجاله وصددهم صداً وظلوا يدفعونهم حتى بدأت أجسادهم
تنن فإذا مروان يرفع يده عالياً فانبتقت موجة قوية زرقاء منها هزت الأرجاء
فتساقطت الهياكل كلها وعاد الأموات إلى أجدانهم.

تنفس الجَمْعُ الصعداء وانشرحت صدورهم فلما أن تحرك سندباد ليُثني علي
مروان مارت الرمال لتخرج عنقاء ذهبية لونها لون الرمال تشتعل أجنحتها
بضوءٍ ذهبي وهاج يغشي الأبصار، فاتسعت عينا علي بابا من الخوفِ وقال
مُحذراً:

- احذروا! إنها العنقاء الذهبية، حارسة المغارةِ وسببُ كونِ هذه الرمالِ ذهبيةً
اللون، إن مسَّكم هواءٌ فمِها فستتحولون إلى تماثيلِ ذهبٍ.

تنهد سندباد وقال وهو يائس لمروان:

- أذهلتني، لقد أطحت بالهياكل لتُخرجَ لنا عنقاء.

انحرف علي بابا إلى اليسار، تبعهُ سندبادُ ومُهاب وبعضُ اللصوص،
وانحرف مروان والآخرين إلى اليمين ليتجنبوا أنفاسَ العنقاء.

قال سندباد وهو يتأمل هذه العنقاء الضخمة ذات الجناحين اللامعين:

- أفتل هذه المخلوقات ما زالت موجودة؟! لقد قتلت عنقاء النار ولم أعلم أن هناك أخرى تنفت الذهب!

- نعم لقد تناقص عددهن، وهذه العنقاء من بقين، ولكني سمعت أن ثمة عالمًا خفيًا فيه ما لا تتصوره العقول، وتحوم فيه العنقاوات وتملأ سماءه وأرضه.

سكت سندباد، وأمعن نظره في العنقاء وهي تنفت دُخانًا ذهبيًا يُجمد كل من في سبيلها من لصوص، فحاول مروان التغلغل إلى عقلها ليسيّطَر عليها ولكنه لم يُفلح، فلدى العنقاء نظامٌ يقيها من أئمة البركة إلا من له باع طويل في السيطرة على مخلوقات العالم ووحوشه كالذهبي، صرخ علي بابا لسمعته جميع من في أرض القتال:

- طوقوها وانقضوا عليها دُفعةً واحدة!

فالتفت العنقاء يمينها وجعلت تنفت دُخانًا فرجع مروان الرمال عاليًا تقيهم نفثها فإذا هي جدارٌ راسخ من ذهب، فاستغل علي بابا انشغال العنقاء فانطلق ليباغتتها من الخلف ولكنها أحسّت بهم فلوّحت بذيلها الذهبي المریش المتوهج فأسقط علي بابا وسندباد ونصف من معهم على الأرض، فجمع مُهاب البقية وقادهم كي يحاصروها من الجهات الثلاثة، فصرخت العنقاء وحاولت أن تضربهم بذيلها ولكنها أخطأت، فركض سندباد مُسرعًا لينقضّ عليها من قبل أن تلاحظه، فلمحته فلوّحت بذيلها كرةً أخرى فقفز سندباد عاليًا ونزل غارزًا سيفه في ذيلها، فصرخت العنقاء وتألّمت وأخذت تهزّ ذيلها هزًا عشوائيًا وسندباد معلقٌ عليه يحاول التشبُّث لئلا يسقط، وانطلق مُهاب وبعض الرجال يحاولون مباغتتها فدارت بجسمها كي تجعل ذيلها يفتكّ بهم فأسقطت منهم البعض وجعلت تنفت هواءً تُريد تجميدهم جميعًا فأيقنوا أن هذه العنقاء لشديدة وأن التصدي لها لدرب من الجنون، فنظر علي بابا إلى رأسه مستخدمًا استبصار عينيه كي يعثر على نقطةٍ ضعفٍ ما فوجدّها تحت رقبتها فهبّ يحاول أن يستهدفها، فانتبهت إليه العنقاء وفتحت منقارها لتنفث دخانها ولكنها لم تُخرج شيئًا، فتشبّط علي بابا ظنًا منه أنه هالك فدقق النظر فإذا ملامح

العنقاء قد تغيرت وطفقت تنظرُ إليه وهي تقتربُ منه وكأنها تحاولُ تذكرَ ذكرى بعيدة في أعماق قلبها، لم يعبأ بسندبادَ ولا من حوله، فانطلق اللصوص إلى علي بابا والدموع تنغمر على وجوههم لينقذوه قائلين:

- أيها الزعيم لن نتركك ولو هلكنا معًا.

فلما أن شمّت العنقاء رائحةَ علي بابا، أصبحت ملامحها أقل عدوانية فإذا تقترب برأسها منه وتتحسسه بوجهها، فأشار للصوص أن أغمدوا سيوفكم فلم يعد لها حاجةُ الآن، فأخرجَ سندبادُ سيفه من ذيلها ووقف مشدوهاً هو والجميع، فقال سندباد وعلي بابا يداعبُ بيده رأس العنقاء التي أخذت تتقلب فرحًا ويكأنها طفلة لم ترَ أباهَا منذ سنين:

- إنك لمليءٌ بالمفاجآت! أتى روضتها؟!!

- لم أروّضها. إنها صديقة قديمة، ولكني أُجبرتُ أن أتخلى عنها وحسبتُ أن تذكرني لذلك ظننت أن قتلها أسلم لنا.

سكنت العنقاء وبركت وأنشأت تُصدرُ صوتًا، انطلق علي بابا إلى المغارة فتبعته العنقاء واللصوص من ورائها وهم يحاولون أن يتحاشوها، فقال مروان مُتذمرًا:

- لديه عنقاء صديقة، أمّا أنا فلدي سندباد وهذا البيغاء الأحمق يا لحظي السيء!

انطلق البيغاء ينقر مروان وسندباد يجره من تلايبه قائلًا:

- أسمعني ما قلت ثانية يا وجه النحس.

فر مروان من قبضته وأمسك بالبيغاء ودفن منقاره في الرمال، فقذف سندباد بحفنة من الرمال الذهبية في ملابس مروان وقال مازحًا:

- قد تغطي رائحة الذهب رائحة قلبك العفنة!

فلما أن اقتربوا من المغارة أوقفهم علي بابا وقال حازمًا:

- لا يمكنكم المجيءُ معي وأنا أفتحُ المغارة، ذلك لأنّ كيثار أنباني أن سيسلبني بصري إن أحسّ أحدًا آخرَ معي.

قَطَّب مروانُ جبينه وتساءل:

- وهل قابلته من قبل؟

- منذ زمنٍ بعيد، إنها قصةٌ طويلةٌ سوف أرويها لكم لاحقاً.

إحترم الجميعُ رغبته فتركوه واكتفوا بمشاهدته وهو يقتربُ من المغارة وعنقاه العظيمة، فلما أن وصل إلى المغارة رفع يديه عاليًا وقال بصوتٍ خافت لئلا يسمعه أحد:

- افتح يا سمس.

فإذا المغارة تهتزُّ وإذا بابٌ صخريٌّ ضخْمٌ يخشخشُ وينفتح ببطءٍ شديد، فأشارَ علي بابا إلى الجميع أن أقدموا، فجاءوه وهم يوقنون أن ما من مكانٍ أنسب من هذا المكان ليضع فيه السيف لئلا يصل إليه أحد، فلما أن اقتربوا من بابِ المغارة خرجَ صوتٌ قوي من أعماقها ترتجفُ منه الأبدانُ يقول:

- مَنْ تجرأ على اقتحامِ بيتِ أميرِ الصحراءِ كيثار... ليُلعننَّ كلُّ متجريٍّ وطأ بقدمه النجسة بيتي!

الإمعان

خرج الصوت مدويًا وصدرت معه ريحًا عاتية جعلت علي بابا يتراجع من شدتها فوقاه شرَّها العنقاء بجناحها، فلما أن هدأت الريح أشار إليهم علي بابا أن أدخلوا.

ظلت العنقاء خائفة ودفوا وهم مذعورين من خوف عنقاء كهذه من ذاك الذي يقبع داخل المغارة! كان المكانُ مضاءً بقناديل داخلها يراعات مضيئة، وجدرانها مزينة بالذهب والفضة تبرز منها أحجار الياقوت والألماس، والتحف والكنوز تملأ الجانبين فدهش الناس من عظم ما رأوه، فقال علي بابا محذرًا إياهم:

- إياكم أن تلمسوا شيئًا! فهو لا يحب أن يمسَّ كنزَه أحدٌ.

رأى الجمع غرفةً كبيرةً في نهاية المغارة زادت دهشتهم من جمالها، فإذا شخصٌ يجلسُ على عرشٍ في الظلام ينظرُ إليهم نظراتٍ عدوانية تغلغت إلى قلوبهم فامتأوا رعبًا، فقال بصوتٍ جهوري غريب ويكأنه وليدُ عالمٍ آخر:

- ها هو علي بابا يعود مرةً أخرى! ألم أمرك ألا تعدُّ! ثمَّ من هؤلاء الذين أحضرتهم معك؟!

انحنى علي بابا احترامًا ورفع عينيه ينظرُ إلى وجه كيثار الذي كان يجلسُ في الظلام، وقال وهو يخفض صوته:

- بلى، ولكنَّ الأمرَ طارئٌ .. هؤلاء أصحابي ولا تقلق؛ فأنا لم أعلمهم بكلمة السر.

نظر إليه كيثار نظراتٍ تشككٍ وعيناه تلمعان في الظلام تكادُ من شدة زرققتها
تضيئه، فقال وهو ينظر إلي يدِ سندباد الغريبة:

- وما هو هذا الأمر الطارئ؟!!

- أسألك أن تعطينا السيف الأسود؛ فمصيّرُ قومي متوقفٌ عليه.

فهبَّ كيثار يضحك ضحكًا أضاق صدرَ علي بابا، فلما أن انتهى من قهقهته
قال مُتهكمًا:

- وهل تظنُّ واهمًا أنّي سأعطيك أنفـس كنوزي؟! ثمَّ وإن أعطيتك إياه فإنك
لن تستطيع أن تحمله.

- إنك كباقي أسياد الطبيعة وعظماء الجن لا ترفضون طلب امرئ يريدُ أن
يخوضَ الاختبار، إنّه القانون الخامس في لائحةِ قوانين أسياد الطبيعة كما
هو معلومٌ منذ أمدٍ بعيدٍ. ثمَّ إننا معنا من يقدرُ على حمله، فأشار علي بابا إلى
سندباد فرفع سندباد يده الحمراء، فقال كيثار:

- لقد كنت أشم رائحةً نفاذةً تُشبه رائحة شياطين النار - منذ دلوفكم -
ممزوجة برائحة بشرٍ وهذا ما زاد حيرتي ..

خبرني أيها الفتى كيف حصلت على هذه اليد؟ فهز سندباد كتفيه باستهجانٍ
وقال:

- لا أدري، لقد ولدتُ بها.

- الآن قد فهمت.

- ما الذي فهمته؟!!

- سوف تعلم لاحقًا، هذا إن خرجتم من هنا.

أدار كيثار بصره إلى علي بابا ووجهه سبابته ناحيته بلومٍ وتقريعٍ وقال:

- إن السيف الأسود لسلحُ خطير يا ابن الصحراء، ولنن وقع في اليد الخطأ
ليدمرنَ عالمكم، لذلك أبقيه معي ههنا.

رد سندباد وهو عازم أمره:

- إنّا لن نستخدمَ السيفَ في الشرِّ أبدًا، لا نريدُ إلا أن ننفذَ الشامَ وأهلها!
علم كيثار إذ تفرس في وجه سندباد أن ليس هذا بوجه كاذب، فقال بصوتٍ
رخيم:

- سنرى إن كنتم أهلًا لاختباري!

سكت وهو يتفرسُ في وجوههم ثم كسر حاجز الصمت قائلاً:

- والآن فليبدأ الاختبار! مَنْ يُردُّ التقدّمَ يختَرُ أحدَ كنوزي، واعلموا أن لا
يمكنكم أن تتشاركوا كنزاً واحداً، على كلّ منكم أن يختارَ كنزاً فريداً لا يُشبهه
كنز صاحبه!

فتراجع الجميع من الخوف إلا علي بابا والرفاق الثلاثة، تفقدوا الكنوزَ فرأى
علي بابا حبلاً عجيباً، لونه أسود مزخرف بزخارف حمراء، فسأل كيثار:

- ماذا يفعل هذا الحبل؟!

- إنه حبل عجيب مرّن كالأفعى، يتحرك أينما شئت وأينما توجهه، ويستمدُّ
قوته من حامله.

فابتسم علي بابا وقرر أن يختاره. تفقد مروان المكان من حوله ورأى كنوزاً
عدداً من رماحٍ وسيوفٍ ذهبيةٍ وفضيةٍ وحمراءٍ وزرقاءٍ وصفراءٍ، وجواهر
وقلائدٍ وأساورٍ، ولكن أكثر ما لفت انتباهه قفازين غريبين من فضةٍ يُمسكان
بلفيفةٍ قديمة، فسأل كيثار عنهما فرد وهو يتثاءبُ من الملل قائلاً:

- إنهما يعززان قدرة كلِّ من يستعمل السيل المبارك، ويكسبانه قدرات جديدة
قد تُحطِّمُ يده من دونهما. وأمّا اللفيفة فهي تراثيل عتيقة طمرها الزمان
فنسيت.

عزم مروان أن يكون هذا هو كنزه، أما مهاب فسيقاً فضياً رأى بعد بحثٍ
مضن، كان ضخماً حاداً عليه نقشٌ عنقائٍ ترفعُ أجنحتها في الهواء، فسأل
كيثار عنه فقال:

- إنه سيفٌ لا ينكسرُ أبدًا؛ فمعدنه نادر جاء من أرضٍ أخرى. قد يتحطم جسد حامله إذا ضُربَ ضربةً شديدة ولكن لن يتحطم السيف. ضربةٌ منه قد تشق أقوى المخلوقات نصفين ولكنه يحتاج إلى قوة جسدية هائلة.

فلم يتردد مهاب لحظةً واختاره، فقال كيثار وهو يصفق بيديه:

- فلنبدأ إدا!

خرج شعاعٌ نور قوي من جسده أغشى أعين الجميع، فلما أن فتح الأربعة أعينهم ألقوا أنفسهم في مكانٍ غير الذي كانوا فيه؛ فكانوا يقفون على ساحة مدورة صغيرة، منقوشٌ عليها رمزٌ عنقاء، وأمامهم طريقٌ من بلاط مزخرف، والظلام يغشاهم ويكأنهم يحلقون في سماءٍ مظلمة، فقال مروان وهو يتفقد المكان:

- أظنُّ أننا إن نَهو في هذا الفضاء المظلم توأفنا المنية ونهلك!

تحركوا وهم حذرون مركزون لئلا يسقطوا، كذلك ظلوا حتى وصلوا إلى ردهةٍ على جدرانها نقوشٌ عربية قديمة. فدلّفوا إلى الردهة التي تلتف إلى اليسار على شكل نصف قوس، وما تكاد تسعُ اثنين يسيران بمحاذاة بعضهما بعضا.

كان علي بابا قد فعّل قدرة استبصاره، فلما أن وطئ سندبادُ أرضيةً متحركة فعّل أحد الفخاخ فسحبه علي بابا من يده فسقطت من السقف مقصلة كبيرة كادت تقطع رقبتة، فُزع سندباد وشكر علي بابا الذي قال:

- خذوا حذركم فالفخاخ كثيرة! علينا التعاون كي نخرج من هنا.

أخرج مروان فأرًا من راحة يده، فشرع الفأر يجري حتى انفتح بابٌ أسفله ليهوي به إلى الفضاء المظلم، كذلك علموا مكان الفخ الأول فاجتنبوه، فقال مروان:

إن استدعاء الحيوانات من المخازن المباركة يستنفذ كثيرًا من قوتي، لذلك أحتاجُ أن أحفظها لما هو قادم.

فاضطروا أن يعتمدوا على حواسهم لكي يجتنبوا الفخاخ، ثمّ وطئ مُهاب أرضيةً متحركة فسقط بابٌ حجري من السقف فسد طريقهم، فرفع مُهاب يديه وثبّت الباب، ولكنه لم يستطع أن يصمدَ طويلًا، فمرّ الجميع من تحت يديه وعزز علي بابا عضلاته كي يخفف عنه الحمل حتى تركا الباب ودخلا، فنظر سندباد إلى علي بابا وهو حائر:

- ما هذه العضلات! لا أعلم متى ستنتهي مفاجأتك هذه يا علي بابا!

فتبسم علي بابا واستكملوا سيرهم وحواسهم مشحونة وآذانهم تصيخ السمع لكل حركة، فإذا علي بابا يطاءً فخًا آخر ليخرج وابلُ سهامٍ من نهاية الغرفة، فأخرج سندبادُ نارًا أحرقت السهام قبل أن تمسّهم، كذلك ظلوا يطئون فخًا تلو فخٍ مختلفة الأنواع، فإمّا سكاكين حادة تخرج من الأرض وإمّا مقاصل تريدُ قطع رؤوسهم وإمّا أبواب توصل، كانت الفخاخ كأنها تعيدُ نفسها، فقال مُهاب وهو نافذ الصبر:

- لقد سئمتُ من هذه الردهة المملة!

فإذا سندباد يحك ذقنه قائلاً:

- لقد لاحظتُ شيئاً! كما ترون فإن السقف ليس عليه نقوش، ولكن فوق كل فخ نقش، وكل نقش يبدو مُختلفاً عن سابقه حسب نوع الفخ؛ فللمقصلة نقش الطائر وللباب نقش العين، وهلمّ جرّاً. ولكن الغريب أن الفخاخ تتكرر وهذا يعني أننا نسيرُ في حلقة مفرغة! لذلك علينا أن نجربَ ونضغط على أحد هذه النقوش لعلها تُعطل الفخاخ أو تفتح لنا باباً!

قال علي بابا يؤيده:

- أحسنت. لقد لاحظت هذه النقوش أيضاً، ولكنّي لم أكن متأكداً أنها فوق كل فخ.

قررُوا تعطيلها فلمّا أن اقتربوا من نقش العين رفع مُهاب سندباد حتى وصل إلى النقش وضغط عليه فإذا صوتُ أتراسٍ تنفك، فوطئ علي بابا الفخ برجله وتراجع سريعاً فلم يحدث شيئاً، كذلك ظلوا يُعطلون فخًا تلو آخر حتى انتهوا فاهترزت الردهة بهم وهبّت تتغير معالمها حتى انفتح لهم بابٌ خفي في الحائط

فدلفوا بحذرٍ وهم يشعرون بغبطةٍ لا ينضب معينها، فألقوا درجًا يتجه إلى الأسفل فنزلوه والقناديل حولهم تضيء العتمة، فلما أن وصلوا إلى نهاية الدرج وجدوا أربعة أبواب فإذا كيثار يقول بصوتٍ دوى في أنحاء الغرفة:

- تهانينا. الآن على كل واحدٍ منكم أن يختار بابًا مختلفًا عن اختيار صاحبه.

تشاوروا فعزموا أمرهم ففتح سندباد بابه ودلف وانغلق الباب من خلفه؛ فإذا شيخٌ وطفلٌ كل واحدٍ منهما محبوسٌ في قفصٍ مُعلقٍ بسلاسلٍ في سقف غرفة مرتفعة، وتحت كل قفص يد ميكانيكية يمكن تحريكها لغرض، فتثبط مذهولاً ثم أشار بيده ناحيتهم يحاول أن يستوعب ما يراه فقال:

- ما هذا الهراء!؟!

فجاءه صوت كيثارٍ موضحًا:

- إن هذا الاختبار يسير ولكنه عسيرٌ في آن واحد، عليك أن تختار التضحية بأحدهما كي تحصل على مفتاح الباب الذي وراءهما.

فلم يصدق سندباد ما سمعه وقال وهو ضائق صدره:

- وما ذنبُ هذين البريين لتضعهما في هذا الاختبار وتتركني أنا أحدٌ مصيرهما؟! ثم أنى وصلا إلى هنا؟! لم يكن معنا أحدٌ في المغارة غيرك واللصوص!

- لا يهم كيف وصلا. وقتك يمرُّ وحين ينتهي ستفشل في الاختبار.

رأى سندباد ساعةً رملية تنساب رمالها من أعلى إلى أسفل، وأخذ بصره يبرق بين الساعة والقفصين، كان الطفل يبكي، والرعبُ والحزنُ مرتسمين على ملامح الشيخ الذي استحث سندباد أن ينجدهما من هذا العذاب.

أخذ سندباد يذرعُ الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو يفكر، فإذا كيثار يقول:

- أعلم أنك تريد أن تنقذ كلاهما ولكن هذا محالٌ. كلانا يُسلمُ أن الشيخ لديه وقت قليل ليعيشه ولكن قد يكون بانتظاره الآن من يفقده من أهله؛ أمّا الطفل فلم ينل حظه من الحياة بعد، وما يدريك لعله يُصبحُ ذا شأنٍ سامٍ أو منحطٍ أو بطل عظيم يخلده التاريخ! ها خيرني من ستختار!؟!

قال سندبادُ وهو متأجج غضبًا:

- إنك لو غدُّ مجنون، أكلُ هذا لئلا أظفرَ بالسيف؟!!

خرجت ضحكة مُجلجلة من كيثار مُكتفياً بالنظر إلى سندباد المتحير، فلما أن ملأ الرملُ نصفَ الزجاجاة وانسال العرقُ من جسده وتسارعت نبضات قلبه وظن أن لا مخرج، نادى وهو مكظوم أن اللهم نجني من الكرب إنك أنت الفتاح العليم، فقال سندباد لنفسه:

- إن الله قد حرم علينا القتل، فلا يجوز لي أن أقتل نفساً زكيةً بغير نفسٍ كي أنصر الشاميين المُستضعفين؛ فما الذي يضمن لي إن فعلت ذلك ألا يفاجئني كيثار باختبارٍ آخر! وهل أضمن أن أضل إذا فتنتني قوة السيف، وإن لم أضل فهل سيكفينا السيف لننتصر على القوم الظالمين! ثم إن من السداجة اختزال الغيب وحصره فقط في هذه الاحتمالات التي وضعها كيثار، فالاحتمالات يصعبُ حصرها، فقد يكون الشيخُ قد أمَد الله في عمره، وقد يموت الطفل صغيراً؛ وقد يكون الشيخُ عالماً لا بديل له فيكون قتله مضرّةً للناس، وقد يضحى الطفلُ ضالاً مضلاً؛ وقد يكون الأمر على خلاف ما افترضت الآن! لذلك إن اخترت اختياراً هذا يعني أنني حتماً سقطتُ في ضلالٍ مبين!

أثر سندباد الحياذ فقال وهو عازمٌ أمره:

- احتفظ بسيفك، لأجدن طريقاً آخر لنفوزَ بهذه الحرب!

فاذا بابٌ صغير يفتح في السقف ليسقط منه مفتاح، فتلقفه سندباد وهو مذهول لا يفهم ما جرى، فقال كيثار مهناً سندباد:

- لقد اجتزت الاختبار، تهانينا!

فبادره سندباد قائلاً:

وكيف هذا؟!!

استطرد كيثار قائلاً:

- إن لحاملِ السيفِ صفةً عليه أن يتصف بها وهي ألا يُقدم نفسه على الآخرين؛ ففوة السيف قد تسحب حامله إلى الظلام إن لم يملك هذه الصفة.

فابتسم سندباد وانشرح صدره وقال:

- "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ"

توجه سندباد إلى الباب وقال وهو مبتسم يمشي الخيلاء ليغيب كيثار:

- يا ليت مروان رأى هذا.. لا داعي للحزن الآن أيها الجدا!

فرأى سندباد وهو يفتح الباب الشيخَ والطفل يتبخران كسرابٍ. فأسقط في يده وعلم أنهما ليسا إلا سراب اصطنعه كيثار ليختبره. حينئذٍ أدرك أنه أمام كائن مهيب يملك من مفاتيح القوة ما لا يملكه إلا قلة من ملوك الأرض.

الإيثار

ألقى سندباد في الغرفة التالية كائناً ضعفت طوله منتصباً أمامه، نحيفاً كان ويرتدي أساورَ من ذهبٍ وعباءةً ذهبية ذات جيبٍ من ريشٍ أبيض، وكان وجهه ناصعُ البياض وشعره أسودَ كالحا يتدلى إلى أسفل ظهره وعيناه تشبهان عيني الثعبان، وكانت أذناه مُدببة وعلى رأسه تاجٌ من ذهبٍ مرصع بالجواهر، تقدم برشاقةٍ تجاه سندباد فامتلاً سندباد خوفاً من هيئته فانتضى سيفه وهو متوتر يقول:

- مَنْ أنت؟!!

- إنه أنا كيثار، لا بد أن هذه أول مرة تراني فيها. لندخل في صلب الموضوع، إنك لا تدرك مدى خطورة ذلك السيف وما سيجلبه على عالمك من خرابٍ، لذلك سأعطيك بدلاً منه كنوزاً كثيرة وسلاحاً فتاكاً وقوة عظيمة كالتى أعطيتها لعلي بابا، ألم يقل لك أن قدرته على الاستبصار هي من عطائي!

- لا، لم ينبني بذلك.

- ذاك النذل ناكر الجميل! .. إن معركته لخاسرة لذلك الأسلم لك أن تتسحب منها؛ فجيش دمشق ضخم وأنتم قليلون، ولئن وقع السيفُ بين أيديهم فالخراب الخراب ولتكونن أنت سبب كل ذلك!

طرق كيثار بإصبعيه فانفتحت أبواباً يميناً ويساراً ملبدةً بالذهب والجواهر والياقوت والمرجان واللؤلؤ، فرأى سندباد سيفاً ذهبياً مُزخرفاً ذا جوهرة

حمراء نفيسة، كان السيف فاتناً لا يُرفض. أطرق سندباد وهو ينظر إلى كل هذه الإغراءات، وبدأ يفكر في عواقب ما قد يحدث إن خرج السيف من مكنه، وتساءل إن كان ثمة طريقاً آخر لينقذ إخوته الشاميين، فقطع حبل أفكاره صوت كيثار يعرضُ عليه إغراءات أخرى:

- ولأعطيك الإذن أن تستدعيني مرةً واحدة وقت الشدة!

خشي سندباد أن يتحقق كلام كيثار فيقع السيف في يد قحطان وأعوانه وحينها ربما يملك أنبياء المينجوراء يدًا كيده فيسيء استخدامه وينشرُ الدمار.

ظل سندباد يفكرُ طويلاً حتى أوشك صبرُ كيثار أن ينفد وأراد أن يزرع هذا الكائن الأقل منه شأنًا ولكن قواعد الاختبار ترغمه أن يتحلى بالصبر، فهذا الاختبار وضعه ملك الجن الأعظم وسيد كيثار ليسترد المغلوبين على أمرهم بعض ما سلبه أولئك الأقوياء أمثال كيثار، وليوقف تسلط شعبه الجشع على الجميع، ولسوء حظ أمراء الطبيعة فإن حاكمهم هذا حين وصل للحكم كان ذا سياسةً مُختلفة فأرغمهم على هذا القانون بل ووضع تعويذة تقتلهم إن حاولوا خرقه أو حاولوا التحكم بأراضي الآخرين وفرض سلطتهم عليها.

حاول كيثار أن يتحايل على هذا القانون بأن وضع عقبات عددًا في الطريق المؤدي إلى مقره، وتعويذة على مغارته تحتاج كلمة سرٍ للدخول ثمَّ ها قد تمكن أحدهم من الولوج إلى مغارته بل ويطالب بأعلى كنوزه. كان دم كيثار يغلي وتمنى لو دق عنق هذا الملك ومزق لفيفة هذا القانون كل ممزق حتى يُحقق مسعاه ومبتغاه وكل ما يرنو إليه. كيف يجلس هو العظيم مختبئًا كالفأر داخل هذه المغارة ريثما البشر وبقية الخلق يسيحون في الأرض ويفسدون فيها ويتمتعون بخيراتها وينهبون رحيقها نهبا.

ظل سندباد في صراعٍ بين أفكاره ورغباته وأهوائه حتى كسر حاجز الصمت وقال:

- كلا، سأستكمل الاختبار.

انقبضت قسّمات وجه كيثار وقال:

- أساذج أنت أم ماذا؟! ألم أبين لك!

- قد يأتي امرؤ غيري فيظفر بالسيف فيفسد العالم وأكون حينئذٍ سبباً في هذا الفساد لأنني تركته ولم أخذه الآن، ثم إنك حتى لو ساعدتنا في معركةٍ هذا لا يعني أننا انتصرنا فالحرب سجال ولن تنتهي من معركة واحدة.

فقال وهو مغتاض:

- أمتأكد من إجابتك هذه؟ ستخسر كل ما قدمت لك!

- نعم متأكد. أخذها وأذر إخوتي في العذاب المهين!؟

وجم كيثار وصفق فانغلقَت أبوابُ الكنوزِ وفُتِح بابُ حجري من ورائه، فقال بهدوءٍ:

- يُمكنك المرور.. لم أرَ أحداً يقاوم كلَّ هذه الكنوز قط. ما سرك يا ابن بغداد!

سار سندباد وهو مرتاح البال، راحةً لن يدركها كيثار أبداً لأنه لم يعيش إلا على السلب والنهب وكنز الكنوز لا العطاء والتضحية. دلف سندباد وكيثار ينظرُ إليه في حسدٍ لكون هذا المخلوق الفاني الضعيف يملكُ نفساً تفوقه عزةً ورحمةً.

الإصرار

دلف سندباد إلى الغرفة التالية يظنُّ أنه سيستلم السيف الأسود فإذا كيثار يضعه في اختبارٍ آخر، ألقى سندباد ثلاثة رجال يحملون ثلاثة سيوف سوداء مُتطابقة وكأنهم صنَّعوا بيدي امرئ واحد، فامتعض سندباد وهز كتفيه قائلاً:

- أئن تكفُّ عن اختباراتك هذه؟! -

فقال كيثار موضعاً:

- هذا آخرُ اختبارٍ كي تحصل على مبتغاك. أحد هذه السيوف حقيقي والباقي مزيف فاختر بامعان وإلا فالفشل مثواك.

ملَّ سندباد من خدع كيثار التي لا تنتهي وضاق صدره، ففكر ملياً فاستبدت به الحيرة من أمر هذا الاختبار فهو لا يحتاج إلى الذكاء أو القوة وإنما إلى الحظ.

كان الرجال الثلاثة راكعين على ركبته اليمنى يبسطون أيديهم إلى الأمام والسيوف تستقرُّ عليها تنتظرُ من سندباد أن يظفر بأحدها، أحسَّ سندبادُ ويكأنه ورقة في مهب الريح؛ فكلَّ ما بذله من جهد وما ضحى به هو ورفاقه سيذهب هباءً من أجل لعبة حظ لا حنكة فيها! نظر إلى السيوف وهو يتصبب عرقاً ويكاد من رطوبة الغرفة يختنق. اعتصر عقله من أجل فكرة وحيدة، فكرة تأتيه من أعماق عقله فتتيرُّ له طريقةً وتخبره بما عليه أن يفعل ولكنها أبت أن تظهر وظلت حبيسة لا تريدُ أن تُسهَّل عليه الاختيار. ضاق ذرعاً من

توتره الذميمة الذي زاد الأمر عسراً، وظل يفكر حتى تذكر أنّ اختبارات كيثار لا تعتمد على الحظ فهو بخيل ولكنّه عادل في اختباراتهِ، فجاءته الفكرة التي كان ينتظرها، اتضحت معالمها وأضاءت له طريقه وأظهرت الخدعة التي كاد يقع فيها. تذكر سندباد لبّ رحلته ولم يدر كيف غفل عن أمرٍ بسيط كهذا؛ فقد كان هو من بين كلّ أصدقائه المؤهل الوحيد لحمل السيف الأسود، فإن السيف لينوء بالعصبة أولى القوة ولكن خدم كيثار يحملونه بلا جهد. ابتسم سندباد وقال عازماً أمره:

- ليس بينهم السيف الحقيقي.

أحسّ كيثار بغصّة في حلقه فأخرج الكلمات من بين أسنانه قائلاً:

- وما أدراك؟ أعدّ التفكير؛ فقد تفقد السيف باختيارك هذا!

ضحك سندباد ضحكة استفزت كلّ ذرة في جسد كيثار قائلاً:

- لأنه لو كان السيف الحقيقي بينهم لما استطاع أحد عبّيدك أن يحمله؛ فليس في المغارة أحدٌ قادر على حمله إلا أنا وأنت.

لم يُرد كيثار أن يُجادله ولكنه تمنى من قلبه ألا يلاحظ هذه الخدعة فيقع في اختيارٍ مُضلل ويفقد السيف ويرجع بخفي حنين. وقف الخدم وتراجعوا وتجلّى من ورائهم بابٌ أحمر مُزخرف، فقال كيثار كأنّه خسر رهاناً كبيراً:

- يُمكنك العبور لقد نجحت.

دلف سندباد إلى الغرفة التالية فإذا رفاقه يتناقشون وعلى ملامحهم الراحة أنّ اجتمعوا مرةً أخرى. نظر نظرة مواربة حذرة إلى الغرفة التي لم تكُ إلا ساحة قتال واسعة مدورة فتعجب من أمرها. أقبل عليهم وقال وهو مطمئن القلب أنّ رأهم بخير:

- كيف جنّتم هنا؟!

قال مروان وهو يصطنع الغرور:

- لقد كانت الاختبارات يسيرة على محنكٍ ماهر مثلي .. ماذا عنك يا وجه النحس؟!

- كانت عسيرة ولكنني تجاوزتها بعون الله.

قال علي بابا وهو يداعبُ لحيته بأصابعه:

- يبدو أنّ صعوبة الاختبار تُحدد حسب قيمة الجائزة، ولأنك رغبت في السيف الأسود فاختبارك كان الأصعب والأشد.

فهم سندباد الأمر فوجه نظره إلى الغرفة قائلاً:

- هل انتهت الاختبارات أم يخبئ لنا كيثار خدعة أخرى من خدعه التي لا تنتهي؟!

قال مُهاب وهو يتثاءب:

- لا أعلم لم يحدث شيئاً منذ دلوفنا، ولكنها تبدو ساحة قتال.

فإذا بابٌ حجريٌّ يفتح ويخرج كيثار منه وهو يمسكُ برمحٍ ذهبي كبير ذي رأسين حادين، ويشير إليهم برمحه يتحدى قائلاً:

- هزيمتي هي مُفتاح عبوركم في هذا الاختبار!

نزلت الكلمات عليهم كالصاعقة؛ فكيثار أحد أقوى المخلوقات وهم ليسوا بِنِدٍ له، فقال كيثار بعد أن استشعر توجسهم:

- لا تقلقوا فلن أستخدم عليكم سحري، لن أستخدم إلا سلاحي هذا وأي سلاحٍ معدني آخر، ولا تخشوها فهذه الأسلحة تفتقر التميز.

فزادهم كلامه أملاً ولكن رهبتهم أسفرت عن سيطرتها، فاستعدوا للقتال فمرر سندباد يده على سيفه، ومرر مُهاب اسفنجة زرقاء على فأسه فأضحى كالجليد، أراد مهاب أن يُجمد أمير الرمال ليسهل عليهم الانقضاض عليه ولكن خشي أن يُفسد سيف سندباد المُشتعل خطته.

انطلق علي بابا إلى كيثار وطفق يضربه ضرباً سريعاً تصدى كيثار له تصدياً يسيراً، فانضم سندباد إلى علي بابا وشاركهم مُهاب بفأسه ولكن كيثار كان خفيفاً يتفادى ضرباتهم دون عناء. رتل مروان ترانيمًا فانبثقت سلاسل حديد من بين يديه يريد أن يُقيد كيثار بها، فأمسك كيثار بالسلاسل وجذبها فانسحب

مروان معها وارتطم بالأرض فاقدًا وعيه. استحوذ كيثار على السلاسل وجعل يحركها في الهواء مصدرًا صلصلةً تلقي بالرعب في القلوب، فقذفها فإذا هي تستقر حول رجلَيَّ سندباد وتسحبه ليهوي على رأسه ويفقد وعيه هو الآخر، فامتلاً مهاب غيظًا فقفز عاليًا ونزل على كيثار بفأسه فناوله كيثار برمحه فأصابه في صدره بجرح غائر، فوقع على الأرض وعظامه تنن والدم يهراق من صدره. ظلَّ علي بابا يناور كيثار ويضرب بسيفه يمينًا وشمالًا ويتفقد بعينه كلَّ حركةٍ لعله ينفذ إلى ثغرةٍ، ولكن هيهات فإذا سرعة كيثار تزيد ضعفين فلم يستطع أن يجاري ضرباته فأثخنه كيثار جراحًا فظل صامدًا حتى آنته ضربة غادرة من تحت سيفه لتستقر في صدره، فسعل دمًا كثيرًا من فمه وسقط على الأرض ينظر إلى أحلامه وهي تتبخر في الهواء وتخفي.

وقف كيثار ينظر إليهم وهو سامدٌ فإذا سندباد يستفيق، فأمسك كيثار بالسلسلة وأخذ يشد الوثاق فأحس سندباد نفسه مسلسل لا يكاد يقدر على الحركة، فنظر حوله فاتسعت عيناه من هول ما رآه وانعقد لسانه عن النطق؛ فرأى رفاقه يلفظون آخر أنفاسهم ودمائهم تملأ المكان، فانهالت الدموع من عينيه وقال وهو مستشاط غضبًا:

- هل السيف عندك أهم من أرواح الناس؟! لأقتلنك شر قتلة!

لف كيثار رمحه في الهواء وقال:

- أتهددني وأنت مؤشك أن تُقتل؟! لكني سأكون كريمًا وأعالج أصدقاءك مقابل أن تتخلى عن السيف الأسود، فانظر ماذا ترى؟!!

فامتلاً سندباد سخطًا لم يشعر بمثله قط، فنفقد أصدقاءه وهم يصارعون الموت ونظر إلى كيثار الذي كان متيقنًا من تفضيل سندباد أصدقائه على السيف لأنه كاد يتخلى عن السيف عدة مرات، ولكن جاءه رد سندباد على عكس ما توقع فقال:

- بل لأحطمن رأسك وأجبرك على مُعالجتهم ثمَّ أظفر بالسيف!

وضع سندباد يده المشتعلة على السلاسل فتوهجت مُصدرةً حرارةً شديدةً أذابت السلسلة فتحرر سندباد ونظر إلى كيثار والشرر يتطاير من عينيه،

وَأَمْسَكَ بِسَيْفِهِ وَانْدَفَعَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ وَيَنْفُثُ النَّيْرَانَ بِالْأُخْرَى فَتَرَا جَع كَيْثَارٌ وَقَفَزَ فِي الْهَوَاءِ قَفْزَةً رَشِيقَةً كَيْ يَتَجَنَّبُ هَذَا الْوَابِلَ مِنَ النَّيْرَانِ. انْتَشَرَتْ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ فِي السَّاحَةِ فَفَصَلَتْ بَيْنَهُمَا فَلَمْ يُعِدْ كَيْثَارٌ يَرَى سَنْدَبَادَ وَلَكِنْ طَوَّلَ كَيْثَارٌ جَعَلَ سَنْدَبَادَ يَبْصُرُهُ، فَكَوَّرَ سَنْدَبَادُ يَدَهُ وَأَنْشَأَ يَخْرُجُ كَرَّةً نَارٍ مَضْغُوطَةً لِيَكُونَ تَأْثِيرُهَا أَقْوَى، فَلَمَّا أَنْ رَضِيَ مِنْهَا دَفَعَهَا عَلَيْهِ فَاصْطَدَمَتْ بِبَطْنِهِ وَدَفَعَتْهُ إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى ارْتَطَمَ بِالْحَائِطِ. وَقَفَ كَيْثَارٌ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى بَطْنِهِ الَّتِي ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُ ضَرْبَةِ سَنْدَبَادٍ فَضَحَكَ مِنْ فَرَطِ الْإِثَارَةِ وَقَالَ:

- وَأَخِيرًا رَأَيْتُ شَخْصًا يَقْوَى عَلَى لَمْسِي!

أَمْسَكَ كَيْثَارٌ بِرَمْحِهِ وَقَالَ وَالْكَبِيرُ يَمْلَأُهُ:

- أَلَمْ أُعْطِكَ فُرْصَةً لَتُنْقِذَ أَصْدِقَاءَكَ فَأَقْلَمْتَهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ! لَتَنْدَمَنَّ أَشَدَّ النَّدَمِ لِأَنَّكَ سَتَلَاقِي نَفْسَ مَصِيرِهِمْ!

حَرَكَ كَيْثَارٌ رَمْحَهُ فِي الْهَوَاءِ لِيَصْدُرَ رِيحًا هَادِرَةً أَطْفَأَتِ النَّيْرَانَ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ سَنْدَبَادٌ وَضْرِبَهُ بِسَيْفِهِ ضَرْبَةً أَفْقِيَّةً حَاوِلَ كَيْثَارٌ أَنْ يَصْدهَا بِرَمْحِهِ فَإِذَا سَنْدَبَادٌ يُوَقِفُ الضَّرْبَةَ فِي الْهَوَاءِ وَيَلْكُمُهُ بِيَدِهِ النَّارِيَّةَ فِي بَطْنِهِ لَتُدْفَعَهُ إِلَى الْوَرَاءِ عِدَّةَ خَطَوَاتٍ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ:

- عَلِيٌّ أَنْ أَتَوَخَى الْحِذْرَ؛ فَهَذِهِ الْيَدُ تَبْلُغُ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَجْعَلُهَا تَسْحَقُ فَيَلًا.

هَبَّ كَيْثَارٌ يَجْرِي إِلَى سَنْدَبَادٍ فَلَمَّا أَنْ دَنَى مِنْهُ سَدَّدَ بِرَمْحِهِ إِلَى الْأَمَامِ ضَرْبَاتٍ سَرِيعَةً مُبَاغِتَةً لَا يَكَادُ طَرَفُ سَنْدَبَادٍ يَرْتَدُّ إِلَيْهِ مِنْ سَرْعَتِهَا، فَصَدَّهُمْ سَنْدَبَادٌ وَاحِدًا تَلُو الْآخِرَ وَلَكِنَّهُ جُرِحَ عِدَّةَ جُرُوحٍ غَائِرَةٍ فِي ذِرَاعِهِ وَرِجْلِهِ، فَأَيُّقِنَنَّ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ حِصَارِ كَيْثَارٍ وَإِلَّا بَاغَتْهُ بِضَرْبَةٍ مِنْ ضَرْبَاتِهِ السَّرِيعَةِ، فَرَكَّزَ عَلَى تَجَاهِ الرَّمْحِ وَأَمْسَكَهُ بِيَدِهِ الْيَسْرَى وَأَوْقَدَهَا فَإِذَا نَصَلَ الرَّمْحُ يَذُوبُ فَسَحَبَ كَيْثَارٌ الرَّمْحَ مِنْ يَدَيْهِ وَقَالَ وَالْإِبْتِسَامَةَ مَرْتَسِمَةً عَلَى وَجْهِهِ:

- حَرَكَةٌ جَيِّدَةٌ، أَهْنَيْتُكَ لِأَنَّكَ ثَانِي شَخْصٌ يَصْمُدُّ أَمَامِي كُلَّ هَذِهِ الْمُدَّةِ.

نَظَرَ سَنْدَبَادٌ إِلَى أَصْدِقَائِهِ فَاطْمَأَنَّ أَنَّهُمْ مَا زَالُوا أَحْيَاءً فَإِذَا هُوَ يَرْفَعُ سَيْفَهُ وَيَقُولُ وَهُوَ مَنْبَسُطٌ:

- إنتهى القتال!

- ماذا قلت؟!

فإذا سلاسلُ تطوقه من الخلف فالتفت فرأى مروان يشد وثاقه وهو واقفٌ والدماء تسيل من رأسه، فنظر أمامه فإذا سندباد ينطلق إليه رافعًا سيفه المُشتعل نارًا ويقفز ليجهز عليه وهو يقول:

- لقد استخففت بنا وهذه نهايتك!

قطع سندباد رأس كيثار فاختنى وكأنه كان سرابًا، فسمعوا صوته يرجُ الغرفة رجًا ويهدر قائلاً بغیظٍ:

- أهنئكم على اجتياز هذا الاختبار، ولأن قتالكم أمتعني سأعالجُ جراحكم!

فجأةً هبطت كرات خضراء مُضيئة من السقف واستقرت فوق أجسادهم، فالتأمت جراحهم وكأنها لم تكن، فوقف علي بابا ومُهَاب على أقدامهما وهما يشعران بالقوة تدفق فيهما من جديد، فقال علي بابا واضعًا يده على رأسه:

- ما الذي حدث؟!

قال سندباد وهو يُمشط شعره بيده ويعدل من وضعية عمامته:

- لقد انتصرنا.

انفتح باب حجري مؤدٍ إلى غرفةٍ أخرى وسمعوا كيثار يقول:

- لا تغتروا بأنفسكم كثيرًا فلم أستخدم إلا عشر قوتي!

فقال سندباد لنفسه مشدوهاً:

- وأنا الذي ظننت أننا فعلنا ما لم يفعله أحد!

قال كيثار:

- والآن أدخلوا لتستلموا جوائزكم!

دلفوا إلى الغرفة وهم لا يصدقون أنهم قد انتهوا من هذا الجحيم. رأوا كل سلاحٍ موضوع على طاولة من حجر، فبدأ كل واحدٍ منهم يتأمل سلاحه

والسعادة تملأه إلا سندباد الذي ألقى طاولته فارغة بل وفيها فجوة غريبة فقال
متعجباً:

- ما هذا! أين السيف الأسود أيها الماكر؟!!

خرج صوت كيثار وهو يلعب آخر أوراقه حتى يُبقي السيف الأسود له:

- كي تحصل على السيف عليك أن تُضحّي بذراعك اليمنى، ستكفيك يدك
النارية كي تحمله ألسْتُ مُحَقَّاقاً؟!!

تذمّر سندباد من كيثار الماكر الذي يسعى ليجعله عاجزاً عن أخذ السيف
ولكنه أيقن أنها هي آخر خطوة ليظفر بالسيف، فعزم ألا يتراجع حتى لو
لزمه أن يضحّي بيمناه.

تحرك سندباد نحو الفجوة وأصحابه من حوله يتعجبون وقد اقتشعروا بدنهم من
هول الموقف، فأمسكه مروان ليوقفه فدفعه بعيداً وهو يشعر أنه لا يتحكم في
نفسه ويكأنه يتحرك من تلقاء نفسه لينفذ ما كُلف به وما قُدِرَ له من لدن عزيز
حكيم. لم يعبأ سندباد بالألم الذي سيعقب قطع ذراعه ولم يعبأ بعسر الحياة
مستقبلاً من دون يمناه، وإنما كان كل ما يعبأ به هو الحصول على السيف
أيّاً كانت الوسيلة.

أدخل سندباد ذراعه اليمنى في الفجوة وتسارعت أنفاسه ودقات قلبه وهو
ينتظر مصيره المحتوم، فإذا هو يمسك بمقبض فلما أن أخرج ذراعه رأى
السيف الأسود في يده، فسمع صوت كيثار يقول وهو منزعج:

- لقد أثبت حقاً أنك تستحق السيف الأسود؛ فلديك الصفات التي تؤهلك لحمل
هذا السيف إذ خيرتك بين البريئين والسيف فاستنكرت وأبيت أن تستكمل
الاختبار؛ وإذ عرضت عليك الذهب أبيت وإن كثيراً من الناس ليقع فريسة
سهلة للمال؛ وإذ عرضت عليك أن أعالج أصدقاءك مقابل تخليك عن السيف
أصررت أن تُنقذهم وتظفر بالسيف لنألا تذهب جهودكم هباءً منثوراً، ثم إنك
أظهرت ذكاءً ونظراً ثاقباً في هذين الاختبارين، وأظهرت قوةً ليست بهينة
لما بارزتك؛ وها كدت تُضحّي بيدك لتحصل على مُبتغاك. لذلك فالسيف

سيكون في مأمنٍ معك واحذر أن يغويك ولا تستهن به أبدًا وإلا تصبح كالذين سبقوك إذ افتتنوا بأنفسهم فأغواهم السيف وهم لا يشعرون.

أحس سندباد بسيلٍ غريب من الطاقة المظلمة تسري داخله، فأدرك ما يقصده كيثار. استل سندباد السيف من غمده وتفرس فيه، كان السيفُ أسودَ طويلًا، رفيع النصل عليه نقوشٌ عجيبة قديمة تبدو كحروفٍ عتيقة منقوشة نقشا على السيف، وعلى مقبضه تلمع جوهرة بيضاء ناصعة، فقال كيثار مُعللاً:

- هذه الجوهرة ستمتص الكره والغضب فيك حتى يسود لونها، حينها سيسطر عليك السيف فتصير عبدًا له تُنفذ ما يريد! فاحذر إني لك من الناصحين.

تعجب سندباد من أن السيف له إرادة تحركه ولكنه زاد تعجبًا إلى تعجبه لما سمع صوتًا يصدر من رأسه يقول بلهجة عميقة تُشبه فحيح الجان:

- مرحبًا يا حاملي الجديد .. لنرَ حَتَّامٌ¹⁴ سنُفلح في حملي!

ظن سندباد أنه يهلوس فإذا الصوت يحدثه تارة أخرى قائلاً:

- لا تخف فأنا الروح التي تسكن هذا السيف، لأكونن كقرينك الذي يغويك إلى الظلمات حتى تهوي فيها كالذين هؤوا من قبلك.

فقال له سندباد من دون أن يحرك شفتيه:

- سوف نرى، والآن اصمت واخضع!

قال كيثار مستكملًا تحذيره:

- إن روح السيف الآن لجزء منك تُحيطُ بكِ عِلْمًا، سيتعلم نقاط ضعفك ويقلبها عليك وسيظل يبث سمومه حتى تخضع له!

فطن سندباد قصده فأدخل سيفه في غمده والقلق يغشاه؛ فقد كان يظن أنه ليس إلا سيفٌ ذا قوة عظيمة ولكن جاء الأمر على نقيض ما توقع، فها هو السيف كائن حي يبلغ من الطغيان ما يُعمي المرء وإن لم يحترس فقد ينتهي به في بحورٍ من الظلمات.

أصلها (حتى ما) ومعناها إلى متى¹⁴

فجأة أضاءت الغرفة بنورٍ يغشى الأبصار فإذا هم في المغارة ومن حولهم اللصوص يهللون لأنهم قد عادوا أحياءً ومعهم جوائزهم، فلما أن نظروا إلى غمد سندباد رأوا السيف فازدادوا فرحًا إلى فرحهم، فابتسم علي بابا وحياهم واحتفل معهم بالنصر، فسمعوا صوت كيثار يقول ببرودٍ أتلج صدورهم:

- ها أنتم أولاء حصلتم على جوائزكم. لئن رأيت أحدكم مرةً أخرى لأعذبه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه وأقدمه طعامًا للوحوش!

قال علي بابا يُطمئن كيثار:

- لا تخف لا نيةً لدينا للعودة مرةً أخرى، ولن نُخبرَ أحدًا عن مكان المغارة!

- والآن غيّبوا عني وجوهكم، فلا أرينكم مرةً أخرى! وأنت يا حامل السيف الأسود لئن فقدته لأقتلنك بنفسي!

فابتلع سندباد ريقه بصعوبة وقال بلهجة ذات دلالة:

- لا تخف فإني عليه لقوي أمين، سأعيده إليك حين ينتهي الصراع!

- أنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر .. وداعًا يا صديقي العزيز!

ظن سندباد أنه يُحدثه فابتسم له وهو حائر فإذا كيثار يحدث السيف وليس سندباد فزمر السيف في غمده وكأنه يودعه هو الآخر، فتنحج سندباد ليداري خجله. خرج الجميع من المغارة فوجدوا العنقاء الذهبية تنتظرهم عند المدخل تقبلٌ نحو علي بابا تشمه وتلعب معه، فطفق علي بابا يداعبها بيده ويقول لها وهو متأسر:

- أعتذر منك يا عزيزتي لن أقدر أن آخذك معي، ولكنني أعدك يومًا ما أنني سوف أعود لِمَّا أملك شيئًا ثمينًا أقايبض به كيثار!

ظهر الحزن على قسمات وجه العنقاء ويكأنها فهمت كلماته ولكنها فقّهت تعبيرات وجهه أكثر من حديثه. كانت العنقاء مُقيدة بحراسة المغارة حتى موتها وما دام كيثار حيًا لن تستطيع أن تصحب علي بابا. امتطوا الخيول وأنشأوا يتحركون والعنقاء تصدرُ أصواتًا حزينة تودع بها صاحبها القديم الذي كان يلوح لها حتى توارى بالضباب، فقال سندباد وهو على خيله:

- ما قصتك مع هذه العنقاء؟!

- إنها قصة منذ زمنٍ. دعك منها الآن فعلينا أن نسرع وإلا أعدموا الشيخ المنصور.

- إنا ونحن معنا السيف ما زلتُ أشك أننا قادرون على هزيمة جيش دمشق، بل أظنُّ أن التفكير في هزيمتهم لهو ضرب من العبث!

- أنا واثقٌ أنا سنجد حلاً!

التدبير

جلس زوارُ قحطان وهم ضُجُر، فقام مُحِب النباتات وأخذ يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو يتأمل في إعجابِ الزخارف الدقيقة على الحائط، ولاحظ ميزوراء مكتبة صغيرة في نهايةِ الغرفة تحتوي بعض الكتب فوقف وتوجه إليها وجعل يتأملها وينظر في الكتب حتى أمسك بكتابٍ وجعل يقلبُ في صفحاته ثمَّ خبأه في عباءته، فلمحه الضخمُ وارتاب منه ولكنه سكت ولم يرد أن يسأله عما يفعل، فزجرهما قائلاً:

- كُفَّا عن إضاعة الوقت في أشياء لا جدوى منها، علينا أن نعثر على السيف!
نظر إلى قحطان الذي بدا مُتبلبلًا وقال بسخِطٍ:
- خبّرنا لِمَا كلَّ هذه المماطلة!؟

فإذا الزوار يرتعدون فهبوا واقفين وتطلعوا إلى الأفق، فدُعِرَ قحطان وظنَّ أنهم سيفعلون شيئاً متهوراً، فإذا ميزوراء يقول:

- السيف الأسود قد تحرر من قبضة كيثار!

علَّق داجوراء الضخم بصوتٍ أجش:

- من ذا الذي قدر أن يسلبه السيف! وكيف استطاع أن يحمله!

نظر زاهوراء إليهم وقال وهو مضطرب واجم:

- لا شك أنه ليس إنساناً ضعيفاً. علينا أن نتحركَ حالاً وإلا فلن نحصل عليه أبداً! لقد خططنا أن ننتزعه نحن من قبضته بعد أن نعلم مكانه، ولحسن الحظ هنالك من يسرّ علينا المهمة.

نظروا إلى قحطان نظرة أدرك مغزاها، فانطلق معهم وطلب من جنديين أن قودا الضيوف إلى البوابة الخلفية، وأعطاهما لفيفة ليسلموها إلى قائد الجيش، فتوجه الجنديان مع الضيوف يتبركان بهم ويقبلان أيديهم.

وقف علي بابا أمام كهفه العظيم وأمر رجاله بجلب سلاحهم السري.

سحب الرجال الحبال ودفَعوا شيئاً ضخماً من داخل أحد الكهوف القريبة وسندباد وصاحبه يشاهدون بلهفة لا تتضب. بعد فترة من سحب الرجال للجسد الخشبي الكبير المُغطى وصلوا إلى منزلقٍ رملي. أمرهم علي بابا أن يكشفوا عنه، ففكوا الحبال وطارت الأغطية وانكشفت سفينة خشبية عظيمة ذات لون رملي وطرف مُدبب مُمتد وأشرعة كبيرة عظيمة. فغر سندباد فاهه وقفز الببغاء يضرب بجناحيه الهواء حماسة. ركض مروان إليها وشرع يتحسسها قائلاً:

- سفينة في قلب الرمال؟ وما نفعها يا علي بابا؟

اقترب علي بابا من السفينة وقال:

- هذه السفينة صممتها بنفسى فأنا نجار ماهر، وقد صممتها لتبحر في الرمال.

تدخل مُهاب قائلاً:

- لكن أنى هذا؟ لا يمكن لأي سفينة أن تسير في الرمال.

- بل يمكن. لقد صممتها تصميمًا خاصًا يعتمدُ على سرعة الرياح وعلى وحوش الصحراء. لقد روضنا بعضها بعد سنين من التعايش معها.

نظر سندباد حوله فرأى عقرب صغير يسير وبعض الصبار والنسور ولم يرى وحشاً فقال:

- أين هم الوحوش إذن؟

أطلق علي بابا صغيراً فاهتزت الرمال وكأنه زلزال عظيم وخرج من داخل الكهوف الكبيرة البعيدة ثلاثة من البكتاش الضخام سود البشرة ففرع الرفاق وكادوا يفرون لولا أن استوقفهم علي بابا قائلاً:

- لا تخشوا شيئاً فهم أصحابنا. لقد جلبهم كيثار إلى هنا حتى يحرسوا له الصحراء لكنهم لم يتوافقوا والعنقاء فنبتهم كيثار إلى الكهوف حتى يخيفوا من يحاول الاقتراب والتلصص. لقد عايشناهم وأطعمناهم فانصاعوا لي طواعية وكفوا أيديهم عناً، ومنذ ذلك الوقت ونحن نطلب عونهم. لقد ساعدوني في بناء هذه السفينة.

ابتلع مروان ريقه وقال بنبرة مرتجفة:

- إنهم حرس بغداد، ولكننا نجهل من أين أتوا، هل كيثار هو من جلبهم إلى عالمنا؟

أطرق علي بابا برأسه مُفكراً ثم قال:

- إنهم جنس طيب مُسالِم لكني سمعتُ أن أبناء السماء قد وجدوا عالمهم واستعبدوهم وصاروا يبيعونهم لمن يشتري، فهم عبيد أقوياء البدن أشداء ويطيعون سيدهم طاعة عمياء. اشترى كيثار بكنوزهِ بعض البكتاش لكنهم صاروا لا نفع لهم بعد أن استطاع كيثار أسر عنقاء الذهب. لكنّه ليس سبب وجودهم في بغداد حسب علمي.

- ومن هم أبناء السماء؟

- لا أعلم، يُقال أنهم أقوى الأجناس وأعظمها وأكثرها كبرياء، ويُقال أنّهم سموا بذلك لأنهم يعيشون في مدنٍ عظيمة تخبئ الألباب فوق السحاب. لكني لا أدري أسحاب أرضنا أم سحاب أرض أخرى. يُقال أيضاً أنّهم أنبل الجن وأجملهم، لكنها أساطير لا أدري صحتها، إلا أنّ الذي رأيناه بعد الهزة العظيمة يجعلنا نصدق الكثير من الأساطير.

لمعت عينا سندباد وأمسك بمروان وضم رأسه بين ذراعيه قائلاً:

- علينا أن نذهب إلى تلك المدينة الطائرة ولو كلفنا ذلك كل ما نملك.

دفعه مروان بعيداً عنه وقال متهكماً:

- ومن قال أننا نملك شيئاً؟ لقد غرقت كل كنوزك مع غرق الكهرمانة أيها الأبله!

فصل مُهاب بينهما قائلاً:

- أؤيد رأيك يا أمير البحار، علينا أن نعثر عليهم ونخوض مغامرة يسطرها التاريخ إلى أرضهم. لكن علينا أن نطرح بقحطان أولاً.

اقترب البكتاش الثلاثة وجلسوا على الرمال فوضع علي بابا يده على رؤوسهم.

نظر أحد البكتاش إلى البيغاء فصاح البيغاء وحلق إلى السماء ودار حول نفسه صارخاً.

قال سندباد:

- إذن علمنا كيف سندفع السفينة عبر الرمال.

أرسل علي بابا رسالة إلى والي حلب يطلب منه المدد والعون وتمنى من الله أن يستجيب لطلبه.

ما هي إلا دقائق حتى ركب الجميع السفينة ودفعها البكتاش من فوق المنزلق الرملي فشقت سبيلها وضربت الرياح أشرعتها ووقف سندباد على مقدمتها والحماس يملأ قلبه وقال:

- نحن قادمون أيها الشيخ الكريم.

الابتغاء

أطلق الأصحاب ومَن معهم من اللصوص البصرَ إلى الأفق والبكتاش يدفعون السفينة من الخلف دفعا. رأوا أخيرا السجن الحجري يتبدى في الأفق ورأوا الجُند يتمركزون وبعضهم يحملُ الأقواس ويقف فوق الأسوار في تأهبٍ وحذر، وعلموا أنَّ نصف ذاك العدد يتوارى بين البيوت والخيام تحينًا لقدومهم. أطرق سندباد وأخذ يحلل الموقف، فطرات على باله فكرةٌ ولكنها بدت صعبة المنال، فنظر إلى مروان فوجده يرتدي القفازين الغريبيين ويقرأ الليفة التي ظفر بها وهو مستبشر يقول:

- إن هذه الليفة ستساعدنا حتمًا فيما نحن مقبلون عليه!

أنبأهم مروان بقدراته الجديدة فأدرك سندباد ما عليه فعله.

فأشار علي بابا للصوص أن ترقبوا إشارة البدء.

اندفعت السفينة تشق الرمال وسندباد على مقدمتها يرفع سيفه ويصيح قائلاً:

- أيها المنصور لقد جننا.

سمع كلٌّ من في الساحة صوته وتأهب الجُند وطفقوا يبحثون عن مصدر الصوت فأبصروا سفينة ضخمة تندفع نحو البوابة اندفاعًا ففرع عن قلوبهم وشرعوا يضربون من عليها بالأسهم. هبطت الأسهم كوابلٍ من الأمطار على السفينة فأصابت بعض اللصوص واخترق بعضها جسد سندباد الذي استمر ثابتًا لا يتزحزح. ضرب الجُند السفينة بالأسهم النارية فاشتعلت النار فيها لكنها استمرت في الاندفاع بسرعة عظيمة حتى اصطدم طرفها المدب

الأمامي بالبوابة فحطمها وفتحها على مصراعيها وقفز سندباد والأسهم لا زالت معلقة في جسده ومن خلفه أصحابه واللصوص يهللون ويرفعون سيوفهم.

لقد منع الخوف والضعف العبيد أن يوقفوا الإعدام ولكنهم كانوا يتدافعون مع جُند دمشق ويدفعونهم دفعا، كذلك علم سندباد أنَّهم سيجعلون المهمة أسهل عليهم. انطلق الجمع وهم يصرخون فعلم الجُند أن قد حان الوقت فبدأوا إطلاق السهام من فوق قلعة السجن ولكنها كانت تعبر من خلالهم فتحيروا من أمرهم وأثير الرعب في قلوبهم؛ خرجت مجموعة أخرى من الجُند من بين البيوت والخيم وانقضت على اللصوص الذين أخذوا يضربونهم بسيوفهم ويوقفون تقدمهم، فتوجه أحد الجُند إلى عزيز الدولة وقال له إذ وصل وهو يلهث:

- مولاي .. لقد وصل علي بابا.

جمع عزيز الدولة بعض جنوده وترك الشيخ الكبير معلقاً على العمود الخشبي، وقبل أن يذهب إلى ساحة القتال ليُمسك بعلي بابا ألقى أحد الجُند يُحبه ويقدم له لفيفةً ومعه أنبياء المينجوراء، فقال عزيز الدولة وهو في عجلة:

- أردت أن أقابلكم خير استقبال أيها الأنبياء الكرام لكنني أكاد أظفر بذلك المارق علي بابا.

قال ذو الصوت الهويد مُحب النباتات:

- ذرهم لنا؛ فإن لديهم ما يخصنا!

نظر قائد الجيش عزيز إليه وقال:

- لا أريدك أن ترهق جسدي على حشرة صغيرة. ذره لي وسأجلب لك رأسه الآن.

أشعل عزيز حماسَ كتيبته البالغة ثلاثة أمثال عدد اللصوص والتف إلى المينجوراء ليودعهم ، فإذا هم قد اختفوا بسرعةٍ تخلب الأبواب؛ فدهش عزيز لذلك وانفعل منطلقاً بفرسه إلى أرض القتال ليظفرَ بفريسته أولاً.

لم يعلم جُند دمشق بعدُ أنّ لمروان قدرة جديدة تؤهله لخلق نسخ رملية منه ومن أصحابه وقد وضعها على السفينة لأنهم لن يتحملوا اصطدام السفينة بالبوابة بينما فروا جميعًا والتفوا حول السجن الحجري ليباغتوه من جهة أخرى.

كان سندباد وعلي بابا ومُهاب يراقبون الموقف من فوق تلٍ رملي بينما يدور اللصوص من الجهتين ليطوقوا السجن الحجري، فقال علي بابا وهو متوجس:
- أرأيتم السرعة التي انطلق بها هؤلاء المثلثون؟! ترى من هؤلاء! أهم الأنبياء؟

قال سندباد وهو مضطرب يشعر ويكأنه ورقةٌ في مهبِّ الريح:

- إنهم ليسوا بشرًا، ذلك مما أخبرني به السيف.

- أويتكلّم هو؟!!

- نعم، ولكن عند الضرورة فقط.

- وإن لم يكونوا بشرًا فماذا يكونون؟!!

- من قبيلة المينجوراء.

تجمّد علي بابا وقال محدجًا سندباد بنظره:

- أتقصد أن أنبياء دمشق مخلوقات حقيقية لا نعلمها؟!!

نظر سندباد إليه وهو متعجب وقال:

- تالله إنني بما يحدث هنا لجاهل! .. أليس هؤلاء يا مروان من حدثك هذا الكائن الغريب عنهم وقال أنه يحجبهم عنّا ويقف حائلًا بيننا وبينهم؟

ابتلع مروان ريقه قائلاً:

- أصبحت. إنه نفس الاسم.. مُهاب ألم يقتل هؤلاء الأوباش قبيلتك كلها.

كان وجه مُهاب يفور ويغلي فقال بنبرةٍ حادة:

- بلى هم. لقد فرغت حين أبصرت التماثيل بداية، لكنني آثرت الصمت حتى أستيقن من حقيقة الأمر.

قال سندباد وهو يلقي بنظره على الساحة:

- دعنا نعاود الحديث لاحقًا؛ فقد تشتت الجُند كما أردنا. علينا أن ننقذَ الشيخ قبل أن يعودوا ويعلموا أنَّها خدعة زيناها لهم.

فإذا علي بابا يُصفر ليعطي إشارة الانطلاق للصوص، فثارت عزائمهم ورفعوا سيوفهم وهبوا يتسلقون الأسوار بالخطاطيف والحبال من الناحية الغربية والشرقية. كان القلقُ قرينهم والتوتر يملأ أوصالهم ولكن ما كان في بالهم إلا هدفٌ واحد وهو إنقاذ ملك دمشق الحقيقي المنصور.

وإذ احتدم قتالٌ لصوص الرمال لجُند دمشق وألقي الرعبُ في قلوبهم من طبيعة اللصوص الرملية، نادى قائدهم عزيز أن اثبتوا إن هو إلا سحر يزرعون به الخوف في قلوبكم، فلملوا شتات أنفسهم وأزمعوا إبادتهم، ولكن سيوفهم كانت تنغرز فيهم فلا يصيبهم منها شيئًا. ولمَّا استحوذ اللصوصُ على أرض القتال يقتلون واحدًا تلو الآخر، حاول أحدهم طعن عزيز الدولة فتراجع هو وجُنده وقال لنفسه بعد أن فطن إلى مكر علي بابا:

- لقد أضلنا بهذا السحر علي بابا كي نبتعدَ عن ساحة الإعدام!

وقبل أن يأمرَ عزيز الجُند أن يعودوا إليها؛ ألقى شيئًا غريبًا استوقفه. علم مروانُ أنَّهم اكتشفوا الخدعة فشرع ينفذ خدعته الأخرى فاقترب مهرولاً إلى

البوابة المحطمة، وصنع نسخاً رملية لعلي بابا وسندباد وأخذ يتحكم فيهما
جاعلاً سندبادَ يرفعُ السيفَ الأسودَ عاليًا وهو ينادي الجُندَ ويستفزهم قائلاً:

- أهذا ما تبتغونه؟!

قالها وركض مبتعدًا مع علي بابا متجهًا إلى الصحراء المسحورة، فأمر عزيز
نصفَ جنودِهِ أنْ يمسكوا به، وأمر النصف الآخر أنْ عودوا إلى ساحةِ
الإعدام، فإذا من بين الجُندِ يخرجُ داجوراء بمطرقته الفضية العظيمة، ويقول
حازمًا:

- ابتعدوا أيها الحثالة، واتركوا هؤلاء لي!

نظر الجُند له بوجلٍ فقال القائد لداجوراء:

- ذرهم لي أيها الكريم وشاهد خادمك المطيع يضرب رؤوس أعدائك ضربًا.

نظر إليه داجوراء نظرة تخللت إلى قلبه وجعلته يرتجف دون حول منه ولا
قوة.

صُعق عزيز ومن معه حين خلع داجوراء ثوبه وقناعه الذهبي ليُظهر شكله
الغريب، كان أسدًا ولكن في جسدٍ بشريٍّ قوي البنية، يُغطيه شعر بُني قاتم
ويمتلك لحيَةً حمراء تبرزُ أنيابه من خلالها. صرخ أحد الجُند وهو مذعور:

- رباه لم أكن أظن يومًا أن هذه هيئتهم!

فُزع مروان مما رآه فإذا امرئٍ متوسطِ الحجم يرتدي قلنسوة سوداء يجري
بجانبه بسرعة هائلة تفوق سرعة البشر بكثير منطلقًا إلى سندباد، فلما أن
وصل إليه طعنه بخنجرٍ في عنقه طعنة تدأدا منها عن فرسه مرارًا حتى وقع،
فقفز عليه ليلكمه لكمة هَشَمَتْ وجهه فإذا هو نسخة رملية، تعجب الغريب
فأدار وجهه إلى مروان الذي كان يقف بعيدًا مُثبِّطًا من شدة الخوف، فانطلق
يجري وراء مروان ولما أن اقترب انقضَّ عليه فإذا هو يمرُّ من بين جسد
مروان، فقال الغريب وهو منزعج:

- سراب!

حينها كان مروانُ يركض ليحذِر اللصوصَ المتجهين إلى الساحة ممّا شهدته، ولكنهم سبقوه مُخرقين الساحة من شرقها وغربها وهم يكبرون ليشيروا إلى علي بابا بالنزول، فأدرك علي بابا أنها إشارة التحرك فنزل هو وسندباد ومُهاب جاعلين أولويتهم إنقاذ الملك منصور. رفع سندبادُ سيفه الأسود الذي بدا متعطشًا للدماء يهتزُّ من فرط الحماس، فمرَّ سندباد يده عليه فلم يشتعل السيف ولكن اشتعلت الحروفُ المنقوشةُ عليه بلونٍ برتقالي وهّاج، واستل مُهاب سيفه الضخم الفضي؛ في حين أخرج علي بابا سيفه والحبل العجيب الذي حصل عليه من كيثار، وقال وهو يشق طريقه إلى الساحة:

- أن أوانُ تجربةِ الأسلحة الجديدة!

أقبل عدة جنودٍ نحوهم فوثبَ سندبادُ بسيفه وطعنَ الأولُ فاشتعلَ جسده كله نيرانًا من أثر الطعنة؛ ولوّح مُهابُ بسيفه الضخم فشقَّ بضربةٍ واحدة رجلين إلى نصفين، وألقى علي بابا حبله على أحد الرجال فإذا هو يلتف حوله كأفعى، فسحبه علي بابا فانسحب معه الجندي واستقر سيف علي بابا في قلبه. فهبُّوا الثلاثة يخرقون الصفوف لا يقف في طريقهم أحد، يريدون أن يصلوا إلى المنصور.

ولمّا أدرك جُند دمشق خطر اللصوص صدفوا عن العبيد واتجهوا إلى اللصوص كي يوقفوهم، فأندس أحد اللصوص بين العبيد وطفق يخبرهم عن قدوم علي بابا ورجاله فألهب حماسة العبيد فهبُّوا في الساحة يضربون الحرس ويسرقون أسلحتهم.

فلما اقترب علي بابا من ساحة الإعدام جعل يقاتل حتى أمعن فيهم بقوةٍ لم يشهده الناس من قبل، فنظر المنصورُ إلى السماء وأجهش بالبكاء وهو يحمّد الله أنّه قد نجى، فلما أن دنا علي بابا منه صرخ قائلاً:

- أبي .. لقد جنّتُ لأنقذك!

نظر المنصور إلى ولده نظرة افتخارٍ، ففغر سندباد فاهه واتعست عيناه وقال مشدوهاً:

- أهذا أبوك؟! ألا تنتهي مفاجأتك أبدًا؟!!

- سندباد! ليس الوقت مُناسبًا للحديثِ عن حياتي!

صرخ أحدُ العبيدِ قائلاً وعيناه مغرورقة بالدمع:

- اصنعوا لعلّي بابا ممراً كي يصلَ إلى المنصور!

فنفرقوا إلى فريقين فانفتح له طريقٌ وهم يتلقون الطعناتِ والضرباتِ ليمرَّ علي بابا سالمًا من بينهم، فجعل يجري مسرعًا حتى وصل إلى أبيه وفك وثاقه. احتضن أباه والدموع تفيضُ من عينيه يقول:

- ألم أعدك يا أبي أنني سوف أنقذك يومًا ما!

جاءهم مروان وعلّى وجهه شحوب يقول:

- علينا أن نهربَ الآن! إن المينجوراء مخلوقات من أرضٍ غير أرضنا ذات قدراتٍ تفوقنا بكثير!

زلزل علي بابا ومن حوله مما جاء به مروان، فإذا القائد عزيز الدولة يخترقُ الساحةَ ومعه مائة جندي ليلتحموا مع اللصوص والعبيد ذوي الأسلحة القليلة.

جعل داجوراء يهدُّ بمطرقته اللصوص المزيفة هذًا، ما يوقفه من ضربه شيء، فلما أن قضى على جميع نسخ اللصوص، رأى ميزوراء فناداه:

- ميزوراء! ألم تمسك بحامل السيف بعد؟!

- كلاً، لقد خدعني ذلك الذي يستعمل السيل المبارك. سأذهب لأتفقدّه لعلّي أجده في ساحة القتال.

وثب ميزوراء وثبةً رشيقة على سطح أحد البيوت وأخذ يتنقل من بيتٍ لآخر تنقلًا يسيرًا، حينها كان زاهوراء مُحب النباتات يطلُّ على الساحة من فوق أحد المباني يبحثُ عن حاملِ السيف الأسود، ولكنه لم يجده وسط هذه المعمة فشك أن يكون موجودًا، فإذا سندباد يظهر ممسكًا بالسيف الأسود ويصرخ في الذين معه يقول بلهجة طليقة:

- تقدموا .. لا تخشوهم!

فابتسم زاهوراء وقال لرديفه ميزوراء الذي جاءه لتوّه:

- ها هو ذا.

فأطلق ميزوراء بصره ولمح سندبادَ وبجانبه مروان، فانطلق إليهما كأسدٍ يعدو في الأحراش وسط المعارك يتفادى السيوفَ والرماحَ ويقفز على دروع الجُند ورؤوس العبيد حتى اقترب، فلمحه سندباد فرفع سيفه يتجهز إليه فقفز ميزوراء إلى الأمام وأمسك بسندبادَ وقفز به عاليًا، فوكزه سندباد بيده المشتعلة فأقلته ميزوراء وسقط على الأرض واصطدم سندبادُ بأحد البيوت وخرج من الناحية الأخرى ليستقر على الأرض وعظامه تنن.

وقف سندباد مستندًا على سيفه مُترقبًا الكرّة الأخرى من هذا المخلوق، فإذا هو يخترقُ أحد البيوت من خلفه وينقض عليه وهو يبرز مخالبه ويزأرُ مكشراً عن أنيابه، فانخفض سندبادُ فمرَّ ميزوراء من فوقه ليصطدم بأحد البيوت الحجرية ولكنه سرعان ما أرتد كالمطاط وهو يُمسك بخنجرين متموجين، فرفع سندبادُ سيفه وصد أحدهما ولكن الآخر خدشه في كتفه، فتألم سندبادُ وأدرك خطر هذا المخلوق الأسطوري؛ حينها كان علي بابا متوجهًا بأبيه إلى أبواب دمشق، وما توجه إلى هناك إلا ليثير البلبلة فيها ولأنه يدرك استحالة العودة إلى الصحراء، فنادى في رجاله وهو يجري:

- أمنوني، ثم انسحبوا جميعًا إلى أبواب دمشق ومنها سنفرُ إلى الصحراء!

وإذ طغت روح القتال على العبيد ويكأنهم يتسابقون على الموت، تقدّم عزيز وجنوده ينكلون بهم تنكيلاً، فإذا العبيد ينهضون يقاتلون بالعصي ويقذفونهم بالحصي وظلوا كذلك حتى تراجع الجميع إلى أبواب دمشق، وتوجه مروان ومعه مُهاب ليذبًا عن سندباد، فإذا جذور أشجارٍ كثيفة تخرج من الأرض كالأفاعي تُمسكهم من أقدامهم وتذهب بهم عاليًا، فإذا أحدُ الغرباء يخلعُ قلنسوته ويبرز هيئته كي يبيت الرعب في قلوبهم، كان هجينًا بين نمرٍ مرقطٍ وإنسان يقول بصوتٍ يشبه مواء القطط:

- أين تذهبان؟!!

قطع مُهاب الجذور التي كانت تقيدته هو ومروان، وأدار وجهه إلى هذا المخلوق وهو مستشاط غضبًا، فقاطعه مروان قائلاً:

- ذرّه لي، واذهب أنت لتتقدّ سندباد!

- أمتأكد أنك ستقدر عليه وحدك؟!

- اطمئن ..

انطلق مُهاب فصاح البيغاء قائلاً:

- كذاب كذاب.

أغلق مروان فم البيغاء قائلاً:

- أعلم أنّي لن أقدر عليه ولكن علينا حماية السيف الأسود . فاخرص وإلا جعلتك وجبة لنسور الصحراء.

17

الزلزلة

وإذ وقف سندباد يُجابه ميزوراء ببسالة؛ دارت في خلدّه أسئلةٌ عن أصل هذا المخلوق ودوافعه التي جعلته يأتي ليحاربهم، فاندفع ميزوراء من ورائه قاطعاً حبل أفكاره، فأوحى السيفُ له أن احم ظهرك، فالتف سندباد ملوحاً بسيفه فمال ميزوراء من تحته وجرح ساقه، فتأوه سندباد وانحنى ينظر إلى جرحه، فإذا ميزوراء يلتف بجسده ويدفع بقدميه حائط أحد البيوت ويرتدُّ مُقبلاً نحوه فقفز سندبادُ يميناً ليتحاشاه وتلفت حوله يتبصر أين ذهب، فإذا عدة خناجر تقذفُ نحوه من بين البيوت والخيام فالتهى سندباد في صدهم حتى باغته ميزوراء من وراء أحد البيوت، فحذره السيفُ ولكن سندباد لم يستطع أن

يُجاريّ سرعته فأحسّ أنها نهايته، فأرعى ميزوراء دفاعه يستشعرُ النصر فإذا شيء يضربه في بطنه ويطيحه بعيداً فترجع ميزوراء فنظر فوجد مهابً يقفُّ وهو ينظر إليه بكرهٍ عميق، فقال ميزوراء ببرودٍ:

- ها قد انضمت إليك فريسة أخرى لتؤخرَ أجلك.

تنفس سندبادُ الصعداءَ وقال لمُهَاب:

- الحمد لله، لقد جننتني حين أردتك، أنا مدين لك.

فلما أن تهيأ الرفيقان أشعل سندباد سيفه، وشحذ مهابُ حسامه بإسفنجةٍ صفراء ليُخرج البرقَ منه؛ بينما توارى ميزوراء وراء أحد البيوت وبدأ يدورُ حولهم أملاً أن يجدَ ثغرةً، فإذا هو يهاجمُ مهاباً من ورائه فحذر السيفُ سندبادَ فركض وهو رافع سيفه لينقذه، فغيّر ميزوراء تجاهه سريعاً إذ رآه وفرَّ وراء أحد البيوت مُختبئاً يستعدُّ لكرته الأخرى، فقال سندباد لمهَاب مازحاً ليهدئ من حدة توترهم:

- الآن لستُ مديناً لك بشيء!

تبسم مُهَاب وأمعن نظره محاولاً إدراك هدفه فتهياً له ميزوراء ليُهاجمه من أمامه، فقال مُهَاب وهو يلوح بسيفه أفقيّاً:

- أبلغ بك الغرورُ أن تهاجمني من قدامي؟!!

فلما أن حاولَ سندبادُ تحذيره اندفع ميزوراء ويكأنه يطيرُ من سرعته والتف مولياً ظهره إلى الأرض، ليعبرَ من تحت سيفِ مُهَاب ويجرحه بخنجره في ساقه جرحاً ليس بالعميق، فسال منها الدم فقال سندبادُ يحذره:

- لا تجعل هجومك مكشوفاً، فهو يستطيع تفاديه بسهولة!

- إذاً فضع ظهرَكَ في ظهري لئلا تكون ظهورنا ثغرات يستغلها ضدنا!

فظاهره سندبادُ وبدأ يدوران ببطءٍ يمسان المنطقة بأعينهما، فإذا خناجر تُقذفُ نحو سندبادَ فأزاحها بسيفه فالتفت ينظر إليه مُهَابُ فانفتحت ثغرة، فالتفت ميزوراء من حولهما مُسرِعاً وطفق يقفُّ فوق البيوت برشاقةٍ حتى انقض واثباً على مُهَاب، فلاحظه سندبادُ وأطلق من يده نيراناً لا قبل لميزوراء

بها، فأخرج حبلاً من جعبته وألقاه على بيتٍ ليصدف عن النيران فانحرفت
يمينه وهو ينسحب، فزار زئيراً يصم الأذان وتوارى وراء أحد البيوت، فتنهّد
سندبادُ وقال يستهجن:

- لا تنظر إليّ إلا إذا قلت لك وإلا فسيفضي عليك!

أوماً مُهاب برأسه، ثمّ لاحظاً أنّه ظلّ وقتاً طويلاً مختبئاً، فأيقنا أنّه يُخطط
لشيءٍ ما، فإذا هو يندفع نحو سندباد اندفاعاً عنيفاً فقال السيفُ محذراً:

- ثمة واحدٌ آخر.

فأطلق على ميزوراء وابلأ من النيران وهو لا يفهم ما يقصده السيف، فوجد
مهاباً يُمسك به من ذراعِهِ ويقذفه بعيداً ويرفع سيفه ليصد مطرقة داجوراء
الضخم الذي انقض عليه من فوق أحد البيوت، ولكن رجلاً مهاب لم تتحملاه
فسقط على ركبتيه من ثقل المطرقة، ظلّ يقاوم المطرقة وحاملها الذي يضغط
بها على جسده ضغطاً شديداً، ففهم ما عناه السيف فانطلق سندبادُ مُسرّعاً كي
يُنجِد مهاباً فإذا السيف يقول:

- سلّم روحك لي أقض لك عليهما، ستخسر حياتك وحياة أصدقائك إن
استمررت على هذا الحال؛ إنكما لا تستطيعان مجاراتهما.

رد عليه سندباد مستنكراً:

- اصمت أيها البائس ودعني أركز!

قال السيف بنبرة خبيثةٍ كفحيح الأفعى:

- لتسلمنّها عاجلاً أم آجلاً!

سمع سندبادُ صوتَ تحطم أخشاب بيتٍ فإذا ميزوراء يخرج من بين الأنقاض
ليُمسك به، فقفز للوراء بحركةٍ بهلوانيةٍ فمرّ ميزوراء من أمامه ليصطدم بأحد
البيوت. كذلك أدرك سندبادُ أن إنقاذ مهاب سيكون مستحيلاً، لذا عليه أن يفكر
في خطةٍ ما ليهرب من مأزقه هذا. أخذ داجوراء يضغط على مهاب بكل
قوته كي يسحقه، ولكنه أبى أن يستسلم، فقال داجوراء مُتعباً من مقاومته:

- إن هذه لهي أول مرة يصمدُ فيها بشري كل هذه المدة أمام مطرقتي، من تكون أنت أيها المهين وما شأنك؟!

فإذا مهاب يقف ببطءٍ وهو يقاومُ داجوراء الذي حارَ من قوته، ثم طفق يقاومه حتى استطاع أن يدفعه بعيدًا. تنفّس الصعداء وأسند سيفه على كتفه وقال ببغضٍ عميق:

- قد لا تعرفني، ولكنني أعرّفكم جيدًا وقد أقسمتُ لأقتلنكم أجمعين!

انتصبت أذان داجوراء وقال:

- يبدو أن لك تاريخًا معنا ولكني لم أرك من قبل .. ولكن خبّرني .. أهكذا علّمت كيف تُكَلِّمُ أنبياء رب النور؟!

ضحك مُهَابٌ ضحكةً استفزت داجورا وقال مستنكرًا:

- أنبياء تقول! أوكلُ مَنْ كان ذا قوّةٍ ظنَّ أنه قد ملكَ العالم وصار خليفة الله على الأرض! .. فلنرَ إذاً كيف ستتغلب عليّ أنا البشري الضعيف أيها النبي!

فار داجوراء من داخله كالبركان الثائر، فرفع مطرقتَه وزار حتى أسمع القاصي والداني وانطلق ليسحقَه فتفادها مهاب ووجه سيفه إلى قلبه، فصدّها وتراجعَ إلى الخلفِ ونزلَ بمطرقتِه عليه نزلةً أخرى فحرّفها مهاب بسيفه إلى اليمين لتستقرَّ على الأرض، كذلك ظلَّ يتبادلان الضربات ليثبتتا من فيهما الأقوى.

وإذ ظلَّ ميزوراء يُهاجمُ سندبادَ من كلّ جانبٍ وسندبادُ ما يكاد يتفادى ضرباته، وفجأة خرج ميزوراء من ورائه مُندفعًا نحوه بسرعةٍ عظيمة، فالتفَّ سندبادُ ووكزه بيده النارية في وجهه، فصدّها ميزورا بخنجرية فخرقتهما قبضةُ سندبادَ من قوتّها وانحرفت لتصل إلى بطنه وتطيره إلى الخلف ليرتطم بأحد البيوت ويُحطمها ويستقر على الأرض متوجعًا من أثر الضربة، ولئن قدّر ميزورا قوّة يد سندباد حق قدرها لما تساهل في دفاعه.

قفز سندباد فرحًا وقال:

- هذه واحدة.

أدرك ميزوراء أَلَّنْ ينفَعَه أسلوبُ الخداع؛ ذلك لأنَّ سندبادَ كان قادرًا أن يُحدد مكانه بفضل السيف الأسود، فبرَّز مخالبه وزئير زئيرا هز طبقات الهواء فلما أن تهيأ ليهجم على سندباد، أحسَّ أَلْمًا قاتلاً في جنبه فقعد على الأرض وقال لنفسه:

- سحقاً! هذا ليس وقتك.

سمع دبيب حوافر خيول كثيرة ذات رائحة غريبة آتية، فتحامل على نفسه وتسلق أحد البيوت وشرع ينظر إلى الأفق بعينيه فصدُم مما رأى فزار زئيراً عاليًا كي يسمعه من معه وانفتل من ساحة القتال واختبأ في أحد البيوت البعيدة حتى يهدأ ألمه، فسمع سندبادُ صوته فإذا جني السيف يخبره أنَّه قد ابتعد.

وإذ احتفى القتال بين داجوراء ومُهاب إذ تهشمت البيوت حولهما ومارت الأرض من تحتها، سمع داجوراء زئير ميزوراء، فقال بحنقٍ وهو يتراجع:

- لقد أُخرَّ أجلك أيُّها العبد الأبق!

- ماذا تقصد؟!

هَبَّ يركض مبتعدًا على يديه ورجليه، فجعل مهاب يجري خلفه وهو يصرخ قائلاً:

- أين أنت ذاهب؟! لات حين فرار أيُّها الجبان!

لم يدركه مهاب فوقف وهو يشعر بالضيقة، فلمح سندبادُ يُنادي عليه وهو يركض نحوه، فغيَّر من ملامحه لئلا يراه على حالته هذه.

وإذ رفع زاهوراء يديه لتخرج جذور نباتات من الأرض وتنطلق إلى مروان كثعابين محلقة، هَبَّ مروان يركض نحو البيوت حتى يستطيع مناوراتها وليقعد متخفيًا ليفكر في كَرَّتِهِ المقبلة، ظلت النباتات تندفع نحوه حتى اقتربت منه فصنع جدارًا من الرمال عطل تقدمها قليلاً حتى توارى خلف أحد البيوت. وأنشأ يتهياً فألقى بترائيله ونصب فخاخ حوله، غشي الخوف مروان فتساءل:

- أجا هذا المخلوق من أحدِ العوالم الخفية التي يفتحها السيف الأسود؟!

فأزاح عن نفسه التساؤلات لئلا ترتخي دفاعاته، فمضى زاهوراء يمشي نحو البيوت مشياً بطيئاً يترقب وأذناه الدقيقتان اللتان تشبهان أذني القط تعملان كي تلتقطا أي حركةٍ من مروان، والنباتات تحوم في الأرجاء بحثاً عنه. كذلك أدرك مروان أنه سيُعثر عليه، فهو يختبئ على بُعد ثلاثة بيوتٍ فقط منه فرتل ترتيلة صنعت حفرة كبيرة في الرمالٍ من تحته فهبط إليها وصنع سراياً يوحى للناظرين أنّ الحفرة لا أحدَ فيها. ظل يراقب حتى قال زاهوراء وهو نافذ صبره:

- إن خرجت الآن خاضعاً سأعفُ عنك، فلا وقتَ لدي لمثل هذه الألعاب السخيفة!

لم ينبس مروان ببنت شفة، وكان قد حضر ثلاثة نسخ منه تختبئ فوق البيوت تنتظر إشارة الانطلاق، والبيغاء يراقبُ الموقف من أعلى. ظهرت نسخة من وراء أحد البيوت وهبّت ركضاً مُبتعدةً عن زاهوراء فانطلقت النباتات وراءها بسرعة كبيرة حتى ابتعدت فأصبح زاهوراء دون حماية، فأمر مروان أحد النسخ أن تقفز عليه من فوق بيت، فسمع زاهوراء وقع قدميها قبل أن تقفز عليه فترجع إلى الخلف وأخرج نباتاتٍ أخرى فطوقتها وطفقت ضغطاً عليها كثعبانٍ يخنقُ فريسته فتحولت إلى رمالٍ، فعلم زاهوراء أنه يتلاعب به وأنّ النسخة التي انطلقت بعيداً ليست إلا سراياً، فرجعت النباتات إلى سيدها وجعل زاهوراء يسيّرُ حذرًا فداس على أحد الفخاخ فانفجرت الرمال من تحته لتبتلعه فاندفن فيها ولكن النباتات التفت حول جسده وأنشأت ترفعه من داخل هذه الرمال فإذا نسختان تقفزان من فوق أحد البيوت لتباغته فخرجت نباتات لاحمة عملاقة خضراء ذات أسنان من الأرض والتهمت جسديهما فأضحيا رمالا، فخرج مروان من مخبأه وانطلق يجري نحو زاهوراء يريدُ أن يستغل انشغاله كي يقضي عليه ولكن زاهوراء كان قد خرج من الرمال فرآه وهو يركض إليه فدفع كل نباتاته عليه بعد أن أيقن أنه هو مروان فاخرقت النباتات جسده فإذا هو سرايب، فقال زاهوراء مدهوشاً:

- ألم يكن الحقيقي؟! .. ذاك الماكر.

سمع صوت مروان يأتيه من ورائه يحاول أن ينقض عليه فالتف زاهوراء وهو هلع وتراجع إلى الخلف فانغرز الخنجر في كتفه بدلاً عن قلبه، فصرخ زاهوراء من الألم فخاف مروان ردة فعله، فجعل يصنع موجة من الرمال ويُرسلها على زاهوراء، وركض مسرعاً وراء البيوت لينجو بحياته، حينها أخرج زاهوراء نباتات شوكية كالصبار أخذت تقذف آلاف الأشواك في كل اتجاه ولكن تفادها مروان.

سمع صراخ زاهوراء وراه يتوعده أن سيقنتله، فانقبض قلبه من الخوف خصوصاً بعد أن اقترب من هذا المخلوق كثيراً. وبدأت نباتاته تخرق كل ما حولها ويكأنها قد جُنَّت حتى سمع زئير ميزوراء يحذره أن انسحب الآن، فتجهم وخلع الخنجر من كتفه فإهراق دمًا غزيرًا فقال قولاً بنبرة تُشبه قطة تدافع عن أطفالها:

- لتندمن على فعلتك هذه!

جرى زاهوراء مُبتعداً عن أرض القتال، فتنفس مروان الصعداء وألقى بجسده على الأرض، وجعل يلتقط أنفاسه التي كان يكتمها لئلا يُعلم مكانه، ونظر إلى السماء لا يصدق أنه كاد يقضي على وحش أسطوري بالمكر والتدبير والدهاء.

ظل حرس عزيز الدولة والعبيد يتناطحون ويقتل بعضهم بعضاً في ساحة الإعدام حتى حميت الحرب، فرأى علي بابا أن لا أمل لهم إلا أن يتراجعوا إلى البوابة ثم يلتفوا من حول السجن ويفرون إلى الصحراء القرمزية ولكنّه خشي أن تأتيهم إمدادات العدو منها فيُحاصروا من كلّ حدب وصوب، ولكنّه لن يستطيع أن يتوجه إلى الصحراء مباشرة لأن الأعداء كانوا يضيقون عليهم ويحجبون عنهم طريق الفرار، فطلب علي بابا منهم أن يتراجعوا وأن يفتحوا البوابة الشمالية فتوجهوا وتصارعوا مع الحرس حتى صرعوهم وفتحوها وانهالت عليهم الأسهم من فوق الأسوار فسقط بضعة منهم وتشربت الأرض دماءهم، كذلك بدأوا يتراجعون كي يقللوا من عدد ضحاياهم في هذه الحرب الدامية فلما أن خرجوا من ساحة السجن وأرادوا أن يلتفوا من حول السجن

وقع ما كان علي بابا يخشاه فإذا البوابة تتفتح ويخرج منها جنود عددًا مُعَدِّين إعدادًا.

علم علي بابا أنهم عثروا على مكان السيف الأسود وهذا يعني أنهم سيبدأون أجمعين، فدُعر وجعل يعتصرُ ذهنه يحاول أن يجد مخرجًا، فلم يجد إلا مواجهة العدو حتى وإن ضحوا بجُلهم.

انكفت العبيدُ ليحموا أنفسهم فطوقهم الجُند لئلا يولوا الأدبار، ورفعوا رماحهم ودروهم إلى الأمام لئلا يقدر العبيد على التقدم دون أن تنغرز الرماح في أجسادهم. أدرك علي بابا أنهم أوشكوا أن يوافوا منيتهم، فنظر إلى السماء نظرة أخيرة ودعى ربه أتّي مغلوب فانتصر ورفع سيفه ونادى وهو يصرخ ليثير حماسة رجاله أن تثبتوا ولا تتحنوا، فإمّا النصر وإمّا الشهادة، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين!

بدأوا يضيقون الطوق عليهم حتّى يحسّوهم حسًا، فانهال العبيد عليهم بالحجارة ولكن صدتها مجنّاتهم¹⁵ فلم يتوقف تقدمهم، فوقف ما تبقى من الأربعين لصًا بجانب علي بابا ونظروا إليه نظرة وداع، فقال أحدهم وهو يرفع سيفه في الهواء:

- احموا سلطاننا الحقيقي. واحموا علي بابا ابنه ووريثه الشرعي، الأمل الأخير لنا!

أقبل اللصوص نحو عسكر دمشق وهم يهللون بحماس لا ينضب معينه وقد ذهب بهم الرغبة في الزود عن المنصور كلّ مذهب وبلغت بهم روح القتال كلّ مبلغ، وبدأوا يضربون بسيوفهم الرماح ويقفزون على الجُند يحاولون فتح ثغرة يقدرُ البقية على الهرب منها، ولكن الجُند كانوا يدفعونهم إلى الخلف، فأصابت الرماحُ منهم الكثيرَ ولكنهم استمروا في الاندفاع والدماء تسيلُ منهم، كذلك أدرك الجُند أن ستفتح ثغرة في تشكيلهم إن استمر اللصوص بالتوغل في صفوفهم فحاصروا اللصوص من الجانبين، فسالت دموع علي بابا لما رآه من تضحية رفاقه، فنادى العبيد يحفزهم:

- إنهم يصنعون لنا ثغرةً بأجسادهم، اذهبوا الآن وراءهم وادفعوا بأجسادهم الجُند كي نخرج!

ف فعلوا وهم يضربون الجُند بالسيوف والحجارة، ففتحت ثغرة فابتهجوا ولكن عزيز الدولة وكتيبته أغلقوها وهجموا عليهم منها إذ كانوا ينتظرونهم ليخرجوا، فسدت كتيبته الثغرة سدًا وأنشأوا يدفعون العبيد إلى الخلف مرةً أخرى بالسيوف والرماح والدروع، فتبدد الأمل في الهواء فطلب منهم علي بابا أن يتراجعوا بعد أن رأوا تضحية رفاقهم تذهب هباءً. أخذ الجُند يتقدمون يضربون العبيد برماحهم والعبيد يقاومون يحاولون يائسين أن يجلوهم عنهم، فتراجع العبيد وبدأوا يلتصقون ببعضهم بعضا والعرق يتصبب من أجسادهم صباً ودماءً وهم المندفعة تلتخ وجوه بعضهم بعضا، وكادوا يموتون اختناقاً فبدأوا يتساقطون واحداً تلو الآخر والجُند يدوسون الجثث الساقطة ليستمروا في تقدمهم وينهالوا بالطعن على المجموعة التالية. صرخ العبيد وجعلوا يدعون ربهم ويتشهدون والرماح تخترق أجسادهم أن نجنا اللهم من القوم الظالمين، ثم تعالت صرخاتهم لتشهد عليها الصحراء والسماء، فعظم بلاؤهم واشتد خوفهم وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى بلغت القلوب الحناجر.

فلما كاد علي بابا يفقد وعيه سمع دبيب خيولٍ تضرب بحوافرها الأرض وتهنيد سيوفٍ ودبذبة دفوفٍ، ورأى أعلاماً تلوح في الأفق، فنظر عزيز الدولة يتبصر فإذا هو جيش كبير ينطلق إليهم مسرعاً يحملون علم حلب، يقوده ركن الدين زنكي حفيد نور الدين محمود وابن عم المنصور.

الأخوة

التقط مروان أنفاسه وهو جائمٌ على الأرض ثم لاحظ عصفورًا نازلًا من السماء ناحيته، وقف العصفور على يده وكانت على رقبته رسالةً فأمسك مروان بالرسالة وفتحها وطار العصفور بعيدًا، وجد الرسالةً مختومةً بختم بغداد الملكي، فبدأ يقرأها فوجد فيها الآتي.

- من الذهبي إمام بركة بغداد الملكي إلى ابني الأحق مروان. السلام عليكم.

أيها الغبي ألم أمرك ألا تحشرَ أنفك في شؤون الآخرين وألا تخاطر بنفسك؟! لقد فعلت فعلا شنيعًا وأوقدت نار الفتنة بيني وبين المستقوي ولولا أن أطفنتها بحكمتي لصار اقتتال داخلي بين أئمة البركة والصيادين. لن يوافق المستقوي

أن يرسل إليك المدد ويزج بجيشه في حربٍ لا تُبقي ولا تذر من أجل مارق
مثلك ومثل سندباد ولكني سأحاول معه محاولة أخيرة. أما الآن فأمرك أن
تبتعد عن الشام وتذرها وأهلها ثم امضي على بركة الله إلى سمرقند واقعد
فيها حتى آتيك وإياك أن تفعل شيئاً غيبياً والسلام.

صُدّم مروانٌ من الخبر ولكنه شعر بالأمل لأن أباه قد يساندهم، فتنهد قائلاً:

- وآسفاه. لقد تأخروا كثيراً!

سمع مروانٌ صوتَ سندبادَ يناديه فخرج من مخبأه فإذا سندبادٌ مُتخن جراحًا
ومُهَابٌ يمشي معه، فقال لهما:

- أقتلتموهما؟!

فردَّ سندبادُ قائلاً وقد تورد وجهه:

- لا لقد هربوا منّا ولكني أوسعته ضرباً! أو ضربة واحدة لأصدقك القول.

فتفرس مروان في جراحه وقال بنبرة يشوبها التهكم:

- أشك في ذلك! أمّا أنا فكدت أقتله لولا أنّ الإصابة جاءت في كتفه بدلاً من
قلبه.

نظر سندباد إلى جسده الذي كان يرتجف من الرعب وملابسه الممزقة وقال
يرد له غطرسته:

- أشك في ذلك أيضاً!

أمسك به مروان من تلايبه وقال غاضباً:

- أتشك فيما أقصه عليك أيها البائس الشقي؟!

فبدأ يتشاجران كالصبيان، ففصل مُهَابٌ بينهما وقال يزرهما:

- علينا أن نرجع إلى أرض القتال! لا بد أن الوطيس قد حمي والناس
يحتاجوننا.

تنهد مروان بقنوطٍ قائلاً:

- إنَّ إمدادات بغدادَ قد لا تأتينا.

فنظرا إليه متعجبين وقالوا في نفس واحد:

- ماذا؟!!

- كما أقول. قد جاءتني رسالةٌ من أبي يخبرني فيها أنَّه لن يقدر على القدوم بعد وهو لن يأتي وحده قطعاً رغم قوته الرهيبة.

فنظر سندبادُ نظرةً تقطر حزناً وقال:

- ذلك الخليفة لا يهتمُّ بما يقع خارج بغداد! فأني بيعتُ جيشاً ليساعد أهل الشام؟! ربما يرسلهُ فقط نكايةً بقحطان بعد أن خرج عن طوعه وشق عصا الطاعة.

- لا أدري!

- انتظر لحظةً .. إن لم يأت جيش بغداد فلماذا انسحبت المينجوراء دون السيف؟! هذا يؤكد أن جيشاً عرمرم مُقبل علينا! فمن هم إذن.

فسيطر مروانُ على ببغاهه وحلق به إلى الأفق ونظر إلى الأفق فإذا الجيش قادمٌ من الغرب متوجهاً إلى الشرق حيث يقفون وأدرك أن الدائرة الآن قد تكون لهم إن استغلوا هذا الجيش استغلالاً جيداً، فعاد وأخبرهم بما رآه فقطب سندبادُ جبينه وقال:

- ولكن لمَ لم يتصدَّ لهم جيشُ دمشقَ عند البوابة الغربية؟!!

أجابه مروان:

- قد يكون جيش حلب قد انقسم إلى فريقين: فريقاً يقاتلُ لدى البوابة وفريقاً يأتي ليساعدنا. أو أنَّ جُلَّ جيش دمشق اتجه إلى ساحة القتال ليحصل على السيف ويقمع التمرد، وهذا يعني أن ..

فُزع سندباد واسودت ملامحه ودعا الله ألا يكون ما خطر على باله قد وقع لعلي بابا ومن معه، فهبَّ يركض نحو جيش حلب يقول لصديقيه:

- يجب أن نسرِع وإلا فسيفُضَى على علي بابا ومن معه!

فانطلقوا إلى جيش حلب مُسرعين ليلتقوا به قبل أن يصل إلى ساحة القتال، فلما أن وصلوا توقّف الجيش وتأهب فخرج القائد ركن الدين زنكي وقال بلهجة قاطعة ملحّة:

- من أنتم؟!!

كان رجلا متوسط الحجم له وجه مليح وشعر يميل إلى الشقار، يرتدي عمامة بيضاء وحمراء وفوقها خوذة مدببة وكان جيشه يتدثر باللون الأحمر.

عرفهم سندباد بنفسه وأخبرهم أنه يعرف علي بابا وأنه في خطرٍ عظيم فقال ركن الدين:

- إن علي بابا قد أسعفنا طويلاً وجلب لنا الغذاء والحبوب والكثير مما حرمانا قحطان منه وقطع علينا سُبُلَه، وإني له لشاكر، وأعدك أن أفعل ما بوسعي حتى لا يصيبه مكروه يفجعنا.

أمر رجاله فجلبوا بعض الخيول وركب الأصحاب. أبصر سندباد رجلاً عظيم الجسد يحمل رمحاً كبيراً نصله عريض وله لحية ناعمة طويلة تهبط إلى صدره واسمه حكمت، وآخر يحمل قوساً وكنانة وسيفاً قصيراً ويبدو شاباً في مقتبل العمر لم يبلغ السادسة عشرة واسمه مودود، وعلم سندباد بعد ذلك أنهما إخوة ركن الدين.

ربط سندباد حبل الأحداث وأدرك أن علي بابا من نسل نور الدين محمود قاهر الصليبيين¹⁶.

رفع ركن الدين سيفه وحمس الجُند قائلاً:

16 مما لا يعلمه الكثير من الناس أن نور الدين هو من مهد الطريق لصلاح الدين لفتح القدس ولولا جهود العظيمة لما استطاع صلاح الدين فتح القدس، فقد كان صلاح الدين أحد رجال نور الدين وقد ولاه نور الدين ولاية مصر بعد أن صد هو وعمه أسد الدين شيركوه الصليبيين عن مصر ومكثوا فيها بحاميتهم ليحفظوها، فتقلد صلاح الدين مقاليد الوزارة في مصر ثم استطاع بدهاءه أن يقضي على الدولة الفاطمية في مصر ويحل الدولة الأيوبية محلها بعد أن مات آخر الفاطميين، وقد مات نور الدين قبل أن يرى فتح القدس وأكمل صلاح الدين الطريق حتى نصره الله، بل وتزوج صلاح الدين من زوجة نور الدين "الخاتون" فكانت له نعم الزوجة.

- الموت الموت يا أحفاد نور الدين.

رفع الرجال سيوفهم التي لمعت لمعانًا يغشي الأبصار ووكز ركن الدين
فرسه فانطلق وشق طريقه يضرب الرمال بحوافره ضربًا.

الأمل

وإذ رأى عزيزُ جيشِ حلب أدرك أنه هالكٌ، فهو إن تصدَّ لهم فسينقضُّ عليه العبيدُ من ورائه، وإذا استمر فسيفنيه وجنوده جيشُ حلب الهائل، فأمر الجند أن أتركوا العبيدَ وتجهزوا لنواجه جيشَ حلب، ففوجئ الجنودُ إذ علموا أن ثمة جيشًا مقبلًا عليهم.

وإذ كابد العبيدُ همز النصال ودعوا ربَّهم أن نجنا من الغمِّ، أزيحت الرماحُ والجندُ فإذا هم ينصرفون عنهم ويصطفون متأهبين، فسقط العبيدُ من الإنهاك وشعروا بنسيم الهواء يداعبهم والسحبُ تحجب لهيبَ الشمسِ الحمراء من فوقهم فبكى بعضهم وهو يحمدُ الله أن نجاهم من هذا الجحيم.

كاد علي بابا يموتُ مدفونًا بين العبيد من شدة تراحمهم فإذا هم يفسحون له. حاول أن يفهمَ ما جرى، فترنح إلى المقدمة فإذا جيشُ حلب قادمٌ من بعيد يتقدمهُ سندباد وصاحباؤه، فتبسم قائلاً:

- أعلم أنك ما كنت لتتركنا.

رفع علي بابا صوته وقال يحفز أخوته الذين تفتنتت معنوياتهم:

- جاءتنا الإمدادات! هناك جيشُ قادمٌ ليخلصنا من ظلال العبودية. قفوا معي مرةً أخيرةً لننصرَ أخوتنا الذين عبروا الصحراء وتكبدوا المشاق كي ينجدونا

من هؤلاء الخونة الوثنيين عديمي الرحمة؛ فهم إن خسروا هنا لنهلكنَّ أجمعين. أعلمُ أنّ الإرهاق قد استبد بكم ولكن ما من سبيلٍ لنيل الحرية ونصرة ديننا إلا هذا!

لملم العبيد شتات أنفسهم وارتفعت معنوياتهم بقدم جيش حلب حتى شعروا أن بينهم وبين الحرية قيد أنملة فرفعوا أسلحتهم القليلة وعصيتهم وأحجارهم وتهبأوا ليضربوا جيش دمشق من خلفه. كان جيشُ حلب ما يقرب من الثلاثين ألف رجل، وهو نصف عدد جيش دمشق، وكان العبيد عشرين ألفاً تقلصوا بعد هذه الإبادة الوحشية إلى خمسة عشر ألفاً.

رفع علي بابا سيفه إلى السماء وقال بصوتٍ دوى في كل أنحاء الصحراء:

- وقل جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً.

وإذ شارف جيشُ بغداد على الالتحام، تقدم علي بابا ورفاقه وهم بتكبيراتهم ووقع أقدامهم يهزون الصحراء، فلما أن رآهم جُنْدُ دمشق وهم يباغتونهم من ورائهم، التف بعضهم ورفعوا أسلحتهم يتهياون للتصدي لهم.

فأمَرَ عزيزُ رماته أن تقدموا، فتقدموا ورفعوا أقواسهم وأطلقوا السهام فخرج هزيجاً رهيباً، فنزلت السهام تُمطر جيش حلب فتساقط بعضهم وتعرقلت أحصنتهم ولكن هذا لم يوقف زحف الجيش ورفعوا دروعهم لتقيهم شر الأسهم. استكمل رماة دمشق رشقهم بالسهام وكذلك فعلوا بعلي بابا ومن معه من ورائهم. أشار مروان لسندباد أن أخرج نارك ففعل فحوّلها مروان إلى ثلاثة عنقاوات نارية ذات هجيج أخذت تدور في الهواء وتحرق الأسهم، فأثنى ركن الدين عليه وصاح قائلاً:

- أيها الرماة تقدموا.

خرج الرماة بخيلهم يتقدمهم مودود وصوبوا أسهمهم والخيول تعدو في البيداء وأطلقوا العشرات منها فاخترت رماة دمشق وتقدم ذوي الدروع ليحموا مقدمة الجيش لكن الأسهم طالت بعضهم.

أمر ركن الدين جيشه أن ينقسم فانطلق حكمت بجناح الجيش الأيمن ورفع رمحه يدور به في الهواء قائلاً بصوتٍ جهوري رج الصحراء رجا:

- أفنؤهم عددًا ولا تبقوا منهم أءدا.

التحم جيشه بالءناء الأيسر لجيش دمشق وطفق ضربًا بالسوق والأعناق برمحه يزيءُ كُء من في سبيله يمنة ويسرة، ورمحه يفتك بالأءساد لا يوقفه سيف.

رأى ركن الدين اءتراق ءكمت وتوغله داخل جيش دمشق فتقدم بقلب الجيش وقفز بفرسه من فوق دروع جيش عزيز الدولة ودعسهم بفرسه وأطاحهم بسيفه وانطلق الأصءاب الثلاثة يشقون طريقهم يدفعون الرجال دفعا ويطيحون بأعدادٍ لا ءصى وجيش ركن الدين من خلفهم يشق طريقه شقا.

طفقت العنقاوات النارية ءدور وتءرق كلّ من تمسه ءتى أفزعت الجُءد وشرع سءءباء يضربهم بسيفه فيرءءف السيف في يده لذة وءربًا، وكأنه يتغذى على الدماء. وجعل مروان يتلاعبُ بالءربةِ من أسفلهم ويدفئهم فيها، ويضربُ بسيفه من يعترضه ويجعل من نفسه نُسخًا ليعءعهم، أما مُهاب فقد كان كالثور الهائج يضرب بسيفه الضءم ليسقط بضع رجال من ضربةٍ واحدة.

لما رأى عزيز الدولة هذا اءتقن وجهه واندفع بفرسه يطيح بمن يعترضه مستهدفًا ركن الدولة، فلما أن دنا منه الأءما بالسيف يءربان ويطعانان وقد ءعادت قواهما فأشعل عزيز الدولة قوته وزادت قوة عضلاته وسرعة ضرباته ءتى شعر ركن الدولة أنه هالك إن استمر في قتاله. ءتالت ضربات السيف عليه ءتى انءسر السيف في يده فتبسم عزيز الدولة إذ علم أنه قد ظفر برأسه لكأنه سمع صوت خيل يدوي فنظر خلفه فرأى ءكمت يشق طريقه بين الرجال يطيحُ بهم برمحه ثم لف الرمح في الهواء وقفز بفرسه ءجاه عزيز الدولة قائلاً:

- لأقتلك شر قتلة يا عزيز الدولة.

رفع عزيز الدولة سيفه فالتحم برمء ءكمت وطفق ءكمت يضربه الضربة ءلو الأءرى وعزيز يتابع رمحه بعينيه بدقةٍ ويجاربه فيها ويوجه إليه طعنات جرحته بضع جراح لكن ءكمت كان لا يأبه ولا يتءزءح ويدور بخيله ءول عزيز الدولة ويلف رمحه في الهواء وصياءه يرج ساحة المعركة رجا.

ولمّا كان جيشُ دمشق يطرُّ العبيد بالسهام؛ حَقَزَ علي بابا ساقيه بالقدرة التي أعطاهَا له كيثار، فانطلق إلى الرماة كفهذ هماذي ينقض على فريسته، فحاول الجنودُ أن يوقفوه بسهامهم ولكنه كان يتفادها بسرعةٍ لا قبل لهم بها يمينًا وشمالًا ويضربُ بسيفه، فلما أن اقترب من الرماة تراجعوا وتقدم المشاة، فأخرج حبله العجيب فانطلق كثعبانٍ يصدرُ فحيحًا مزعجًا، فأمسك بساق أحد الجنودِ وأخذ يلوح يمينًا وشمالًا ليسقط به الجنودَ الآخرين. فتشتت مقدمة الجيش فانسل علي بابا من بينهم وبدأ يضربهم بسيفه والحبلُ يلتف من حوله كالإعصار ليعرقل الجنود أو ليصفعهم على وجوههم بقوة فيسقطهم أرضًا. كذلك تشجع العبيد والتحموا بجيش العدو وبدأوا يضربونهم ويسلبونهم أسلحتهم يشعرون أنهم لا يقهرون وكم تتوقوا لهذا الشعور.

وإذ نزل سندبادُ من على حصانه ومرر النيرانُ على سيفه فابتلعها النقوشُ لتتوهج، أحسَّ قوةَ السيفِ تعظمُ كلما قتلَ أكثر، فبدأ وكأنه يتحركُ وحده ويضرب وحده، فانزعج سندبادُ لأنه هو الذي كُلف بحمله، فزاد من قبضته عليه ليكبَح جماحه وليرينّه من هو المسيطر، فخفف السيفُ من تمرده لئلا يصطدم بعنادِ سندباد.

ذهب إليه ثلاثةُ جُندٍ وحاصروه فقال أحدهم:

- إذا هذا هو السيف الأسود الذي عانينا من أجله! .. لنظفّرَن به كي يكافئنا القائد!

تقدّم أحدُ الجنودِ بسيفه فتفاداه سندبادُ ووكزه بيده المشتعلة في بطنه فخرَّ صريعًا من قوةِ الضربة فخاف رفيقاه ولكن طمعهما كان أشد، فلمّا أن أقبلا عليه اتقى سندبادُ لضربة أحدهما بسيفه وأمسك بسيف الآخر بيده النارية وذوّبه براحة يده، فتراجع الجندي وقال وهو مبخوع هلع:

- ما هذه اليد المخيفة! إنه شيطان!

توهجت حرارةُ سيفِ سندبادَ فجعلتُ السيفَ الآخرَ يذوبُ فاخترق جسدُ الجندي. فخرَّ ثالثهما على الأرض من شدة الخوف وهرب مهرولاً، فقال سندباد ساخرًا:

- جبناء، تتسلطون على الضعيف وتهربون حينما تجدون قويا.

وإذ إنكفت جيشُ دمشق ويكأنه ينسحق بين جبلين، أدرك عزيزٌ أن عليه التراجع الآن وإلا أبيد وجيشه، فأمر الجنود أن ينسحبوا إلى البوابة الجنوبية بعد أن قُتل جمع كبير منهم.

فلما أن عاد عزيزٌ بمشاته وخيالته، وجد العبيد يعترضونهم فطفق يضربهم وجنوده فإذا حبلٌ يمرُّ بجانب الجنود ويتفاداهم تفادياً يسيراً ويكأنه كائنٌ حي مُدرك حتى وصل إليه والتف حول جسده وسحبه عاليًا وهبط به بعيدًا عن حراسه وجنوده، فأيقن حُرَّاسُه استحالة إنقاذه ففروا إلى البوابة وتركوه وراءهم بعد أن أشيعَ بينهم خبر مقتله.

سقطَ بوجهه في الرمالِ فسف التراب سفاً ثمَّ وقفَ ينفضُ الترابَ عنه وهو يحاول أن يستوعبَ ما جرى. فالتف العبيدُ حوله فإذا علي بابا يقفُ أمامه وينظر إليه ببغضٍ شديد، فقال بعد إذ استيقن أنه قد حوصرَ:

- لقد مر وقتٌ طويل لم أرك فيه يا علي بابا! ها قد نضج الصبي وأمسى يتحدى أسياده، بل ولديه حمقى يتبعونه! .. تيقن أنك إن قتلتنى ههنا فلن تنتصرَ في هذه الحرب؛ فإننا لدينا المينجوراء وما أدراك ما المينجوراء وما هي حدود قوتهم، ليمثلنَّ بكم تمثيلاً وليتبرنَّ جيوشكم هذه تنبيراً فاخضع واعلم قدرك أيُّها المهين .. ولكني لن أنسى صداقتنا القديمة وسأكون رحيماً وأطلب منهم أن يعفوا عنك إن استسلمت الآن وكففت عن عنادك!

رمى علي بابا إلى عزيز سيفاً، ورفع هو سيفه فالتفَّ العبيد حولهما مشككين من أنفسهم حلبة قتالٍ لا مفرَ منها إلا للمنتصر، فقال علي بابا وهو ينظر إليه في ازدراء:

- صداقتنا قد وُلَّت منذ أمدٍ بعيد، والآن قف ودافع عن نفسك!

الفضول

منذ خمسة عشر سنة في دمشق.

لمَّا جلس الملك المنصورُ علي عرشه الخشبي المزخرف وأمامه سجاد أحمر طويل يمتدُّ إلى الباب حيث يقف حارسان متأهبان، دلف وزيره قحطان مع حارسين يلازمانه دومًا ووقف بين يدي الملك وانحنى قائلاً في احترام وإجلال:

- مولاي، قد جنّتك بأخبار!

اعتدل السلطان في جلسته ونظر إليه بوقارٍ وقال يزره:

- أما زلتَ تعاملني معاملة الملوك والسلاطين وأنت أخي؟! نادني باسمي وكُفّ عن الانحناء كلّمًا جنّنتني!

فاستحى قحطان منه وانتصب قائلاً بابتسامةٍ مُصطنعة:

- عُذراً يا أخي؛ فأنا أعاملك كما كنت أعامل أبانا، كذلك اعتدتُ أن أعامل الملوك والسلاطين!

- لا عليك، سوف تعناد الأمر .. والآن خبّرني بما تحملُ من أخبار.

- لقد حاولت أن أصلح ما أفسده أبي مع بغداد ولكنَّ الخليفة المستنصر بالله لا يريدُ الصلحَ إلا بشروطٍ قاسية ويفضُّ أن تظلَّ بغداد مستقلة، لا مسؤولة عن كلِّ الدول الإسلامية، خصوصاً الدول التي نقضت العهد معه كأبينا.

ضاق صدرُ المنصور وقال بنبرةٍ كئيبة:

- لقد كان أبونا مسرفاً مهملاً لشؤون الرعية. غفر الله له .. ومن ذلك الخليفة "المستنصر بالله" كي يرفضَ طلبنا! رحم الله عصر بغداد الذهبي! والله إن أصبحنا دولاً متفرقة لسهل اجتثاتنا .. ذر "المستنصر" ذلك أمّا أنا فلاجمعنَّ كلَّ البلاد المسلمة تحت راية الشام!

ابتسم قحطان وقال وهو يحني:

- لتفعلنَّ! وكُلنا نثقُ بك!

- أومرةٌ أخرى تنحني! إنَّك لا تتعلمُ أبداً.

- لم أقصدُ .. أعتذر إليك يا أخي!

- دعك من هذا. لدي خطةٌ قد تساعدنا لنحقق مسعانا وهي أن نذهبَ إلى تلك الأرض الجديدة، أرض ما وراء الأفق وما وراء البحر الأسود العظيم .. أو من أن هناك كنوزاً عظيمة تملأ خزينتنا وتساعدنا في تجييش الجيوش وقهر أولئك الصيادين الذين سادوا الأرض وتحكموا بالبلاد ورقاب العباد. لقد ترك والدي الخزينة فارغة سامحه الله إلا من النذر اليسير الذي سوف يخولنا الذهاب إلى تلك الأرض.

سرت قشعريرة متقطعة في جسد قحطان وقال معترضاً:

- ولكن يا أخي لم يعبرُ ذلك البحرَ أحدٌ إلا وقد فُقد!

- وهل تصدق أي خرافة تُلقى إليك! تلك قصصٌ يختلقها الناس خوفاً من المجهول ويقصونها ليشغلوا أوقاتهم، سأبعثك بأكبر قافلة وُجِّهت إلى ذلك البحر بأخر ما تبقى لنا في خزينتنا، وحين تصلُ فعليك إن وجدت قومًا يسكنون تلك الأرض فادعهم إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وإياك أن تجبرهم على شيء! إن أسلموا فحلفاء لنا وحينها نزداد بهم قوة، ثم ابحت

عن الكنوز التي تعج بها تلك الأرض فأعطي أهلها حقهم فيها وأرسل إلينا ببقيتها!

- وماذا إن بَعَّوا علينا ظنًا أننا بجيشنا نريدُ أن نجبرَهم على ديننا أو نريدُ سلبهم أرضهم؟!!

- أتريدني أن أرسلك إلى أقوامٍ مجهولين دون مقاتلين! أفصح لهم عن نيتك، إنك ذاهبٌ لتدعوَ الناسَ وإنَّ قوَّةَ فكرتنا لكفيلةٌ بإقناعهم فإن حاربك ملأهم فهم إذا ضلَّالٌ لا يريدون لشعبهم الهدايةَ ويستعبدونهم وأولئك حقُّ علينا أن نقاتلهم، فإن انتصرنا نولِّ عليهم الصالحَ منهم وإن انتصروا علينا فقد علمنا حدود قوتهم لنرسل لهم بعدها جيشًا أشدَّ.

- وماذا إن كان البحرُ ملعونًا؟!!

- قحطان! كُف عن الخرافات! لا يوجد بحرٌ ملعون. إن أرض الله واسعة.

- ألا تذكرُ البعثةَ التي أرسلها أبو عبد الله المهدي من بغداد وعلى رأسها بن بطوطة الرحالة ذائع الصيت ثمَّ فقدت ولم تعد؟!!

- تلك قصةٌ قديمة، والناس مع مرور الزمن تُحرِّف القصصَ وتدس الأساطير. كفاك حجبًا واستعدُّ للرحلة!

كان قحطان خائفًا من تلك القصص التي سمعها عن البحر الأسود العظيم، ولكنه أثر أن يُصدق أخاه لعل المهمة تحقق مبتغاها ويصبح ذا شأنٍ عظيم بين الناس.

دخل البابَ عليهم علي بابا ابن العشر وهو يركض من ابن عمه عزيز وهما يضحكان، فابتسم المنصور وقال:

- يا لهما من شيطانين .. يحطمان كلَّ ما في طريقهما.

ضحك قحطان والجنود وهم يشاهدون علي بابا يقفز على فخذ أبيه، وعزيز يمسك بعباءة قحطان في براءة، ربت قحطان على رأس ولده وقال وهو باسم:

- ألم أقل لك ألا تتشاغب حين تدخلُ غرفةَ السلطان؟!!

نظرَ الصبي إلى أبيه نظرةً أسفٍ واعتذر؛ لم يكن قحطانُ يعلمُ كيف يهَيئُ ابنه لنبا رحلته تلك، فعزیز كان شديدَ التعلق به. ولما أنَّ أقدَّ السلطان ابنه على رجله وطفق يهمسُ في أذنه الصغيرة فيضحك علي بابا، استأذنه قحطانُ بالانصراف فأذن له، فخرجَ وابنه ثمَّ شرع يُجهز أسطولَ الرحلة.

اكتمل التحضيرُ وعاد الجنْدُ ليودعوا أهليهم، وإذ حضرَ الفجرُ جلس قحطانُ مع ابنه وزوجته، أنبأهما أنَّه مسافرٌ بعد قليل في رحلةٍ طويلة، فحزنا فطلب عزیزٌ من أبيه وهو متأسٍ أن ابقَ معنا ولا تتركنا، فقال قحطانُ لا أستطيع، ففرَّ الصبي من الغرفة يبكي حتى خرج من القصر، فأراد قحطان أن يلحق به فمنعته زوجته قائلةً اتركه حتى يتقبل الأمر، فوجد عزیزٌ علي بابا يداعبُ قطاً صغيراً، فلاحظَ علي بابا حزنَه فاقترب وسأل، فأنبأه عزیزٌ أنَّ أباه مسافرٌ، فربطَ علي قلبه قائلاً لا تحزنْ تلك أمورٌ لا مفرَّ منها، ليعودنَّ كما كان يعودُ أبي من أسفاره إبان حكمِ جدِّنا، والآن تعالَ لأريكَ شيئاً عجيباً، فتوقَّفَ عن البكاءِ وقال وعيناه تلمعُ من أثرِ الدمع:

- وما هو ذلك الشيء؟! -

فانطلق علي بابا يجري ويقول ضاحكاً:

- لن أخبرك حتى ترى بنفسك!

فتبعه عزیز حتى جاوزا حارسي بوابة القصر، فصرخا فيهما وتبعاهما قائلين:

- أيُّها الشقيان لا يجوزُ لكما أن تخرجا من القصر من دون إذن!

أحبَّ الصبيان جوبَ المدينة لذلك كانا نوا حنكةً في تضليل الحراس، وكان الناسُ يلاعبونهما ويهادونهما لحبهم للملك المنصور لما أفرغَ علي دمشق من أمنٍ وغنى من بعد أن أنهكتها الحروبُ مع بغداد وخراسان في عهد أبيه.

وإذ شارفا علي الوصول؛ نادى عزیزٌ محاولاً لحاقه أن تمهلْ فقال علي بابا يستفزه وهو يضحك:

- لن تستطيع أن تلحقني!

فلَمَّا أن بلغا سورَ المدينة، جاوزاه مِن شَرخٍ فيه منطلقين إلى الصحراء ليكتشفا
عجائبَ الخلق، كانا كُلُّما ذهبا تخيلا أنهما يقاتلان وحوشًا كتلك التي سمعا
عنها ثم يعودان من قبلِ أن يشعرا بغيابهما أحدًا، وكُلُّما ذهبا توغلا أكثر من
ذي قبل حتى صادف علي بابا وحده ضبابًا قرمزيًا يلوح بالأفق فأراد أن
يُريَ عزيزًا اكتشافه الثمين!

الإقدام

وإذ وقفَ علي بابا علي إحدى التلال الرملية البعيدة عن أسوارِ دمشقَ، قال مشيرًا إلى الأفق:

- انظرْ هنالك!

فنظر عزيز إلى الأفق وهو يلهثُ بعد إذ صعد التل، فإذا الشمس تشرقُ لتنير ما حولهما، فلما رأى عزيزٌ ما أشار إليه علي بابا قال متوجِّسًا:

- ما ذلك الضبابُ القرمزي؟!!

ابتسم علي بابا وقال بثقةٍ وسذاجةٍ طفولية:

- تلك وجهتنا التالية!

- ماذا تقصد بوجهتنا التالية؟! إننا لا نعلم ما يقبع في ذلك المكان!

- لذلك سنذهبُ، أليس هذا هو الغاية من المغامرة؟! ثمَّ إنني أحضرت في حقيبتي ما يكفيننا من طعامٍ وشراب!

تردد عزيز أيرجع أم يمضي، كان يرفض العودة لئلا يرى أباه وهو يغادر، وطغى فضوله فقرّر المضي.

وإذ اقتربا من وجهتهما، ازداد حماسُهما ونسيمُ الضحى المنعش يداعب وجهيهما، فأخذهما شعورٌ جميل لم يشعرا بمثله قط. وإذ تربعت الشمس في

عرش السماء لتلقي عليهما بحرّها وقيظها، قررا أن يُسرعا لئلا يعودا متأخرين، فمدّا في مشيتهما وعزفت الريح وهي تحك الصحراء فداعبت أذانهما والرمال من شدة حرارتها تُلح قدميهما فطفقا يرفعان أقدامهما كحرسٍ في موكبٍ عظيم، ثمّ هدأت الرياح وصهدتهما الشمس حتى تغشاهما الإنهاك. نظر عزيز إلى علي بابا الذي لم يكن في حالٍ أفضل من حاله فلاحظ شيئاً مُتعلقاً في سرواله، فقال له أثبت، حتى تفقد الشيء فإذا هو عقرب فقال صارخاً:

- إنه عقرب!

فزاع علي بابا والتف حول نفسه وهو يهزُّ جسده قائلاً:

- انزعه عني انزعه عني!

نظر حوله فرأى عزيزاً قد اختفى فنظر أمامه فرآه أطلق ساقيه للريح فصرخ علي بابا فيه بغضبٍ قائلاً:

- عزيز! أيها الجبان أتهرب وتتركني وحدي لأهلك في البيداء!؟

أحسَّ علي بابا عقرباً يقف على ظهره، فسكن وانخفض وأزاحه عنه بيده وركض يلحق بعزيز وهو ينادي:

- عزيز توقف؛ فعلى ظهرك عقرب!

فأنشأ عزيزٌ يصرخ والتف يركض نحو علي بابا بعجلةٍ قائلاً:

- انزعه عني!

فخاف علي بابا فقال له:

- أيها الغبي لا تركض ناحيتي سيلدغني العقرب!

ولّى علي بابا الأدبار وعزيز يتبعه صارخاً:

- علي بابا توقف وانزعه عني. أترجاك يا ابن عمي!

علم علي بابا أنّه قد يصطدم به من فزعه فيلدغ العقرب كليهما فقال له:

- سأنزعه عنك إن ثبتت في مكانك!

تحامل عزيز على نفسه فوق مكانه وهو مغمض عينيه فسمع علي بابا يصرخ ففتح عينيه فإذا علي بابا يركض تطارده عقارب صغيرة فامتلاً عزيز رعباً فجعل يهرول خلفه فسقط العقرب من على ظهره من حركة جسده فقال وعلي بابا يلحقه:

- لعن الله العقارب!

فتح علي بابا عينيه فإذا عزيز يركض إليه وهو ينظر وراءه فرعباً فاصطدما ببعضهما بعضاً وهويا على الرمال الساخنة فاحترق قفا علي بابا واختنق بجسد عزيز فقال والكلام لا يكاد يخرج من فمه:

- عزيز .. أيها الغبي .. سأختنق!

هَبَّ عزيز واقفاً وركض فوجد العقارب الصغيرة تحاصره فتثبط في مكانه، فنظر علي بابا أمامه ليرى الذي كان عزيز يهرب منه فإذا عقرب عملاق مُقبل عليهما، فاتسعت عيناه من الذعر وطفق يركض ناحية عزيز الذي تجمد مكانه، فلما أن اقترب علي بابا منه سحبه من يديه ليتوجها يميناً وهو يقول:

- ما هذا الشيء الضخم؟!

- ألم أقل لك أيها العنيد أن التوغل سيكون سبب هلاكنا!

ظل العقرب الكبير يلاحقهما ولكنهما كانا أسرع منه فمل من مطاردتهما وتوقف هو والعقارب الصغيرة. فلما أن لاحظا توقفه وقفا يلتقطان أنفاسهما ويتنفسان الصعداء وجسداهما يرتجفان من الخوف، فلما ذهب عنهما الروح ضحك علي بابا قائلاً:

- هذه هي روح المغامرة الحقيقية!

صاح فيه عزيز قائلاً وقد خرج عن طوره وذهب به الفرع كلّ مذهب:

- قبحك الله. إنما هي حماقة ستقضي علينا!

- عزيز! كُف عن أنين الأطفال وانزع العقرب الذي يقف على رأسك.

انتفض عزيز وصرخ وهوى فكه السفلي من الخوف فجعل علي بابا يقهقه ويقول:

- ليتك ترى وجهك.

انزعج عزيز وتمنى أن يرد له مكره، استكملا طريقهما والريح يسفي التراب فيصطدم بوجهيهما ويلج في أعينهما، ولكنهما لم يتوقفا وظلاً يمشيان، فلماً بلغا الضباب القرمزي اقتحمه علي بابا بيمينه حتى تواري ففرع عزيز فخرجت يد علي بابا من بين الضباب وسحبته. بدا كل شيء مبهما لهما فقال عزيز في قلق:

- سنتوه هكذا، وقد لا نستطيع الخروج!

فطمأنه علي بابا قائلاً:

- لا تخف، أحضرتُ بكرة خيطٍ لنتبعها ونحن عائدان وبذلك لن نتوه!

وضع علي بابا صخرةً على طرف الخيط وأنشأ يلف البكرة وهما يمشيان شاحدين حواسهما خشية أي طارئ، تمسك عزيز بعلي بابا ليذهب عن نفسه بعض الخوف، وبعد حين تجلت أمامهما عدة كهوف، فلما اقتربا منها وقفا والفضول يحيك في صدريهما يريدان أن يعرفا ما بداخل الكهوف، فسأل علي بابا وهو حائر:

- أندخل؟!!

- لا أعلم، فقد نجدُ ثعالبً .. أو ذئابً .. أو أفاعٍ وعقارب سامةً .. أو قد نجد سبغاً يتربص بنا لنكون غداءه!

فزع علي بابا من قائمة المخلوقات المفترسة هذه، ولكنه أثر التقدم لنلا يعود ويده فارغة، فسحّف من كلام عزيز ليتقبلا الدخول إلى أحد الكهوف فقال ساخرًا:

- جبان كعادتك! سأدخلُ أنا وأتركك ورائي.

تغشاهما الخوف من حفيف هواء الكهوف المخيف، فقال عزيز:

- إن أصابنا شيءٌ فلن يُعثرَ علينا أحد في هذا المكان السحيق!
- لا تكن جباناً! لقد قطعنا مسافةً طويلةً. لندخل قليلاً نستكشف المكان ثم نعود.

وبعد إلحاحٍ شديدٍ من علي بابا قال عزيز وهو متردد:

- لك ما طلبت، ولكن نعود فوراً إن لمحنا شيئاً مخيفاً!

- فليكن إداً. والآن لندخل!

قاد علي بابا السيرَ في الكهف ذي الصواعد المخروطية البارزة كالنبات من أرضيته، والنوازل المخروطية المتدلّية من سقفه، كان علي بابا قابضاً على مشعلهِ وكان الهدوء حالاً في المكان ووقع قطرات الماء على الأرض يزيدهما خوفاً إلى خوفهما، أخذا يتوغلا فلم يجدا شيئاً، ولمّا أن اقتربا من نهاية الكهف حسباه فارغاً، فسمعا أنيخاً(17) عاليًا فامتلا رعباً، ومثّلُ قلوبهما حينها كمثلِ طبولٍ يقرعُها رجلٌ شديد البأس، استمرا في تقدمهما حتى سمعا صراخَ مخلوقٍ صغير، فتثبّطا مكانهما وتبادلا النظرات فهمس عزيز في أذنِ علي بابا قائلاً:

- لنعدُ الآن، يكفيننا ما قطعناه حتى الآن!

- لا تكن جباناً يا عزيز؛ فقد يكون فأراً!

- وقد لا يكون فأراً! ألا تسمعُ صوتَ أنفاسِهِ؟!

- هذا لأن المكانَ فارغٌ، إن هو إلا صدى صوتٍ.

- كلاً، لقد طفح الكيل!

- لنستمرّ قليلاً بعد بالله عليك، وأعدك أنك ستقودُ المغامراتِ من بعد!

لم يُرد أن يعودَ وحده عزيزٌ، فأثر كعادته مسابرة، فعلي بابا لا ينزل عن رأيه أبداً، كانا كلّمّا تقدّما في النفق ارتفع الأنيخ وأفزعهما الصراخُ الصادرُ

(17) صوت يسمع من الجوف معه نَفَسٌ ونَهِيحٌ من ثقل يجده من مرض وألم.

بين الحين والآخر، ثمَّ سقطت نقطة ماء من السقف على قفا عزيز وانسلت حتى وصلت إلى ظهره فقفز عاليًا ممسكا بعلي بابا وهو يصرخُ قائلاً:

- شيءٌ ما يسيرُ على ظهري!

تحسس علي بابا ظهره فوجد بللاً فنظر فوجد ماءً يسقط من إحدى الأعمدة الهابطة من السقف فقال وهو يدفع عزيز عنه:

- أذهلتني يا ابن عمي، لقد أصبحت تخاف الآن من الماء يا ملك الجبناء.

تخرج عزيز وترك علي بابا وأشاح بوجهه قائلاً:

- لقد ظننته تُعبأناً.

استكملا طريقهما حتى لقيا غرفةً أوسعَ من النفق، فهمس عزيز قائلاً:

- لا بُدَّ أن هذا هو قلب الكهف!

- يبدو كذلك!

سارا حتى اصطدم علي بابا بجسمٍ صلب فنظر أمامه فإذا كتلةٌ صخرٍ ضخمة ذات لونٍ أصفرٍ فاقعٍ كالذهب، فسُرَّ علي بابا مما رأى فقال بفخرٍ:

- يبدو أننا وجدنا ذهباً!

فتحركت الصخرة الذهبية فتراجعا من الفرع، فإذا هي مخلوقٌ عجيب، تفرس فيهما إذ أفاق من ثباته فتجمدا كتمثالين عتيقين، فقال علي بابا وشفتهاه ترتجفان:

- إنها عنقاء الذهب! لقد قص علي أبي قصتها! .. ولكنها لم تُرى منذ سنوات.

فارتعد جسدُ عزيز واهتزت فرائصه وانقبض قلبه فقال هامساً:

- علينا أن نهربَ س .. ستا .. ستأكلنا!

نظرت إليهما العنقاء في صمتٍ فاستلقت وكأنهما لا وجودَ لهما، وكانت تحتها عنقاء صغيرة لطيفة الوجه حسنة الصوت تصدرُ أصواتًا غريبة، فأدركا أنها

مصدر الصراخ الذي سمعاه. اقتربت منهما العنقاء الصغيرة فهدا روع أمها فتشجعا أن يبقيا فترة أطول.

ألقى علي بابا إلى العنقاء الصغيرة من حقيبتيه بعض اللحم فالتهمته التهامًا من جوعها فاقتربت منهما وهي حذرة وجلّة، فترجع عزيزٌ ببطءٍ واقترب علي بابا منها وطفق يمرر يده على رأسها فألفته العنقاء وبدأت سعيدة بمغازلته، فقال علي بابا لعزيز:

- أأخذها معنا؟!!

- لن نأخذ هذه العنقاء المخيفة معنا، فقد تأكلنا أو قد تأكلنا أمها إن أخذناها!

- ألا ترى كيف تحبنا؟! .. ثم إن أمها تُحضر كما يتجلى! وأظن أنها ستفضل أن نأخذها معنا لئلا تموت هنا وحدها.

قطع جدالهما صوت العنقاء تتجشأ لتخرج ترابًا ذهبيًا أحال بعض الصخور ذهبًا، فغرا فاههما من الدهشة فقال عزيز مذهولًا:

- إنها تحيل الصخور ذهبًا!

قال علي بابا عازمًا:

- سنصبح أغنياء ولن نذر فقيرًا واحدًا في المدينة بل في العالم كله!

فظنّ عزيزٌ أنّ الأصبوب لهما أن يأخذاها، فطفق علي بابا يسير ناحية المخرج وهو يلقي بقطع خبزٍ إلى العنقاء المريشة بريشٍ من ذهب كي تتبعه وعزيز يسير وراء العنقاء لئلا يترك لها مجالاً للعودة، فنظرت أمها إليهما نظرةً أخيرة تشاهد في صمتٍ مطبقٍ صغيرتها وهي تغادر.

سار الطفلان حتى خرجا من الكهف والعنقاء تتبعهما مسرورة منبسطة الأسارير من كمّ الطعام الذي يُلقى إليها، فتفاجأ إذ وجد أن علي بابا أسقط بكرة الخيط في الكهف من فرعه حين أبصر العنقاء، فحاول أن يبحث بين الظلام ولكنه كان قد اندثر في الرمال، ولم تسعفهما ظلمة الكهف أن يجداه، فبكى عزيزٌ خوفًا من التيه، فطمأنه علي بابا أن لا تخف، قد كنا نسير في خطٍ مستقيم، ولن سرنا على نفس الدرب لخرجنا من الضباب.

استمر سيرُهما والشمس تلحفُ رأسيهما وماؤهما يكاد ينفدُ، وما أصبرهما
على هذا إلا كنزُهما الثمين التي كانت نائمة كقطعة أليفة بين ذراعي علي بابا،
ولما بلغ منهما الإحباط مبلغه، وجدا أنفسهما قد خرجا من الضباب فابتهجا
ولكن سرعان ما تلاشت بهجتهم إذ ألفيا جبلاً غريباً لم يرياه من قبل!

العناد

سدَّ أفقَ علي بابا وعزيز مخلوقٌ نحيفٌ ذو طولٍ مهيب، شديد بياض الوجه شديد سواد الشعر، يلبس تاجًا مجوهرًا يضفي عليه رهبةً وبهاءً، يسيرُ أمامهما حيثُ الجبل الكبير، لم ينتبه بعينيه اللتين تشبهان عيني الثعبان إليهما، فكاد من منظره أن يصرخَ عزيزٌ، فكتم فيَّه علي بابا وسحبه من يده ليختبئًا وراء إحدى النتوءات الرملية، فقال عزيزٌ وهو مفزوع:

- ما هذا المخلوق! أعفريتٌ هو!؟!

- لا أدري، ولكن العفاريت ليست بهذا البهاء والثراء والجمال حسبما أعرف.

فإذا هذا المخلوق يقول وهو واقف أمام المغارة:

- افتح يا سمس.

فانزاحت صخرة وبرز كهفٌ كبيرٌ فشقق الصبيان من الدهشة، فقرر علي بابا أن ينتظرا خروجه ليدخلا إلى المغارة ليكتشفا ما فيها، فرفض عزيز فأخذ علي بابا يغريه قائلاً:

- قد نجد أسرارًا تجعل الناس يفخرون بنا!

فقال عزيزٌ وهو متذمرٌ:

- ألا يكفينا عنقاء الذهب!؟!

فزجره علي بابا قائلاً:

- عزيز! لم تفسد علينا دومًا متعة المغامرات! ليس الهدف من المغامرة هو الهرب إذا قرع ناقوس الخطر!

- أحيانًا يكون الحل هو الهرب؛ فهو ليس جُبْنًا إذا واجهت ما استحال عليك دفعه! ورحم الله امرء عرف قدر نفسه.

- اطمئن فنحن سنتجنبه. إنما سنظفرُ بتذكارٍ يُثبت صدق رؤيتنا لهذا المخلوق العجيب حين نعود إلى قومنا سالمين!

وبعد حينٍ خرج كيثار من المغارة متوجهًا إلى الضباب، فزمجرت العنقاء وكأنها تعرفه فإذا علي بابا يركضُ إلى المغارة ويقول لئلا يترك مجالاً لعزير كي يتردد:

- هيا يا عزيز قد جاءت فرصتنا!

لم يرد أن يبقى عزيزٌ وحده فتبعه وهو كارَةٌ إصراره الدائم، فلما أن بلغا المغارة قال علي بابا بصوتٍ جهوري:

- افتح يا سمس!

انفتحت المغارة فدخلوا وقلبهما مع انغلاق الباب ينبضُ من الخوف، قاد علي بابا عزيزا والعنقاء داخل المغارة المُلبدة بالكنوز، فلمعت عيناها وفغر فاهما من فرط الانبهار لما فيها من أعاجيب.

رأيا غرفةً كبيرة في نهاية المغارة، فيها كثير من الزينة والكنوز البراقة التي لم يرَ أحدٌ مثيلاً لها من قبل، يتكبتها عرشٌ كبيرٌ من الفسيفساء والذهب والجواهر والزخارف، ومن السقف تتدلى ثرية من الياقوت والأحجار الكريمة، فازدادا انبهارًا إلى انبهارهما وطفقا يعبثان في الكنوز ويرتديان التيجان والأساور والقلائد والسلاسل يجربونها على نفسيهما، ويمازحان بعضهما بعضاً وهم يتقلبان في هذا النعيم والثراء.

لفت انتباههما قارورتين إحداهما زرقاء والأخرى حمراء، فأمسك عزيز بالحمراء وناول علي بابا الزرقاء وقال له وهو يشرب:

- حمدًا لله قد وجدنا ماء. أنا عطشان!

فلما أن شربا وارتويا ألقياهما وعادا إلى العبث في الكنوز، وأطلقا بصريهما إلى نهاية الغرفة فوجدا سيفًا أسودَ محلَّقًا في الهواء تنيرُهُ بقعةٌ من الشمس إنسلت من بين شقٍ كبير في السقف، فودًا أن يجربا السيف، فذهبا والعنقاء من خلفهما تقفز بين الكنوز فرحًا كفرخٍ صغير، فلمَّا أن اقتربا من السيف أحسَّا هالةً شريرةً تخرجُ منه، فحاول علي بابا أن يلمسه فإذا شيءٌ يمسك به من يده ويرفعه، فصرخ وهو مفزوع فإذا عينا كيثار تحدجانه وهو غاضبٌ، فأمسك بعزير بيده الأخرى ورفعهما في الهواء وقال وهو هائج:

- كيف وصلتما إلى هنا أيُّها الملعونان!؟

تلعثم علي بابا كأنَّ الكلماتُ قد اختنقت في حلِقِه وعزير يبكي من فرط الخوف، فقال علي بابا وقلبه يكاد يخرج من صدره من شدة الذعر:

- لقد .. تبعناك!

- هل أخذتما شيئًا أيُّها الشقيان!؟ إنِّي لا أحبُّ أن يمَسَّ أحدٌ كنوزي من دون أن يتبع القوانين فيمر باختبارٍ ليثبت أنَّه يستحق الكنز!

- لم نأخذُ شيئًا .. صدقتي، كل ما فعلناه هو أننا شربنا بعضَ الماءِ فقط!

- ماء! أين هو هذا الماء!؟

فأشار علي بابا إلى القارورتين الساكنتين على الأرض، فاتسعت عينا كيثار من الدهشة وقال صارخًا فيهما بصوتٍ حاد كفحيح الأفعى:

- أيُّها الغبيان إنكما لا تدريان ما فعلتما!

قال عزير وهو يبكي وسرواله مُبلل من الخوف:

- سيدي إنا كنا عطشى! لنعوضنَّك ثمن ذلك الماء! إن أباه سلطان الشام ومعه الذهب الذي تريد لكن خلي سبيلنا أكرمك الله.

نظر إليه كيثار بازدراء وقال بحدة أكثر:

- أيها الشقيان ذلك لم يكن ماءً! .. إنه شرابٌ صنع من السيل المبارك يُعطي من يشربه قوةً تفوق أقرانه وقد كان من أغلى كنوزي! فأنى إذا ستعوضانني عنه؟!!

وقبل أن يجيبا خرجت من بين الذهب منطلقة نحو كيثار تصيح بغضبٍ فعضته في قدمه اليمنى فنظر كيثار أسفله نظرة فرح فأنزل عزيزا وأمسك بالعنقاء من جناحيها لئلا تفلت، وقال وهو يبتسم ابتساماً خبيثة:

- إنها عنقاء الذهب، ثم إنها صغيرة! أتى لكما هذا؟! لقد كنت أبحثُ عنها منذ زمن طويل!

قال علي بابا وهو يتأوه تكاد يده تنخلع في قبضته:

- وجدناها في أحد الكهوف بجوار أمها التي كانت تُحتضر.

- إذاً لقد ماتت تلك اللعينة! أردتُ ترويضها ولكنّها بطريقةٍ ما خرجتُ عن سيطرتي وحاولتُ التهامي فلما أن ضربتها ضربةً قويةً هربتُ ومنذ ذلك الحين وأنا أبحثُ عنها. ليكونن ترويض هذه الصغيرة أيسر. يبدو أنه يوم حظكما. لأخذن هذه العنقاء وأترككما أحياء بشرط ألا ترجعا أبداً وإلا قلعن عيونكما!

أنزل كيثار علي بابا، فاعترض علي بابا قائلاً:

- إنها صاحبتنا ورفيقة دربنا، ثمّ إنني أنا من وجدها ولن أتخلى عنها!

نظر له كيثار في مكرٍ وقال:

- لديك حرية الاختيار .. إن أردت الاحتفاظ بها فإنك إذا ميتٌ، وإن أردت أن تخرج راضياً بقوة القارورة فافعل ولا ترجع أبداً!

صرخ عزيز في علي بابا والدموع تترقرق في عينيه قائلاً:

- علي بابا دعنا نخرج من هنا أرجوك! واترك هذه العنقاء له يطعمها ويعتني بها.

- كيف نتركها وهو قاتل أمها؟!!

- فحُذِّها إِذًا، خذها لتصبحِ أثرًا بعد عينٍ! والله لولا عنادك هذا لكنا عائدين بها إلى دمشق ولكن ها نحن أولاء نعودُ بخفي حنين!

كاد علي بابا ينفجرُ غيظًا وهو ينظرُ إلى العنقاء في يد كيثار، فعلم أن لا خيارَ فقال للعنقاء في حزنٍ وكآبة:

- لأعودنَّ إليك يومًا ما يا صاحبتِي!

ابتسم كيثار بتهكمٍ وازدراء وقال:

- وإن عدتَ ترجعُ إلى قومك دون عينين!

- ألم تقل أن ثمة اختبارٍ يقامُ مقابل أحدِ كنوزك؟

- بلى.

- أفإن عدتُ لخوضه ترجع لي العنقاء؟!

- كلا لأنها بدلٌ بالقارورة .. والآن اذهبِ فهي لم تعدْ لك!

فنظر علي بابا إلى العنقاء التي كانت ترمقه بنظراتِ خوف وترجي وهو متأسٍ، وأدرك أن عزيزًا كان على حقٍ وأن العناد والتهور قد يوديان بالإنسان إلى المهالك. ولما قادهما كيثار خارج الضباب وضع حراسةً مُشددةً عليه عن ذي قبل، ولما عاد الطفلان إلى دمشق، سأل عزيزٌ عن أبيه فقالوا له أنه قد سافر، فأصبح فؤاده فارغًا وأنشأ يقضي الأيام وحده في غرفته يبكي متحاشيًا الحديث مع علي بابا فأخذتُ صداقتهما تضعفُ حتى أصبحا غريبين، فعزیزٌ كان يرغب أن يُعطي المنصور العنقاء مُقابل أن يبقى أبوه فلا يسافر في تلك الرحلة التي جلبت عليهم كلَّ البلاء، وبفضلِ عناد علي بابا واندفاعه الذي لا يتوقف تعدر عليه أن ينفذَ خطته التي كانت لتجعل حالهم غير الحال، ولكانت الشام لتصبح أغنى بلاد العالم وأثراها.

الفرع

مخّر أسطول قحطان عُبابَ البحر وهزت الرياح أشرعة السفن لتدفعها دفعًا نحو هدفها المنشود، وتلاطمت الأمواج في مقدمة السفن مع لحن الرنن والغططة.

ومرت أيامٌ كان الراكبون فيها يتسامرون ليلاً فيحكون القصص ويناقشون أمورَ الحياة والدين، وفي النهار يجتهدون ليصلوا إلى البحر الأسود العظيم. وجاء يومٌ اضطرب فيه البحر وارتفع صوت هيجانه، فظنوا أن عاصفةً ستحلُّ عليهم فتميد بهم فلا يجدون لها دافعًا، فوقع ما كانوا يخشونه فهطلت الأمطار وارتجت السماء بدوي الرعد وألسنة البرق " وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۖ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ " وبعد عُسرٍ ومقاومة استطاعوا الخروج منها من غير سوءٍ فحمدوا الله كثيرًا أن أنجاهم من أهوال البحر. استكملوا طريقهم وكلما مرّوا على جزيرةٍ من الجزر ارتجف أهلها من عظمة أسطولهم ظنًا منهم أنهم سيُعزّون، ولكن كان الأسطول يمرّ بسلامٍ فيتنفس الناس الصعداء ويستكملون أشغالهم، ومرت أيامٌ وليالٍ فإذا الذي خرجوا إليه يلوح في الأفق، بدا مربعًا لهم فماؤه كان أسودَ قاتمًا ويكأنه هاوية سوداء ليس لها من قرار، فتوجّسَ الجنود وترددوا أنستكمل أم نرجع فأصر قحطان وهو في شكٍ أن يتقدموا.

ولمَّا دخلت السفينة مياه البحر الراكدة ظنَّوا ألا مخلوق يعيشُ عليها وكأنَّ مياهه هُجِّرَتْ منذ آلاف السنين. كان الموج هادئًا وصوتُ ارتطام السفن بالماء مسموعًا واضحًا وهمسٌ واحدٌهم يسمعه كلٌّ من حوله على السفينة. شرعوا يجدفون تجديدًا كي يكتشفوا ما جاءوا من أجله، ولولا الرياح للبتوا فيه زمنًا طويلًا. ظلتُ السفنُ عالقةً في هذا الظلام المخيف بضعة أيام حتى أفلت أشعة الشمس، مثلهم حينها كالذي حوصر في قفصٍ أسود كبير لا فرجة فيه ينفذ منها نور، فخافوا ألا يعودوا فإذا الذين فقدوا الأمل يقولون:

- إمَّا أن البحر لا نهاية له، وإمَّا أننا ندور في حلقةٍ مفرغة.

وفى إحدى الليالي المعتمة سمعوا صوتًا يهمس في آذانهم أجمعين يقول:

- من أذن لكم بالدخول؟!

فُزع الحراس فتساءلوا فيما بينهم فإذا هم كلهم يسمعون، فعاد الصوت أكثر غلظةً وحدَّةً فاهتز كيانهم فظنوه عفرينًا، فلمَّا رأى قحطان التردد في عيونهم قال بصوتٍ لا يكاد يسمع:

- إنما جننا في بعثة سلام لسكان ما وراء البحر الأسود العظيم.

- وهل أذنتُ لكم بالدخول؟ إنَّ عقوبةً من يدخل بحري أن يتوه حتى يُجن من الظلام فيمسي من جنودي المُخلصين.

نزلت كلماته عليهم نزلًا وبيلا وأصابهم الهلع من مصيرهم المحتوم، فأوجس قحطان في نفسه خيفة فقال بقوة مصطنعة:

- ومن أنت يا هذا؟!

- أنا أمير الظلام وأنتم تتعدون على مملكتي.

أدرك قحطان أنَّه من أمراء الطبيعة وأسيادها فأيقن المصيبة التي وقعوا فيها، فقال متلعثمًا:

- وماذا تريد كي نعبر يا أمير الظلام .. سنعطيك ما تريد إن كان هذا مُمكنًا!

- إذا لا مناص إلا أن أطلب ما أشاء إن كنتم ترجون رحمتي. ما أريد إلا خمسين ميلاً في البحر أضمهم إلى مملكتي.

اعترض البعض يظنون أنه يريد أن ينشر الظلام في العالم، ولكن قحطان أقنعهم أن خمسين ميلاً لا تساوي شيئاً في بحرٍ شاسع فهو إذا أخذها لن تتوسع مملكته إلا قليلاً، وحذرهم أنهم إن رفضوا هذا العرض فستكل بعثتهم بالفشل وسيجن جنونهم، فوافق الجنود على مضضٍ فقال قحطان والشكوك تساوره:

- ولم لا تأخذ البحر كله عنوة يا سيد الظلام، لماذا تحتاج إلى إذن البشر الضعفاء؟!

- إن قوانين ملك الطبيعة كتبت عليّ ألا أعتصب أرضاً لا حق لي فيها، من أجل ذلك عليكم أن تعطوني إياها بملء إرادتكم.

فأعطوه فاتسعت مملكة الظلام قليلاً فاستطاعت البعثة النجاة. وبعد يومين رأوا أشعة الشمس تضرب الظلام وتتبدى من مكانٍ قريب، فسُرَّ البحارة وتجدد الأمل فيهم حتى استطاعوا الخروج من البحر العظيم، فإذا العالم من حولهم يختلف عمّا ألفوه، فقرمزية كانت السماء، وذهبيًا لامعًا كان البحر، وحمراء كانت الشمس، فوقف الناس مدهوشين، وإذا أسماك غريبة تتراقص من حولهم في البحر المذهَّب كانت ويكأنها ذوات وجوه نمور وأسود وثلالب، منها أنواع كبيرة الحجم تقفز من الماء محلقة بزعانها الطويلة لتلتقط أحد الطيور العابرة، طيورٌ أشكال وأنواع فمنها ما هو ذات منقارين وما هو ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع، ثمَّ إذا عنقاء ذهبية ضخمة تخلق في كبد السماء، فانبهر الناس من عظم ما رأوه.

ظلَّ قحطان ينظر إلى هذا العالم البديع ومخلوقاته الجميلة، فتذكر رحلة بن فضلان الذي زار هذه البقعة من قبل ثم حكى عما رآه لما عاد فظنه الناس مهرطقاً.

قال قبطان السفينة لقحطان وهو مشدوه:

- ماذا حدث للشمس والسماء والماء والمخلوقات، أهذا عالمنا؟!

أطرق قحطان ينظر إلى السماء نظرة عميقة وقال بنبرة غامضة:

- لا أعلم، إنه ويكأننا انتقلنا إلى رضى أخرى. إنا لن نعلم سر هذا المكان حتى نلتقي سكانه. ذكرني هذا بأية: يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسموات.

سكت الربان واستطرد يتأمل في عجائب ما يراه. وبعد مسيرٍ طويل وجدوا جزيرة بعيدة يغطيها شجر أبيض ويكأنها وردة بيضاء تعوم على الماء، فلمّا أن وصلوا أعطى قحطان أوامره للسفن أن تاهبوا وانتظروا إشارتي وهبط معه عشرون جنديًا إلى الجزيرة كي يستكشفها، فساروا والشاطئ حتى تجاوزوا باب غابة بيضاء، فدلّفوا فرأوا قرودًا بيضاء تقفز من بين الأشجار، وغزلانًا سوداء وسناجب حمراء ذات أجنحة عريضة وفرشات عملاقة مختلفة ألوانها تُزين بأجنتها البديعة السماء وهي تُحلق في أسرابٍ وضفادع زرقاء نوات أربع عيون تنفق وخنفس مضيئة تُزين الأشجار وكأنها مصابيح وطيور مُختلفة ألوانها وأحجامها وأشكالها، وأغصان الأشجار مُلتفة كثيفة ومتشعبة وتصطبغ بحمرة قاتمة مع أوراقها البيضاء المُذهلة وكأنها أوراق قُلٍ، ثمّ سمعوا حفيف مشي أناس واختلاط كلامٍ، فساروا لينظروا وكلما اقتربوا علا الصوت حتى خرجوا من الغابة، فإذا قرية بدائية مبنية على الخشب والخوص والقش، يتنقل بينها بشر ذوي ملامح وملابس عربية على وجوههم البؤس، فلما رآهم أهل القرية جزعوا فجاءهم أحدهم وقال وصوته يرتجف:

- من أنتم؟!!

تقدم قحطان وعرف عن نفسه وسأل بدوره:

- ومن أنتم؟!!

قال أحد السكان ملابسه مهترئة وجسده ضعيف بنبرة واهنة:

- إنا رحالةٌ مثلكم قادنا حظنا العاثر إلى هذا المكان الملعون. هلا تقرضونا سفينةً نعود بها إلى ديارنا؟!!

جعل الرحالة يستعطفون قحطان ليحملهم معه فسكت قليلاً وهزّ رأسه قائلاً:

- سنحملكم معنا، ولكننا لن نعود قبل أن نكمل مهمتنا.

قال شيخ كبير يجلس ويستمع إلى حوارهم في هدوء:

- وما هي مهمتكم تلك؟!

- أن نتحالف مع أهل هذا المكان.

دُعر أهل القرية وكأنه قال لهم أن سينشئ حلقاً مع الشيطان، فأقبل كهلاً وأمسك بكتف قحطان والرعب يملأ عينيه قائلاً وشفته تترتجان:

- إنك لا تعلم من هم هؤلاء القوم. إنك إن اقتربت منهم قيد أنملة فإلهلاك الهلاك. أترجأ أن تعود بنا إلى ديارنا من أجل حياتنا وحياتكم؛ فهؤلاء وحوش سود الأكباد، سيتبرون أسطوك كله تنبيراً وكأنه لم يكن ثم يستعبدوننا.

أقبل من بين الناس رجلاً ذو لحية قصيرة من أحد البيوت تتبدى عليه ملامح الحلم والوقار، يرتدي عمامة بيضاء وعباءة صفراء، فلما أن جاءهم ألقى السلام وقال بلهجة طليقة:

- أنا الرحال بن بطوطة لعلك سمعت عني، لقد جبت أقطار الدنيا ولقيت أمماً عدداً ودرست عاداتهم وتقاليدهم وفقهت ثقافتهم ولكن لما جئت في بعثة المهدي التي بعثها من بغداد لم أجد قومًا أكثر شراً من هؤلاء القوم، إنهم قوم لا هم سنوريات ولا هم بشر مزيج بين ذلك، لغتهم الفتك لا تنفع معهم لغة الحوار؛ فلقد كان أسطولنا هائلاً كأسطولكم هذا، فدمروه تدميرًا إلا نحن، استعبدونا وسامونا سوء العذاب، ثم أرادوا أن نخبرهم بكل شيء عن البشر، فأبينا ثم وضعنا خطة وهربنا ومن معي ليلاً ولكنها لم تكن لتنجح لولا أن ساعدنا أحد هؤلاء المخلوقات في الهرب لأنني أدلته على شيء يريد مقابل أن يهربنا وبعد ذلك سرنا في البحر حتى وصلنا إلى هذه الجزيرة واتخذناها مسكنًا، ثم حاولوا أن يبحثوا عنا ولكن لأن عددنا كان قليلاً لم يجدونا بلطف من الله، ومن حينها لم نر بصيص أمل في العودة؛ من أجل ذلك أرى أن الأسلم أن نرجع جميعاً ولا نرمي بأيدينا إلى التهلكة؛ فإننا وقومك لن نتحمل هول ما سيقع علينا!

اقشعر بدن قحطان وجنوده فسأل:

- ألا إني أعرفك أيها الرحالة الشهير، وسمعت أنك اختفيت مع أسطول أبو عبد الله محمد المهدي. ولكننا جننا لهدف واحد ولا يمكننا أن نعود فارغي الأيدي، ثم إن أسطولنا قادرٌ على صدّهم، ونحن قديمًا هزمتنا أشد الأعداء قوةً فما يمنعنا أن نهزمهم!

- ليست تلك كهذه يا مولاي، أرجوك ارجع عما في ذهنك واسمع نصيحتي، إني لك من الناصحين!

أطرق قحطان وأدرك أنّ رحلتهم لن تكون ذات جدوى إذا رجعوا، وظل يفكر أمحتمل تحقيق هدفهم أم يرجعون. كان مذبذبًا لا يدري ما الذي عليه فعله، وبعد إطراقٍ طويل رأى أن يُرسل إليهم بهدية وينظر بم يرجع المرسلون.

تأخر الرُّسل أيامًا فلم قحطان أن قد صدقه سُكان الجزيرة في القول، فلمّا قرروا أن يعودوا نزل بهم ما لم يتوقعوه، فإذا طلقات مدافع تخرق سفنهم فنظروا إلى الأفق فوجدوا سفنًا تقبل عليهم، كانت السفن حمراء اللون وعلى مقدمتها نقش لوجه أسد يفتح فمه وتبرز أنيابه ومن بينها يبرز مدفع كبير عظيم. فزع الجميع وقال ابن بطوطة وهو مبخوع:

- ها هم أولاء، يبدو أنهم استجوبوا رسلكم وعلموا مكاننا. علينا أن نهرب حالًا!

أمر قحطان الأسطول بالالتفاف كي يعودوا فشرعوا ينفذون أمره ولكن سفن العدو كانت قد اقتربت، وكان عددها عشرين سفينةً، ولكنها لم تكن شديدة فاطمئن قحطان أن تدميرها سيكون سهلاً، فأخذت مدافع الطرفين تضرب هنا وهناك فإذا أحد سفن البشر تهتز فسمع قحطان عويل جُنده فنظر يتفقد الأمر فألقى وحشاً هائلاً أسود اللون يخرج من البحر؛ كان فيّه كفي تمساح هائل ومن كتفيه يخرج رأسان يشبهان ثعبانين كبيرين بأسنان حادة كبيرة وأعين شاخصة، وكانت يدها غزيرتي المخالب ولديه خمسة ذيول يُلْفَهَا حول السفن ويسحقها ويحطم أحد السفن بيديه ويقبض بأسنانه على أخرى وتنقض رؤوسه تلتهم السفن ومن عليها، فصرع قحطان ومن معه من الجنود ولكنها كانت البداية فإذا مخلوقات تنزل من السماء تُحلق في اتجاههم وعلى ظهورها

برز المينجوراء بوجوههم المُرَبَّبة المخبفة؁ كانت المخلوقات الطائرة أسودًا بفضاء بأجنة بفضاء وذئبًا ضخمة زرقاء وثيرانًا ذهبفة وبنفة ذات أجنة ومخلوقات زرقاء وجهها فُشبه وجه العظاءة ولها أجنة عظفة وتنفت برقا من فمها؁ وخرجت مخلوقات عملاقة تُشبه حصان البحر ذوات لون أخضر فاتح وفم كالمدفع فطلق عواصف مائفة على السفن لتغرقها؁ فزع البشر ونخر الرعب قلوبهم إذ رأوا هذه اللوحة المهبفة من كل المخلوقات الأسطورفة التي لم ففصوروا فومًا أنها قد تكون حقففة.

علم البعض أنهم سففلكون إن ظلوا هكذا فقرروا الالفاف والفار؁ وأففن بن بطوطة وسكان القرفة أن سففة قحطان هالكة لا محالة؁ فأخذوا مركبًا صغفرًا وشقوا طرففهم نحو السفن المُدبرة لعلهم فلقون بواحدة تقلهم لفهربوا من هذا الجفم. هربت أكثر من ثلاثفن سففة؁ فوففت السبعون الأخرى تقاوم وتضرب سفن المينجوراء؁ فحاولون الفصدي لهذه المخلوقات المرعبة برًا وبحرًا؁ وكانت المخلوقات العجففة تحرق وتُحطم أف سففة تصفبها فكان أسطول البشر ففساقط حتى أففن قحطان أن الهلاك أمرٌ لا مرد له.

العِزَّة

ولمَّا رأى قحطان جُنده يَدَّبَحون ويُقتلون تَقْتِيلاً من هذه الوحوش التي افترست كُلَّ أحلامه، قال لنفسه وهو مصدوم مغموم:

- هل هذه هي نهايتي؟! أينتهي كل ما سعيثُ له بهذا اليسر! كلاً لن أَرْضى بهذا، لن أَرْضى بهذا أبداً ولن أسامحك أيها المنصور؛ فإنك الآن جالس على عرشك وسط حرسك وجواريك وتُلقي بنا نحن إلى التهلكة.

استمر زحف المينجوراء ووحوشهم على السفن فدمروها تدميراً وسحقوا جنودها سحقاً حتى أذعن البشر أمام قوتهم الماحقة، رأى قحطان سفينة تقبل عليه فلما أن أدركته قفز عليهم جنود المينجوراء ذوو الوجوه الشرسة، غير الرحماء الذين يستمتعون بتعذيب ضحاياهم وإثارة الخوف والهلع في نفوسهم.

وقف الجنود يُدافعون عن أميرهم قحطان وأجسادهم ترتجف وسيوفهم تهتز من الخوف وألسنة البرق تضرب السماء وهزيم الرعد يدوي، ومع هذا المشهد المهييب يذبحهم جنود المينجوراء ذبحاً من دون عناء ويشربون دمهم حتى ارتوت الأرض والأشجار بدماءهم واكتسى المينجوراء بدماء البشر الحمراء التي لمعت مع وميض البرق، فأيقن قحطان أنها نهايتهم فرفع يديه وطلب من جنوده الاستسلام لعلمهم يُرحمون، فاستسلم الجنود فتوقف المينجوراء وشدوا وثاقهم واستولوا على سفنهم وحملوهم معهم وهم قافلون.

دفعوا بقحطان وسط صفوف الأسرى ويكأنه عبء مهين وليس بأمرير، وكانت أوصال الجُند من حوله ترتعدُ من النظر إلى وجوه المينجوراء المخيفة، وبعد سير طويلٍ بالسفن وصلوا إلى جزيرة المينجوراء ولكنهم لم يروها لأن وجوههم كانت مُغطاة بغمامة قماشية، وأثناء الرحلة سمعوا أصوات هذه المخلوقات وهي تتحدثُ ومرُّوا على أسواق وغابات ومدن حتى وجدوا أنفسهم داخل مبنى مُقفر رائحته عفنة كرائحة الأسود في الأقفاس. ألقوا بهم في أحد السجون وتركوهم عدة ساعات ثم عادوا مرة أخرى وقادوهم إلى مكانٍ آخر، وبعد أن وصلوا إلى وجهتهم طلبوا منهم أن يجثوا على ركبهم، فظنُّوا أن ستضرب أعناقهم فإذا الأغطية تراح عن وجوههم وإذا هم يجلسون في صفٍ طويلٍ مقرنين أمام ما يبدو عرش ملك في غرفة من بلاطٍ مصنوع من الفسيفساء مُختلفة الألوان مُزخرفٌ على شكل غابة خضراء ناضرة، ومن السقف تتدلى ثريّة من الفيروز واللازورد وعلى جوانب الغرفة عديد من التحف واللوحات، وأغصان شجر مختلف الأنواع تلج الغرفة من خلال النوافذ العديدة التي تمتد على الجانبين، بدت الغرفة وكأنها غابة صغيرة بديعة.

وبين أيديهم كان يجلس الملك على عرشه المصنوع من أجود أنواع الخشب، تلتفُّ حوله أوراقُ الشجيرات التي تحملُ في ثناياها أحجار ياقوت أحمر وأزرق في تناسقٍ عظيم، وعلى رأس الملك يستقر تاجه الذهبي ويتوسط التاج قطعة ألماس ناصع. أما الملك نفسه فكان ضخم الجثة يشبه الأسد، ذا لبدة صفراء كثيفة وشارب يلعب كشارب القط، كان وجهه قاسياً غليظاً، يلبس عباءة بيضاء مُزخرفة من استبرق. وقف الملك من على عرشه ومن حوله جُنُده وحاشيته، واقترب من الأسرى وكانوا مُقنعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفُهُم وأفئدتُهُم هواءً. فجعل يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهو يتفقد وجوههم، والبشر مع اقترابه من أحدهم تنخلع أفئدتهم من الرعب حتى قال بنبرةٍ جهورية تُشبه زئير الأسد جعلت قلوبهم تختلج في أضلعهم حتى أسقط في أيديهم:

- أقتل قائدكم في المعركة، أم موجود ههنا؟!!

تردد قحطان قليلاً ولكنه رد قائلاً وشفته ترتجفان وهو ينظر في خوف:

- أ ... أنا القائد.

تلطفه الملك بعينيه وتوجه إليه بخطواتٍ رتيبة يقول:

- حدثني لم جنتمونا؟! إنها المرة الثانية التي تأتونا فيها أيها البشر، أليس لفضولكم حد يقيكم المهالك؟

- لقد جنناك أيها الملك كي نعقد معكم تحالفاً ولكنكم لم تتركوا لنا فرصة حتى نُلقي عليكم السلام، فهلا تُخبرنا لم وقع لنا هذا رغم صلاح نويانا؟!!

زار الملك فاهتز بدن قحطان وكاد يهوي على الأرض، فقال:

- أنتم أيها الصعاليك تريدون أن تعقدوا تحالفاً معنا؟! لم نعقد مع مخلوقاتٍ في ضعفكم تحالفاً؟! ما الذي نجنيه منكم غير اللحم الطازج؟

امتعض قحطان على إثر حديثه وتمنى أن يزره ولكنه كان يدرك عجزه، فأنقذه أحد الأئمة الذين أحضرهم معه قائلاً يحاول تدارك الموقف:

- يا أيها الملك، إننا جميعاً خلق الله وخيرنا من أصلح في الأرض ولم يُفسد فيها؛ قال تعالى "إن خلقناكم شعوباً وقبائلًا لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" لم يقل يا أيها الملك أقواكم أو أغناكم بل قال أتقاكم!

نظر الملك إلى حاشيته في تعجبٍ واستنفار فبادلوه بنظراتٍ استهجانٍ واشمئزاز، فقال الملك يهزأ من الإمام وهو ينظر للملأ من حوله:

- بل كان عليه أن يقول أقواكم، فالقوي يختار كيف يعيش وكيف يموت، أما الضعيف فلا يختار طريقة موته، ولا يعيش إلا مذلولاً مطأطأ الرأس لمن هو أقوى منه.. ثم.. من هو ذلك الإله الذي تحدثنا عنه، وأين هو؟!!

مسح الإمام العرق عن جبينه وشعر بالظماً ينحر حلقة فتحامل على نفسه وقال:

"الله نور السموات والأرض" هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۗ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۗ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ

الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۗ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۗ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" صدق الله العظيم.

وقد بعث عز وجل إلينا منذ أن ابتدئ الإنسان خلافته على الأرض بالكتب والرسل لينفك الناس عن شركهم ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، حتى ختمت مسيرة الرسل بالرسول الأمي محمد صلى الله عليه وسلم، الذي أرسل بدين الإسلام وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده حتى يوم الحساب، وألخص إليك أصول هذه الدين بهذه الآيات:

"قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۗ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ"

أمَّا سؤالك عن مكانه، فالله مجاوزٌ لعالمنا هذا، لا يحل فيه؛ ذلك لأنه عز وجل بيّن لنا أن هذه الدنيا دار اختبارٍ وابتلاء، لذلك فلا حكمة من تجليه لنا وإلا انتفى معنى الاختبار وصار عالم الغيب عالم شهادةٍ وأضحى الكافر كالمؤمن وأصبح غاية وجودنا عبثًا فكان الأولى أن نخلق في الجنة دوننا عن التيه في الأرض، وأعلم أنك قد تسألني وإدًا كيف ندلل على وجوده، أقول إن ما من امرئ ينظر إلى عرشك هذا إلا ويجزم أن وراءه قدرةً وعلمًا وإرادةً، ولا يماري في حتمية اجتماع هذه الصفات الثلاثة أحد، وما يقال في عرشك يقال في هذا الكون البديع، فالذي ينظر إلى الكون يلحظ هذه الصفات الثلاثة، فإدًا لا يصح أن ندلل على وجوده فالدليل يُطلب في الأمور التي لا تدرك بداهة، وإننا نحن البشر وباقي المخلوقات نتعامل في حياتنا بالقوانين البديهية ثم ننقض عليها إذا لم توافق هوانا، ولئن انقض الناس على الأمور البديهية لصار العقل لا غاية منه وصرنا كالأنعام بل أضل سبيلاً!

نفذ صبر الملك فزار قائلاً:

- ما من إله غير إله النور الذي نعبدُه ونقدسه وأنا نبيه وخليفته الذي يتكلم بلسانه على هذه الأرض ومعى الأنبياء الستة المعاونين من بعدي، إن كان إلهك هذا هو نور السماوات والأرض فنحن نعبدُ نفس الرب، وإن كان هو الحق وإلهنا الباطل فليريني آيةً تثبت خطأي!

سكت الملك قليلاً ثم ابتسم فبرزت أنيابه فقال:

- لم يحدث شيءٌ كما ظننت!

- ولن يحدث شيء، ذلك لأنه إذا طلب الناس آيةً كما تطلب أنت الآن لصار الكون عبثاً محضاً ولأغرقت الآيات والمعجزات العالم حتى لا نجد موضع قدم لنا في هذا العالم، ثمَّ إن كنتِ أنتِ نبيّاً كما تزعم فلمَ لم تعلمِ بوحى من السماء أننا قادمون، ولمَ لم تعلمِ من فينا القائد إذ سألتنا؟! لقد كان نبينا يعلمُ الأمر قبل حدوثه بوحى من السماء وينطق بالغيب ويبصرنا بما يحدث في مستقبل الأيام فيحدثُ الأمر كما قال. لا نبي بعد محمد فراجع دينك هداك الله.

تأجج الملك غضباً، فقال يأمر ملاًه:

- اقتلوا هذا المهرطق ليكون عبرةً لمن معه!

فقتلوا الإمام بين أيديهم فاتسعت أعين الأسرى وفُزع عن قلوبهم وأجهش بعضهم بالبكاء، فاستطرد الملك قائلاً لقحطان:

- ها أيها القائد! إنك تؤمن بنبي قد مات لم تره ولم تسمع منه أمّا أنا فتراني وتسمعني وأقدرُ أن أهبك القوة والمال والسلطان وكل ما تبتغيه في هذه الحياة! نظر الملك إلى قحطان نظرة جعلته يود لو تُسوى به الأرض، واستطرد قائلاً:

- قل لي، من أين أنت؟!!

- من دمشق أيها الملك.

دُهشَ الملك فقال بلهجة طليقة وصريحة:

- أقلتَ دمشق؟! لقد كنتَ أبحثُ عنها سنيًا ولكن دون أمل.. حين جاء ذلك الرحالة بن بطوطة وترجمنا مخطوطاته وخرائطه علمنا بأمر دمشق وأنها المدينة التي يقطن الكنز العظيم بين صحراءها .. قل لي أيها القائد .. أتريد أن تُصبح ملكًا على دمشق؟! .. سيكون هذا مُقابل خدمة بسيطة.

صُعق قحطان من السؤال ولم يدر بماذا يرد؛ فلقد كان بداخله كثيرًا من التناقضات: كان محببًا مستسلمًا يريد أن تنشق الأرض وتبلعه، وكان يريد أن ينتقم من هؤلاء المينجوراء على ما فعلوه به وبأصحابه، ولكن أخاه هو الذي وضعه في هذا الحال فأراد أن يعود إلى دياره وينتقم منه شر انتقام:

فلما أن علم الملك بتردده قال:

- أعلم أنك تظنُّ أنني أخدعُك، وأن الوصول إلى عرش دمشق هو دربٌ من الجنون، ولكن ثق في نبيك الجديد وسترى الآيات تنبثق من بين يديك ومن خلفك. أستطيع أن أهبك كل ما تتمناه أمّا نبيك القديم ذلك فقد تخلى عنك، وترك لبرائث الموت إن رفضتَ عرضي. كلُّ ما أريده هو أن تعثر على تحفة ثمينة في دمشق وتُبشر بعبادة رب النور والطاعة لأنبيائه مثلي أنا نبي الضياء "مالوك" العظيم والأنبياء الستة الأجلَاء. فانظر ماذا ترى، أملكُ تريد أم الذبح؟!

اضطرب قحطان ولكن كان كلُّ ما في يدور في خلدِه من بعد كلام الملك هو النجاة وجعل المنصور يُقاسي ما قاسوه، اتقدت نار الحقد والثأر في قلبه وقد كان دائمًا يحسد أخاه على نعمته وعلى توليه الحكم دونًا عنه. لم يدر كيف يجعله هذا الوحش ملكًا ولكن من بعد أن رأى قوتهم الساحقة لم يعد يشك في مقدرته على تنصيبه ملكًا على دمشق بل والأرض جميعًا. فوافق فأعطاه الملك حريته هو ومن وافق من جنوده على تنفيذ الأمر، وسكت قليلاً وكأنه يتذكر شيئًا من قديم الزمان ثم قطع حاجز الصمت قائلاً:

- كان أجدادنا يعيشون في عالمكم ولكنهم لما اكتشفوا هذا العالم سكنوه وعمره وابتعدوا عن البشر ومشاكستهم لهم، وأحضروا كثيرًا من آثار عالمكم ومن بينها مخطوطات قديمة تكشف كثيرًا من العوالم الخفية من حولنا ومنها هذا العالم الذي نقف عليه الآن. وصفوا هذا العالم بكونه من العوالم

القليلة المتصلة بعالم البشر أما بقية العوالم فهي تحتاج إلى مفاتيح لسبر أغوارها وتلك المفاتيح متناثرة حول العالم في أماكن شديدة السرية لم يستطع أحد الوصول إليها إلا قلة. ذكر أجدادي أن هناك مفتاحًا في أرض البشر يقبُع في صحراء الشام ولكن لم تأتِهم فرصة مناسبة كي يبحثوا عنه، ومنذ ذلك الوقت ونحن نبحت عن دمشق والشام ولكن باءت محاولتنا بالفشل. وعلمنا بمكان عالمكم بعد أن جاءنا رحالة بغداد وحاولنا استجوابهم لينبئونا بمكان دمشق والشام ولكنهم أنكروا معرفتهم بها، فظنناها مدينة مخفية في أرضٍ أخرى غير أرضكم حتى بحثنا في خرائطهم وعلمنا إنها في الأرض.

سُجن أولئك الدمشقيون الذي رفضوا الانصياع لأمره، وركب قحطان أحد سفنه التي استحوذ عليها المينجوراء ومعه من وافق من جنوده وثلاثة من الأنبياء الستة ميزوراء وداجوراء وزاهوراء والذين اختبئوا في بطن السفينة حتى لا يراهم أمير الظلام ويمنعهم عن التقدم فقد منع المينجوراء دائمًا من الوصول إلى أرض البشر ولم يعلموا سر فعلته تلك، رغم أنه سمح للبشر مرتين بالوصول إلى أرضهم!

وبعد رحلة طويلة في البحر المظلم استطاعوا الخروج من الظلمات إلى عالم البشر، فانشرح صدر قحطان إذا رأى عالمه الذي يألّفه ويحبه، وبعد بضعة أيام رست سفينته على ساحل دمشق، فاستقبلهم الناس بالورود وحمدوا الله على نجاتهم، وذاع صيت الرحلة في كل أنحاء دمشق وأخذ الناجون يروون ما وقع لهم من مأسٍ وأهوال وما رأوه من عجائب وغرائب. ولكن قحطان حين دخل المدينة وجدها على وجه غير الذي تركها به، فقد جاع الناس وازداد الفقر والعطش وعجت الطرقات بالجوعى والمتسولين واللصوص.

الحذر

استقبلَ الملكُ منصور أخاه وهو مسرور أنه قد نجى، فلما رأى كيف صار أخوه بانسًا تمنى ألمَّ يبعثه في هذه الرحلة، وانشرح صدر عزيزٍ إذ رأى أباه، فوعده أبوه ألن يتركه سفرةً أخرى.

طلب منصور منه أن يخبرهم كيف نجوا فأخبرهم أنه استطاع أن يهرب بسفينته ليختبئ في أحد الجزر حتى هدأت الأمور.

دخل الخدم بالطعام والشراب وأعدوا مائدة بسيطة لنقص الموارد احتفالاً بعودة الوزير قحطان، وأثناء تناولهم الطعام قال المنصور في أسى:

- والله يا ابن أمي قد زاد الحال سوءًا من بعدك، لقد جفت آخر أنهار الشام وكانت السماء تغدق علينا ماء الغيث فكفت وبخلت علينا فشحت الأمطار وهلك الزرع والأنعام وعمت المجاعة والطاعون.. كل ليلة ننعي أحد أحبائنا، الناس يموتون تباغًا وكم تمنيت لو كالت بالنجاح وعدت لنا بذهب الأرض ونعيمها، فيبتهج الناس وتزاح عنهم الغمة. لكنك عدت ب..

نظر له قحطان نظرة تطق شررًا وقال:

- عدت بخفي حنين. أليس هذا ما كدت تلفظه؟

أشاح المنصور بيديه مُستنكرًا:

- حاشا لله يا أخي.. والله إن سعادتني بعودتك تفوق مصيبتني. فما كدت أتحمل أن أخسرك وأخسر الشام في سنة واحدة.. ولكن إليك خبرًا يشرح يصدرك، لقد هلك المستنصر بالله وخلفه ابنه المستقوي بالله ورضى بالصلح بيننا

وعادت وحدة الشام وبغداد تارة أخرى والحمد لله رب العالمين. لقد تحول
فشلنا إلى نصرٍ بفضل الله وحده.

- حمدًا لله. لا تخف يا أخي، فإنّي تعلمتُ شيئًا يجلب علينا الخير تارة أخرى.
دع الأمر لأخيك الصغير واذهب للصيد والراحة.

شرع قحطان ينفذ ما كلفه به مالوك، فأبعد جنود المنصور المقربين منه عن
الساحة، وبعدها ظهرت بركة مياه في وسط دمشق ففرح الناس بها وانهالوا
عليها يتدافعون ويتقاتلون حتى يحصل كلّ على نصيبه فصارت مذبحة،
فتدخل جُند قحطان وزجروهم وأوقفوهم صفا صفا فشكر الناس لهم ذلك.

أقام قحطان حفلاً بمناسبة هذه البحيرة المباركة التي أعادت الأمل للناس، وقد
قرر أن يحفر جداول بين طرقات دمشق تُدر الماء على الناس حتى لا يزدحم
قلب المدينة. فرح المنصور بحنكة أخيه وأثنى عليه وأغدق عليه المال والنعمة
وظل يلح عليه عن السر الذي جعل تلك البحيرة تخرج في قلب دمشق فأبى
قحطان أن يقص عليه. قال له قحطان:

- لا تقلق يا مولاي سأجعل الشام جنة يأتيها الناس من كلّ مكانٍ، ارتح وقر
عينًا يا ابن أمي وتمتع بالوليمة التي ساعدها لك.

انبسط وجه المنصور وخرج إلى طرقات دمشق وحده يركض بين الناس
وهو رافع يده إلى السماء:

- أيها الناس قد جاء فرج الله على عبده الفقير المنصور، إن أخي قد عاد
بالخير فاستبشروا واشكروا الله على نعمه عليكم.

فرح الناس وابتهجوا وأقبلوا على المنصور يقبلون يده.

عاد المنصور وقد أعدت الوليمة وقد انشرح صدره وانبسطت أساريره.

لما أُقيمت الوليمة جاءها جمع عظيم من وزراء وعلماء ومن عائلة المنصور
جمع غفير، جلس رجال دولة المنصور يأكلون ويشربون ويتضحكون
ويثنون على قحطان ومن معه وإذ فجأة أشار قحطان لمن معه أن غلقوا

الأبواب، فأغلقوها فارتاب الحضور وخفتت الأصوات فلا يُسمع إلا الهمس وفجأة أمر قحطان رجاله أن اهجموا، فاستلوا سيوفهم فإذا هم من كل حدب ينسلون، فتعالى صراخ الحضور وهم واحدٌ تلو الآخر يُذبحون، فنادى المنصور أن توقفوا أيها المفسدون، فلم يجيبوه وكأنهم صمٌّ بكم لا يسمعون، واستمر غيهم فهم لا يعبأون، فكرب قلبُ منصورٍ من جواه يذوب، فحضر علي بابا أن أهرب يا بني ولا تؤوب، فإذا الذي خانه يوشك أن يذبح زوجته، فقال المنصور وهو مشدوه:

- أنت من دبر كل هذا يا قحطان؟! لم يا أخي!؟

ازدادت ملامح قحطان قسوة وأصبحت نبرته أكثر حدة، فقال صارخًا:

- لم؟! أنقول لم؟! بعد أن أرسلتنا لحتفنا في ذلك العالم المجهول لتحفظ عرشك، أعلم أنك أرسلتني خوفًا مني أن أستلب عرشك، فقد كان الرجال يلتفون حولي ويدينون لي بالولاء فأصبح في نفسك شيء مني فأردت أن ترسلني إلى هلاكي. إن أنت إلا جاهلٌ سفيه يُضحى بمن حوله من أجل الكرسي. صدقت العرب حين قالت الملك عقيم.

زاغ بصر المنصور وأمسك بكرسيه من الفرع لا يقوى على الوقوف وقال متجلجلاً:

- لا والله ما قصدتُ أن أرسلك إلى حتفك يا ابن أمي. إنما أردت أن يعود المجد عليك من هذه الرحلة.

ذبح قحطان زوجة المنصور التي كانت تبكي أمام عينيه، فصرخ المنصور من هول الصدمة وأصبح فؤاده فارغا وكاد يغشى عليه، فتجمد علي بابا مكانه وهو ينظر إلى أمه وهي تنهوى على الأرض مضرجة بالدماء، فقال وهو متشككٌ أحقيقٌ هذا أم أني في كابوس؟! فإذا المنصور يللم شتات نفسه ويخرج سيفه منطلقًا إلى قحطان فدرأه حارسان وقيده فجعله يركع مرغماً بين يدي قحطان، فضحك قحطان وهو ينظر إليه في زهو، فقال وهو يشير إلى علي بابا:

- اقتلوا ابنه ليحترق قلبه عليه وينفلق كبده!

صرخ منصور قائلاً يسترجيه والدموع تنهال من عينيه كجداول ماءٍ لا تنضب:

- بالله عليك لا تقتل ابني! أهرب يا علي بابا، انج بحياتك يا صغيري!

فخرج علي بابا من صدمته على صوت أبيه، ونظر إلى أمه نظرة وداع وأحس أن قلبه يتآكل ويكأن فأراً يقرضه قرصاً، فصرخ صراخاً ناشزاً ارتجت له غرفة العرش فإذا عيناه تبيض وإذا عروقه تنتفض، فحاول أحد الجند طعنه فتفادها برشاقة وسحب السيف منه وطعنه فغلب الحارس ووقع.

فذهش من حوله فصاح المنصور فيه صيحة أخيرة كي يهرب، فعلم أن لا مخرج فشرع يركض وهو يحس قدميه أشد قوة وسرعة من ذي قبل، وما من ضربة إلا وكان يتوقعها فيتفادها من قبل أن تقع، فإذا هو يقفز عاليًا ويتنقل من بينهم ويكأنهم أغصان شجر حتى بلغ البوابة المغلقة التي كان يحرسها اثنان، فتزاور في الهواء عن رمحيهما وضرب البوابة بقدميه فانفتحت على مصرعها، فخرج إلى ردهة القصر الواسعة وهو يركض باكياً يريد أن يستيقظ من كابوسه هذا حتى ألقى حارساً يأمره بالتوقف فقفز علي بابا برأسه إلى الأمام كالثور ونطحه في بطنه فصرخ الحارس وسقط أرضاً يتلوى من هول الألم الذي فتك بمعدته. أمر قحطان جنوده أن اتبعوه، ونظر إلى المنصور نظرة دهاءٍ وقال:

- أما أنت فما أنا بقاتلك، بل لأجعلنك عبداً لتذيق بعض الذي ذقناه في أرض ما وراء البحر الأسود العظيم.

بكى منصورُ بكاءً شديداً لأنه هو الذي جعل من أخيه هذا الوحش الذي يقف أمامه.

انتشى قحطان وهو يشاهد رجال المنصور يذبحون ويتقلبون في دماءهم وألقى الأنبياء الثلاثة يدخلون ويسرون بين الدماء بدثارهم الأسود وأقنعتهم الذهبية، حياهم قحطان وسار إلى شرفة القصر الكبيرة المُطلّة على المدينة ورأى الناس يقفون بالمئات كما أمرهم الجند ليرقبوا خطاب قحطان، فخرج قحطان عليهم في زينته ومن خلفه المينجوراء يقفون في صمتٍ مطبق.

رفع قحطان يديه إلى الناس كأنه يحتضن السماء وصاح بصوتٍ أسمع القاصي والداني بينما يأن القتلى من خلفه ويترجونه أن يعفو عنهم:

- اليوم بداية عهد جديد أيها الناس. إن لكم في هذا العهد ألا تجوعوا فيه ولا تعرفوا وأنكم لا تظمئون فيه ولا تضحوا. أبشروا بجنةٍ أرسلها الله إليكم بعد صبر وبلاء.

صاح قحطان بصوتٍ أعلى بينما شرعت الأشجار تخرج من بين شرفته مورقة محملة بالأثمار تقطع طريقها عبر الشرفة إلى الأسفل ثم يخرج غيرها عبر القصر إلى ساحة المدينة والناس مشدوهون وكأنهم سكارى وما هم بسكارى.

استمرت الأشجار تمتد وتحيط بالبيوت والطرقات بشتى الثمار والفواكه والأنهار تتفجر في الأرض بماءٍ عذبٍ حلو المذاق وقحطان يصدح قائلاً: - إنه عهدي وعهد أنبياء الله الجدد الذين ابتعثهم لينفذوا الشام من الهلاك.. لقد جاؤوكم بأيةٍ مبينة ترونها أمامكم رأي العين، ما بعث الله بها أحدًا من قبل. فمن كفر فعليه كفره وأنا كفيل به. هللوا واسجدوا فالיום يوم عيد.

طفق الناس يهللون ويقفزون فرحًا ويفتظفون الثمار ويشربون من الماء العذب ويلتقمون حبات العنب ويستظلون بالأوراق ويرقصون ويمرحون ولم يكثرثوا بأمر الأنبياء الجدد ولم يعترضوا ولم يكثرثوا لدينهم. فقد جاءهم الفرج.

خرج رجال قحطان برماحهم يجوبون المدينة والناس قد نامت أعينهم وضمائيرهم وسط الجنة التي أزهرت وتخللت كل بيتٍ ودار، فاندفعوا يتصيدون الفقهاء والعلماء من مجالس العلم والحلقات والمساجد والمكتبات، لأن قحطان كان يعلم أنهم صوت العقل وأن الناس إن أفاقوا من سكرتهم سوف يجدون من يوسوس في آذانهم، فقرر أن يستبق ويظفر بهم.

دوى صدى صوت قحطان في أرجاء دمشق وهو يقول بغبطةٍ وسرور:

- من يؤمن منكم أغدق عليه من نعمي.

دخل الحرس يجرون العلماء من أرجلهم جراً، ويسحبونهم على الأرض
وسط فزع تلاميذهم.

- ومن يكفر أذقه عذاباً يُفقدّه لُبُهُ.

دافع التلاميذ عن العلماء فقتلهم الحرس وانطلقوا يتوغلون بين الطرقات
يطرقون الأبواب أو يحطمونها ويجرون الفقهاء إلى الأسر أو إلى نطع
السيف. ولولت النساء وبكى الأطفال واستباح الجند المدينة يخربون ويقتلون
ويأسرون ويسبون.

- وعهدي لن يُظلم فيه أحد أبداً.. أبداً.

طفق علي بابا يتسلق البيوت ويقفز من فوقها ليصدف عن جنود قحطان الذين
يلاحقونه من كل جانب، فأدرك أنّه لو بقي في دمشق فسيمسكون به فقرر أن
يغادرها ليختبئ في أحد الكهوف، كذلك ولأول مرة يشعر أنه تائهٌ وحيد، فلما
أن استطاع تضليل الجند؛ تسلل متوجّهاً إلى شق السور الذي تعود هو وعزيز
أن يخرج منه، فخرج مودعاً أسوار دمشق وذكرياته الجميلة فيها وفؤاده
يختنق في ضلوعه من الألم وعيناه قد جفت من أثر البكاء.

أراد علي بابا أن يتخطى الصحراء من قبل أن يُغشى عليه من الرهق، فلما
أن اقترب من الصحراء المسحورة؛ سقط مغشياً عليه وغط في نوم عميق.

فلما أن استيقظ ألقى نفسه في عربةٍ تسير، فقام مفزوعاً يظنُّ جُند قحطان قد
أمسكوا به، فإذا رجلٌ مُخيف الوجه ينظرُ إليه وهو جالس، فصرخ علي بابا
خوفاً وحاول أن يفر قائلاً:

- أستحلفك بالله ألا تقتلني!

تعجب الرجل من قوله وأمسك بتلابيبه قبل أن يفر وقال له يؤنبه:

- أهذا جزاءُ أن أنقذتُك من الموت!؟

توقف علي بابا عن الفرار واستقر مكانه قائلاً:

- من أنت؟! وأين وجدتي؟! وهل أنت من جُند قحطان!؟

- ما كل هذه الأسئلة؟! رويدك، أنا لستُ بجندي بل أنا لص وقد وجدناك مُلقى في الصحراء أثناء مطاردتنا لقافلة فحملناك معنا وداوينا جراحك لعلك تكون ذا نفعٍ لنا.

- لكّني لا أسرقُ يا سيدي فهذا ليس من شيم الرجال، كما أن السرقة حرام!

- كفاك من هذا الكلام النبيل، فالنبل لن يوفر لك قوتًا. لتتعلمن السرقة أو تُلقى في الصحراء فتأكلن النسور ودواب الأرض!

بكى علي بابا، وكره ما آلت إليه الأمور ويكأن المصائب تتقاذفه بينها، فقبل أن يعمل لصًا لعله يأمن كيد عمه قحطان.

ودارت السنون وأثبت علي بابا جدارته للصوص بقوته الغربية التي أكسبته إياها قارورة كيثار، وعلم أنّ قحطان قد طغى فحوّل دمشق إلى أرضٍ غير الأرض وبدل الدين تبديلاً مفرغاً وحرف الكلم عن مواضعه؛ فلما أن رفض بعض الناس وقاموا عليه بعد أن أفاقوا من سكرتهم أوغل فيهم السيف، بل وسفك دماءهم ليثبت حكمه؛ فلم يذعن قلة من الناس فنفاهم خارج دمشق ليفرقهم عن اتبعه من ضعاف النفوس وعبدة الأهواء ومع ذلك ظلّ بعض الذين يتعبدون خفيةً ولكنهم لم يسلموا من بطشه، فقد كان يرسلُ جُنده لتفتيش البيوت فيكتشف من لم يزل متمسكاً بمذهبه ويُنفى إلى أصحابه في الصحراء، فأحكم قحطان قبضته بالنار والحديد ولم يترك ثغرةً لأي نفس أن تبدي ما في نفسها من رفضٍ، وجعل العبيد يعملون ليلاً ونهاراً في سبيل العثور على السيف الأسود، ثمّ بدأ انتكاسُ الفطرة فرجع ما كان محرماً، فانتشرت الخمر والربا والقمار والزنا وكل الملذات المُحرمة، وظهرت طقوس للتعبد عند تماثيل المينجوراء، وتقديم القرابين التي كان يأخذها قحطان وكهنته من أجل أنفسهم فتأكلت قيم الناس وصاروا كالأنعام يأكلون ويشربون ويتناسلون ولا غاية لهم غير ذلك؛ كذلك ازداد تمسك علي بابا بالسرقة كي يردّ لأخوته المنفيين بعض الذي استلب منهم.

وكان علي بابا يُقابل أباه سرا ليطمئن على حاله ويلتمس منه بعض الحنان والعطف الأبوي. ولمّا بلغ علي بابا أشده استطاع أن يجعل من الأربعين لصاً

عصابة لا تقهر، حتى مات قائد اللصوص فقادهم علي بابا نزولاً على رغبتهم، واستطاع أن يغيّر بعض طابعهم فأفنعهم أن يسرقوا ليضعفوا شوكة قحطان ولينصروا أخوتهم المستعبدين، وليس من أجل المال.

بعد أن عين قحطان نفسه والياً بثّ السموم في رأس عزيز الذي كان مُطيعاً لوالده دائماً ويكن له الحب الدائم والاحترام، وأصبح مسؤولاً عن العثور على علي بابا الذي أصبح يؤرق قوافل دمشق. كذلك أصبح عزيز قائد الجيش والمسؤول عن مهمة السيف الأسود بعد أن علم أبوه قصته مع كيثار وأطلق عليه عزيز الدولة، ولكن جنود عزيز فشلوا مرةً تلو الأخرى لأن كيثار ضاعف الحراسة على المغارة، ولم يكن عزيز يصاحب جنوده في مهمتهم إلى المغارة لأن صورة كيثار ما زالت تتمثل له في كبره فتملأه رعباً.

إتخذ علي بابا من المغارات، التي عثر فيها على العنقاء الذهبية، مقراً له وللصوص فكان يضمُّ إليه عبيداً في غاراته بل ويجعلهم يعيشون معه في تلك الكهوف بعيداً عن الاستعباد، أمّا أبوه فلم يفلح أن يضمّه إليه؛ فالجميع اعتمد عليه في ظروفهم القهرية، فآثر ألا يتركهم في معاناتهم. ظن عزيز أن علي بابا يتخذ تلك المغارات مسكناً له، ولكن لأنه لا يتذكر موقعها تحديداً فشل في الوصول إليها.

كذلك استمر القتال سنيّاً بين علي بابا وعزيز الدولة ويكأنها حرب لا تبلغ نهايتها، حربٌ ترجح كفتها على قحطان وجيشه حتى جاء سندباد وصاحبيه وجيش حلب فوازنوا الكفة.

الانقشاع

وقف علي بابا وهو يمسك بسيفه وحبله، وألقى إلى عزيز الدولة سيفه وهو يقول بنبرة صارمة:

- انهض وقاتل رجل لرجل. لنحسم الأمر هنا يا ابن العم!

ابتسم عزيز هازئاً ونظر إليه يزدريه وقال:

- لا أدري لم تكرهنا ولا تكره أباك؛ فلولاه ما وقع كل هذا! ولولاك أيضاً لما حل كل هذا البلاء يا ابن العم.

قطب علي بابا جبينه قائلاً باستنكارٍ واستهجان:

- أنا من جلبت علينا هذا البلاء؟ أنا من جلبت المينجوراء هنا وأقمت مذبحاً عظيمة؟

قبض عزيز الدولة على حفنة رمالٍ وانكشفت قسماط وجهه بحقدٍ وغل وصاح في وجه علي بابا قائلاً:

- أصبت القول يا ابن العم. أتذكرُ عنقاء الذهب؟ لولا فضولك لجلبناها إلى المنصور ولولدت لنا ذهباً لا ينضب معينه فوزعناه على الرعية واشترينا به الصيادين من كل أنحاء الأرض ولوحدنا أقطار الأرض ومن عليها تحت حكم المنصور، ولظل أبي بخير ولم يلتق بالمينجوراء، ولكن فضولك

وغطرستك وجشعك جلبوا علينا الويل، وسلب كيثار منّا العنقاء وها نحن نحصد البذرة الفاسدة التي أنبتها يا ابن عمي.

أشار علي بابا بسيفه إلى الأمام وقال بحنقٍ مستهجنًا:

- أمبرر مقنع هذا لكل ما فعلتموه بنا! أل هذه المرحلة قد وصل السخف بكم؟! ألم ترَ كيف حرف أبوك الدين وكيف رد الناس إلى جاهلية المينجوراء؟! إن أباك كان امرأ جبانًا، همه الدنيا ونعيم الأرض .. ولا تظن أنني سأخضع بالقول إن ذكرتني بالعنقاء، فقد كنت طفلًا صغيرًا طائشًا لم يبلغ بعد، والله لا يحاسب طفلًا لم يبلغ أشده ويستوي ويضحى راشدًا يفرق بين تبعات الأمور. إن كل ما حدث فتنة ليميز الله الخبيث من الطيب ويفرق بين الحق والباطل حتى أصبحنا فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه.

فتأجج عزيز غضبًا فأمسك بسيفه ووثب على رجليه وقال:

- صه أيها الحقير، إنما أدّى أبي واجبه بأن أحلّ المينجوراء محل أبيك الأحمق الهرم؛ فأولئك لا أحد في قوتهم أما أنتم فإنما مقاومتكم كالذي يضرب على الصخر بيد عارية!

ابتسم علي بابا بازدرأٍ ونظر حوله نظرة ذات دلالة وقال:

- عجيب! أرانا ننتصر وأراك مذلولًا! إن الله العزيز الجبار لهو مولانا، أما أنتم فمولاكم مخلوقات ضعيفة مفتقرة إليه! الله مولانا ولا مولى لكم.

فإذا عزيز ينقض عليه مندفعًا يقول لأقتلنك، فصد علي بابا سيفه فخرج صليلًا ناشزًا، فطفقا يتضاربان ضرباتٍ لم يستطع الناس ملاحقتها من شدة سرعتها، فلمّا أن ضربه عزيز ضربةً أفقيةً مباغطةً درأها علي بابا وركله ركلةً في بطنه أوقعته أرضًا، فانتفض عزيز وعزم أن يخرج أقصى قوته، فإذا هو يضرب ضرباتٍ أشد سرعةً وعلي بابا يصدها كلها فكربت ضربةً طويلةً تقطع رأسه فتفادها علي بابا وركل ساقَ عزيز الدولة فأسقطه وأوشك أن يطعنه، فتدحرج عزيز حتى انحرف عنها وقام كقطٍ رشيق لينطلق كرةً أخرى، فلمّا أن اقترب قذف حفةً ترابٍ في عيني علي بابا، فاستحالت الرؤية

لثوانٍ كانت كافية ليُقضى عليه فإذا هو يدور بحبله السحري ليكُون زوبعة رملية غشَّت عيني عزيز فصدف عنها لئلا يصيبه الحبل.

فلَمَّا أن ارتد بصرُ علي بابا إليه ألقى بلفافةٍ متفجرة على عزيز فتفادها هو الآخر فانفجرت في الرمال فامتلأت الساحة غبارًا لم يعد أحدٌ يرى منه شيئًا، كذلك أراد علي بابا أن يشئت انتباهه.

سكن الصوت ولم يعد عزيز يسمع شيئًا، فأزاح عزيز الغبار عن عينيه ونظر يحاول أن يتبصر شيئًا وسط الرمال فلم يكدر شيئًا فإذا ضربة سيفٍ تجرح ذراعه جرحًا أجوف له غور فطفق يلوح بسيفه لا يلوي على شيء في ألمٍ فلم يجد أحدًا، فسمع صوت علي بابا وكأنه يصدرُ من كل مكان في آن الوقت وهو يقول واثقًا:

- لما كنت أنت تسكُرُ وتعربدُ وتداعب النساء وتأكل أفضل الطعام ..

باغته بغتةً أخرى من الخلف فجرح ساقه فصرخ من شدة الألم والتف يحاول ضربه ولكنه لم يجد أحدًا، بدا علي بابا وكأنه يتسلى معه، فاستطرد علي بابا قائلاً:

- كنتُ أجوب الفلوات أخاطرُ بحياتي وأتدرب لأحذق مهاراتي هاته ..

ضربه ضربة أخرى في ذراعه اليمنى التي كان يحمل بها السيف، فكاد يسقط منه السيف ولكنه تحامل على نفسه وأمسك به بقوة وجعل يلوح لعله يصيب علي بابا المتواري في التراب. استكمل علي بابا كلامه يقول:

- وتركت أنت مهارتك حتى أصبحت ضعيفًا مهينًا، فهل تظن أنك ستنتصر عليّ وأنت في حالتك هذه؟!!

ضربه في ساقه اليمنى فسقط عزيز على إثرها وقال صارخًا ويكأنه تنور فائز:

- تبا لك يا علي بابا! أنت لست بأفضل مني ولن تكون أبدًا أيها اللص البائس؛ فإني أنا الأمير ووريث العرش وما أنت إلا حثالة هائمة في الصحراء!

سمع عزيز ضحكة علي بابا تصدر من كل مكان، وسمعه يقول:

- لقد كنت أتعذب مما يصيب قومي، وأرهقني هذا القتال الذي لا ينتهي، ولكني الآن قد فطنت؛ فكل مررت به كان إعدادًا من أجل هذه اللحظة، لحظة ضرب عنق الذين ظلموا!

ناوله بضربة في رجله اليسرى فسقط عزيز الدولة على الأرض ولم يعد يقدر على الحركة ليدرك أنّ علي بابا لم يكن يوجه ضرباته عشوائيًا ولكنه كان يضرب العروق البارزة في جسده كي يشل حركته، ظل كذلك حتى أثنى عزيزًا جراحًا فأضحى كصنم جاثم.

انقشع الغبار وتجلّى علي بابا إلى عزيز الراكع على ركبتيه يحاول أن ينهض أو يرفع سيفه ولكنّ جسده يأبى، فنظر إليه عزيز في بغضٍ شديد وقال يجز على أسنانه جزا:

- حتى وإن قتلتني يا علي بابا، فإنك لن تستطيع أن تمس أبي أبدًا. عليك أن تدرك أنكم تقاتلون من أجل وهم. ولئن جاوزتم المينجوراء وعبرتم أسوار دمشق فليبعثنّ المينجوراء لكم من خلف بحر الظلام جيوشًا لا قبل لكم بها وليحرقن الشام إحراقًا! افهم أيها الغبي إنك تقاتل في الجانب الخطأ!

دنا علي بابا منه وهو يضع سيفه على كتفه وقال وعيناه ممتلئة تصميمًا:

- لست أنت بالذي يعلم الغيب .. ولا تقلق علينا وأقلق على مصيرك أنت بعد الممات .. والآن ذق جزاء ما ارتددت إليه قبحك الله!

فلما أن رفع علي بابا سيفه صرخ عزيز وهو يرى السيف يهوي ليقطع رقبته، فسالت دموع علي بابا وهو يتذكر عزيزًا الصغير الذي كان يطارده كظله طوال الوقت ويعترض على كلّ شيء قد يسبب الأذى لهم، ولم يكن ليظن أنه قاتله يومًا! وإن عجائب الدهر لا تنتهي.

الحياة

وإذ انتهت الحرب وقتل عزيز الدولة وانسحب جُنده إلى دمشق؛ رفع العبيد علي بابا وطفقوا يتقاذفونه في فرحٍ يحمدون الله أن رأوا اليوم الذي تضربُ فيه أعناقُ الذين ظلموا. بارك سندبادُ لعلِّي بابا انتصاره، فشكره علي بابا قائلاً لولا معاونتكم ما كنا لنتصر، فإذا ركن الدين ينادي:

- علينا أن نتجه إلى حلب الآن، فقد أنهك الجُند ولم نجلب معنا آلات الحصار أو الخيم.

فحرك الجيش وطلب من بعض الجُند أن آووا أخوانكم وآتوهم طعامًا وشرابًا وأعدوهم لمعركتنا القادمة، وقال بنبرة هزّت أرجاء الصحراء:

- إنكم الآن أحرارٌ، لا عبودية بعد اليوم!

فازدادت قلوبهم فرحًا وأحسوا ويكأن كلَّ الأهمم قد مُحيت وطويت مع صفحات الماضي المظلم، وانطلقت في بحر الذكريات بلا رجعة متمنين أن تظل حائمة فيه فلا ترسو أبدًا.

عاد الرجال إلى حلب فاستقبلهم الناس بالورود والهدايا والبهجة والطبول، ودلف سندباد إلى حلب فوجدها لا تقل جمالاً عن دمشق، بل وجدها خالية من تماثيل المينجوراء البغيضة بل وتعجُّ بحلقات العلم والفقهاء والعلماء وصوت الأذان البهي الذي افتقده منذ قدومه إلى دمشق.

استقبله ركن الدين ومن معه استقبال الملوك واحتفوا بهم وأكرمواهم وأسكنوهم خير الديار وأغدقوا عليهم الأموال والعطايا والهدايا، وانضم

بعض العبيد إلى جيش حلب فألبسوهم لباس الجند وأجروا عليهم النفقات وأعدوهم إعدادًا جيدًا.

كان ركن الدين يعلمُ أنّ فرحته لن تدوم فهم محاصرون من كلّ مدن الشام التي ظفر بها قحطان ومن معه مثل اللاذقية وحمص وحماة ودمشق، لقد حوصروا من كلّ الاتجاهات وكانهم بين شقي الرحي!

وانقطعت عنهم الإمدادات التي كانت تأتيهم من سمرقند بعد أن قطع المينجوراء طريق التجارة عليهم، ولكنه انتصر عليهم في معركةٍ أولى رفعت معنويات شعبه وعاد وجنوده بكثيرٍ من الأسلاب والغنائم.

قرر ركن الدين أن عليه أن يحشد جيشه ويتجه سريعًا إلى حماة وما حولها من حصون ليفتحها وتفتح له طرق التجارة مجددًا وإلا هلك وشعبه.

اطمأن علي بابا على البكتاش وعلم أنهم عادوا إلى كهوفهم ما إن حطمت السفينة أسوار السجن وأدرك أن الناس في الكهوف بخير فبعث إليهم لياتوه إلى حلب فأبوا إذ علموا أن حلب قد يُضيق قحطان الخناق عليها وهم لا قبل لهم بحصارٍ طويل تبلى معه أجسادهم وعزائمهم.

في الصباح طرق علي بابا الباب فأذن له المنصور فدخل وقبل يده وجلس بجانبه قائلاً:

- كيف حالك اليوم يا أبي.

نظر له المنصور نظرة المنكسر الحزين وقال:

- بخير حال يا بُني. لا زلتُ أتعافى، أستيقظ من النوم فأظن لو هلةٍ أنّي لا زلتُ في الأسر فأدور بعيني أتفقد أصحابي ثم أشعل شمعة فأفوق من هذياني وأدرك أنّي في حلب. الحمد لله الذي نجانا من بين أيديهم. كدتُ أهلك كمدًا ونصبًا، فقد كبر سني ووهن عظمي واشتعل رأسي شيبًا.

احتضنه علي بابا وعالج في نفسه ما الله به عليم وقال بنبرة حنونة:

- لا عليك يا أبي. لن أتركك تقع بين أيديهم أبدًا إن شاء الله.
- عليّ أن أسوي ما بيني وبين قحطان يا بني وإلا لن ترضى نفسي، أنا من بعث به إلى تلك الرحلة المشؤومة وجلبت علينا هذا البلاء الذي لا ينجلي، ولذا وجب عليّ أن أنهي ما بدأت وأضع حدًا لطغيانه.
- أسقط في يد علي بابا وقال بنبرة يشوبها الخوف:
- لكنك يا أبي شيخ كبير لا تقوى على القتال، كما أننا لن نصل إلى رقبة قحطان إلا بعد لأي.
- لكننا سوف نصل إن شاء الله. حين يفتح ركن الدين طريق التجارة سأطلب منه أن نحاصر دمشق وسأكون معه في الحصار.
- أطرق علي بابا برأسه واجمًا مفكرًا ثم قال:
- علمتُ الآن من أين ورثت عنادي. سوف أكاتفك إذن ولن أتركك تغيب عن نظري.
- فجأة قطع حديثهما صوت أبواق تدوي فتركه علي بابا وهرول إلى أعلى القصر وكانت المفاجئة.

وضع ميزوراء يده على كبده الذي ألمه ألمًا شديدًا من لكمة سندباد، واندفع داخل مكتبة القصر يقلب في اللفائف والأوراق والكتب ويفتح بعض الصفحات يقرأها سريعًا ثم يقذف بها بعيدًا، وقد أمر الجميع أن يغادورا المكتبة وألا يعودوا حتى يأمر بذلك ففعلوا.

ظل يقلب في صفحات كتب الطب؛ أمسك بكتاب القانون في الطب لابن سينا وظل يقلب بحثاً عن مبتغاه دون جدوى، ثم أمسك بكتاب الحاوي في الطب لأبي بكر الرازي وقلب فيه دون أن يجد ما يرنو إليه. بلغ الغضب منه مبلغاً عظيماً فشرع يمزق الكتب كلّ ممزق ويحطم أرفف الكتب وزار زئيراً عظيماً، ثم سقطت عيناه على كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار الأندلسي.

أمسك الكتاب وقلب فيه حتى وقعت عيناه على ما يصبو إليه فتهللت أساريره وانشرح صدره وطفق قلبه ينبض ببهجةٍ وسرور. طلب من القائم على المكتبة أن يدخل ففعل ومثل بين يديه وقال:

- أمرك يا نبينا الكريم ومولانا المعظم.

- أخبرني عن هذا الرجل ألا زال حياً؟

- ابن البيطار يا مولاي؟ نعم لا زال حياً، إنّه بالأندلس وهو من أعظم من أنجبت الأندلس بل هو عالم عصره في علوم النبات والعقاقير، ولم أعلم رجلاً على الأرض أعلم منه بالعقاقير أو النباتات، حتى أنهم يكتفون به بالنباتات والعشاب.

- وهل الأندلس بعيدة أيها الرجل؟

- إنها في أقصى الغرب يا مولاي، ولكن، لم يريد مولاي ابن البيطار؟

- لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم. انصرف عن وجهي.

خرج الرجل مُسرِعاً وأغلق الباب خلفه. تنفس ميزوراء الصعداء وقال:

- الأندلس إذن.

سمع صوتاً من خلفه يقول:

- ماذا تريد من الأندلس يا ميزوراء؟

التف ميزوراء مُسرِعاً فأبصر داجوراء ينظر إليه نظرة المرتاب، فأخفى كتاب الجامع خلف ظهره وقال:

- لا أريد منها شيئاً، ولكني سمعت أنها أرض غنية تعجُّ بالخير الوفير، ووددت لو غزوناها بعد أن تستقيم لنا الشام.

ضيق داجوراء عينيه ولعق شفثيه قائلاً:

- أتكذبُ عليّ يا ميزوراء وأنا ولي عرش المينجوراء؟ ماذا يقول أبي حين أخبره أنّ العرب قد أفسدوا عقل أكثر رجاله قوة وبأساً وصلابة وإخلاصاً بكتبهم وعلومهم وفلسفاتهم؟ ماذا تظنه يفعل بك؟

انكمش وجه ميزوراء وبدا الغضب جلياً على قسماته فقال:

- ربما يقولُ أن خادمه المخلص ذكي يحاول أن يفهم عقل العرب وعلومهم حتى يسهل الهيمنة عليهم.

ضحك داجوراء ضحكة دوت في أرجاء المكتبة الكبيرة التي تحملُ عشرات الآلاف من الكتب في شتى العلوم كالفلك والطب والجبر والكيمياء والفلسفة وعلوم الدين. اغتاظ ميزوراء منه فقطع ضحكه قائلاً:

- ماذا يضحكك؟

- يضحكني أنك تظنهم ينتصرون علينا بأوراقهم! إنهم بشر ضعفاء لا يقدرّون على ثلاثتنا فما ظنك بجيش المينجوراء كُله جميعاً؟

- لا تستخفن بهم، فقد قال العرب، لو كان عدوك نملة فلا تنمله.

- والآن تقتبس أقوالهم؟ قرأت كتبهم ثم صرت تجلس في هذه المكتبة طوال اليوم تطالع ما فيها بشغفٍ ونهم حتى صرت أشعر أن ذهنك في عالمٍ آخر غير عالمنا، أصبحت شاردًا تفكرُ كثيرًا، تجلسُ صامتًا أكثر وقتك، وفي الليل تتأمل النجوم وتدون بلغتهم بعض ما يدور بخلدك.

- أوتجسس عليّ يا ابن مالوك؟

- نعم أفعّل. فالعثور على السيف الأسود هو سبب قدومنا إلى هذا البلد البائس، وإلى هذه الأرض الجافة الساخنة، ولولا زاهوراء وأشجاره وساحات القتال لجن جنوني من المكوث هنا، لقد افتقدت الغابات والبحار والصيد، فكيف بك وقد استطببت العيش معهم بدلاً من أن تخرج للبحث عن السيف الأسود!

- لقد فتحت كل الحصون التي استعصت عليهم وفعلت ما بوسعي حتى نعثر عليه ولكن ذلك الخبيث قحطان يؤجل العثور عليه عن قصدٍ حتى لا نغادر بعد أن يسلمنا السيف، إنه يريدنا أن نفتح له الشام كلها أولاً ثم بعدها يجلب لنا السيف، وقد حذرتك منه مراراً وإنك لغافل عن مكر أولئك البشر، ولو كنت قرأت بعض ما أقرأ لما خدعك قحطان بخدعه الماكرة.

- قحطان بشري حقير إلا أنه مطيع ويفعل ما أمره به، لكنك صرت متمرداً تفعل ما يحلو لك يا ميزوراء.

- إني لا أحمق عن عقيدة المينجوراء قيد أنملة، لكن هؤلاء البشر الضعفاء لديهم عقل لا نملكه، وإن لعلومهم ونباهتهم وصناعاتهم بهاء لا نقدرُ عليه بقوتنا، لقد أدركت أن القوة شيء عظيم إلا أنها دون علم قد تحيدُ عن مبتغاهما. علينا أن نأخذ علومهم معنا يا داجوراء ونعلمها لقومنا فنزداد قوة على قوتنا.

- لأحرقن هذه المكتبة منذ اليوم حتى تستفيق من سكرتك. لقد سلب عدونا السيف الأسود ولا زلت تحدثني عن العلم وترهاته؟ لم أمرتنا بالانسحاب حتى هلك عزيز الدولة ونحن نفر كالقنطرة؟ أم أنك فررت لأنك عاجز عن القتال.

نظر داجوراء نظرة ذات دلالة إلى كبد ميزوراء فقال الآخر بنبرة أكثر حدة:

- بل لأن المعركة كانت أكبر من أن نقدر عليها، لقد ثار العبيد وجاء جيشُ حلب واختلط الحابل بالنابل، أردت أن ننسحب حتى ننظم أنفسنا ونعيد عليهم الكرة لكني لم أتوقع أن يقاتل عزيز الدولة حتى النهاية ويلقى حتفه وينفر من الانسحاب بعد أن تركناه وحده.

- أظنك قد كبرت ووهن عظمك من كثرة الجلوس على الكتب يا ميزوراء وإن كنت قد مرضت فإني لقاتلك. أعلم هذا جيداً وأجعله نصب عينيك.

خرج داجوراء من المكتبة فزار ميزوراء وحطم عدة أرفف من غضبته.

دخل ثلاثتهم على قحطان فوجدوه واجماً يبكي فزجره داجوراء قائلاً:

- أتبكي والعدو بحوزته السيف. قم الآن وجيش الجيوش لنحاصرهم.
وقف قحطان بجسده البدين الثقيل الممتليء ولوح بطبق الفاكهة في وجهه
قائلاً:

- سحقا لكم جميعا. ألا تملكون قلبا أيتها الوحوش البغيضة؟ لقد قُتل ابني
الوحيد وفلذة كبدي على يد ذلك المارق علي بابا، وقد فر المنصور من الأسر
وقهر جيشي فنقهقهر وشمتم في الشامتين، وأين كنتم أنتم؟ أين كنتم حين
قطعت رأس ابني؟ لقد قاتل وحده حتى آخر رمق بينما انسحبتم وفررتم فرار
القطط! أين قوتكم التي تتفاخرون بها علينا الآن.

رفع داجوراء مطرقتة وهم أن يهوي بها على رأسه ففزع قحطان وتراجع
حتى جلس على كرسيه مضطرا فأوقف زاهوراء داجوراء قائلاً:

- لا يمكننا قتله الآن، فقد يظن الناس بنا الظنون، يقولون قتلوا من بدأ عهدهم
ونصر مذهبهم ودينهم. بينما كنتما تلهيان جيش قحطان الجيوش وأرسلها
لتحاصر حلب من كل حدبٍ وصوب. لقد جمع جمعاً عظيماً من كل أقطار
الشام وهم الآن أمام حلب وعلينا أن نرتاح ثم نلحق بهم.

وقف علي بابا ورأى الجيوش تأتيهم من الشرق والغرب والشمال والجنوب،
ففزع وأدرك أنهم هالكون لا محالة.

ضربت الطبول ودوت الأبواق تحذر الناس فأسقط في أيديهم وذهب الفرع
بهم كل مذهب.

ما هي إلا سويعات حتى عسكرت الجيوش ونصبت المجانيق وأشعلوا النار
في قذائفها وشرعوا يقصفون حلب بها من كلّ اتجاه حتى اشتعلت بمن فيها.

عمت الفوضى أرجاء حلب وركض الناس يصيحون ويستجدون والقذائف
تأتيهم من بعيدٍ حتى أحالت ليلهم نهارة كحجارةٍ من سجلٍ وما لبثت أن هوت
فوقهم فأحرقت النساء والأطفال والشيوخ والرجال والجند وأسقطت البيوت
وحرقت الأسواق وسقرت الأنعام وأشعلت المزارع.

اندفع جُند حلب إلى الأسوار يزودون عنها ويضربون جُند الشام مجتمعة
بالأسهم والرماح، علموا أن حلب آخر معاقل الشام قبل أن يستتب الأمر
لقحطان ومن معه، فأبوا أن يسلموها دون قتال يشهد لهم أنهم رجال صدقوا
الله ما عاهدوا فمَنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً.

سجیل

استيقظ سندباد وصاحبه فزعًا من اهتزاز القصر وعويل الناس فانطلقوا إلى الشرفة فأبصروا حلب تحترق والناس يولون الأدبار لا يعلمون أين يذهبون فالنيران تأتيهم من السماء من كلّ اتجاه، جاء البيغاء محلقًا إلى كتف مروان قائلاً:

- الهلاك الهلاك. يا ويلي، يا ويلي. يا ويل مروان وويل سندباد وويل الأصلع مُهاب.

أمسك مُهاب بمنقاره قائلاً:

- أصمت وإلا شويتك.

استبد بسندباد خور عظيم فكادت ملامح وجهه تتمزق من الألم وصرخ قائلاً:

- الملاعين، لقد جاؤوا أسرع مما ظننا. كيف استعادوا عافيتهم بعد هزيمة منكرة في عقر دارهم؟ لأحرقنهم بيدي تيك كما حرقوا أهل حلب. الويل لهم مما كسبت أيديهم.

ارتدوا ملابسهم وركضوا إلى خارج القصر ووجدوا القصر قد عج بالحركة، فاستوقفهم حكمت قائلاً وهو يرتدي درعه:

- أين تذهبون؟

- لنقاتل؟

- تريثوا قليلاً لا أريد أن تلقوا بأيديكم إلى التهلكة. لن تسقط حلب اليوم فأسوارها منيعة ولن تتهاوى ببسرٍ. سنجمع فرقة ونخرج إليهم. هبط علي بابا الدرج ورآهم يخططون فانضم لهم.

ضُرب الحصار على حلب بسرعةٍ غير واردة في إدارة الحروب وتنظيم الجيوش، لكنه قحطان قد يأس بعد موت ولده وبعث بكل رجاله وجيشه دون تفكير أو تخطيط حتى يُنهي هذا الصراع مرة وإلى الأبد.

جمع حكمت أربعة فرق كل فرقة مكونة من ألفي فارس وقرر أن يشرع بخطةٍ تستنزف جيش الشام، وهي أن يخرج بالمجموعات الصغيرة فيجذب أكبر عدد ممكن من الجنود فيخفض ويقلل من أعدادهم ثم يعود إلى الداخل ويعاود الكرة بعد أن ترتاح الكتيبة.

قسم المجموعة الأولى بقيادة حكمت ومعه سندباد ومروان للتصدي لجيش دمشق عند البوابة الشمالية والمجموعة الثانية بقيادة ركن الدين لحماية البوابة الشرقية ومعه مُهاب والمجموعة الثالثة بقيادة مودود للزود عن البوابة الجنوبية ومعه علي بابا والرابعة كان الهجوم عليها ضعيفا فتركوا جُند الأسوار يتكفلون بها.

جهز الرجال أنفسهم وانطلقت الفرقة الأولى تعبر المدينة وترى الخراب الذي حل عليها والنيران الحمراء التي ارتقت سلم السماء والجثث المحروقة التي قتلت بغير ذنب فزاد ذلك من ألمهم وحفزهم أكثر على القتال. فُتحت البوابة لهم فخرجوا ثم أغلقت من خلفهم، كان حكمت يتقدمهم حاملاً درعاً ضخماً ثقيلاً يُغطي أكثر جسده وعن يمينه ويساره رجلين يحملان قوساً ألياً يسندانه على كتفي حكمت، وبجانب حكمت عدة رجال مثله.

تقدم بعض المُشاة من دمشق واندفعوا بسيوفهم يصرخون فصبوب الرجال بأقواسهم الآلية ثم ضغطوا الأزرار فاندفعت السهام تخرق جُند دمشق وتسقطهم الواحد تلو الآخر. حاول رجال دمشق أن يسقطوهم بقذف الرماح

والأسهم ولكن دون جدوى فالدروع الضخمة كانت تزود عنهم وتقيهم
القتل. 18

وقف سندباد ومروان خلف الرجال وقد أثارتهم تلك الخطة العظيمة، فقد
استعصى على جيش دمشق اختراقهم وقد اقتربوا منه كثيراً.

ظلت الأسهم تسقط رجال دمشق الواحد تلو الآخر حتى انسحبوا ويئسوا
واحتموا وراء الدروع، فلما فعلوا فعلتهم تلك صاح حكمت مُحمساً رجاله أن
اهجموا، فخرجوا من بين الدروع بسيوفهم يتقدمهم سندباد ومروان فلما رأى
جُند دمشق ذلك خلعوا عن أنفسهم لباس الذلة والتحموا بهم واشتد وطيس
الحرب بين الفريقين إلا أن رجال حلب كانوا أكثر تنظيمًا وتخطيطًا فأسقطوا
الكثير من الجرحى والقتلى ثم انسحبوا خلف الدروع وتراجعوا ببطءٍ والنشابة
يمنعون رجال دمشق من التقدم بأسهمهم حتى وصلوا إلى بوابة حلب فدخلوها
ثم غلقت فتنفسوا الصعداء وحمدوا الله على السلامة.

أثنى سندباد على خطة حكمت المذهلة وعلى بسالته.

ظلوا على نفس الخطة ليومين متتاليين وسببوا خسائر جمة في جيش دمشق
حتى أثنوا فيهم وقلصوا أعدادهم. كانت حلب أعسر عليهم مما يظنون!
لكنهم ضيقوا الخناق عليها قدر المستطاع واستمروا في قصف أسوارها
الحصينة وقطعوا طرق التجارة وعلموا أن عاجلاً أم آجلاً سيسلم ركن الدين
مفاتيح المدينة حين يتفشى الجوع بين الناس وتنفذ مواردهم.

لكن جيش دمشق من الشمال أراد أن يُسرِع من وقت السقوط حتى لا
يحصروا المدينة أشهراً طويلة يملُ فيها الجُند فشرعوا يحفرون الخنادق
أسفل المدينة حتى يصلوا إلى سورها فيحفرون أسفله حتى يتهاوى أساسه
ويسقط أسفله، فدأب الرجال على الحفر ليل نهار حتى كادوا يصلون إلى

18 هذه الخطة القتالية القديمة تُشبه الدبابة في عصرنا الحديث، فالجندي الضخم الذي
يحمل الدرع هو جسد الدبابة والجنديان الذان يستندان على كتفه بالأقواس الآلية هم
كالرشاشات الآلية أو مدفع الدبابة الذي يُسقط الجنود.

السور ولكن جُند حلب كانوا يعلمون بقدوم خطة كهذه، لأنها ليست المرة الأولى التي يحاول فيها أحد الجيوش غزوهم.

وضعوا سطل ماء على الأرض بالقرب من السور وراقبوا حركة الماء فيه، فإذا اهتزت صفحة الماء مرارًا وتكرارًا فذلك يعني أن هناك من يحفر أسفلهم، وقد حدث، فقد اهتزت صفحة الماء في عدة مواقع فحفر جُند حلب أيضًا حتى أبصروا الخنادق فصبوا الزيت فيها وأشعلوا النار فاحترق عمال الخنادق، واستخدموا في بعض الخنادق النار الإغريقية¹⁹ فأحرقوا من فيها ثم ردموا الخنادق.

ظلت حلب صامدة حتى وصل المينجوراء فعلم الجميع أن الهلاك قد دنى منهم وأزف.

وقف المينجوراء الثلاثة يشاهدون تعرقل الجُند وفشلهم في التقدم والتوغل إلى البوابة حتى يحطموها فتضايقوا.

خرج حكمت إليهم فهجم عليه داجوراء وتلقى بضعة سهام في جسده لكنه لم يكثرث وشرع يضرب الدروع بمطرقته لكن الدروع تماسكت إلا أن حكمت ومن معه شعروا أن عظامهم تأن مع كل ضربة حتى أسقط بعضهم الدروع من ألم سواعدهم وتراجعوا.

رتل مروان بعض الأبيات فأحيلت الرمال إلى رمالٍ متحركة وطفقت تسحب داجوراء الذي انغرزت قدماه وصارت حركته دربًا من المحال فحاول أن يتراجع لكن سندباد قفز فوق درع حكمت فدفعه حكمت عاليًا فحلق في الهواء والتف وهبط بقبضته على وجه داجوراء فأمسكه سندباد من رأسه بيمناه وسدد إليه عدة لكمات سريعة في وجهه فلطمه داجوراء لكمة شديدة دفعته دفعًا حتى اصطدم بدرع حكمت، ففتح حكمت ثغرة في الدرع سُحب من خلالها سندباد من قبل الجُند وقد سالت الدماء على جبينه. أرسل مروان سلسله لتقيد داجوراء وتبقيه في الرمال فأمسك داجوراء بالسلسل وسحب

سائل حارق استعمله البيزنطيون أول مرة أمام الدولة الأموية حين بعث معاوية بن ¹⁹ أبي سفيان بأسطول بحري لفتح القسطنطينية بقيادة ابنه يزيد. وهو سائل حارق يوضع في سلاح يُشبهه قاذف النيران في العصر الحديث.

مروان إليه ففزع مروان وترك السلاسل فضغط داجوراء على عضلاته حتى تحطمت السلاسل ثم قفز وتراجع مُسرِعًا بعد أن كثرت الأسهم في جسده. أما ميزوراء فذهب إلى الشرق وجرت بينه وبين ركن الدين ومُهاب معارك جمّة كاد يفتك بها بركن الدين لولا قوة مُهاب وسرعته في التدخل.

أما زاهوراء فذهب إلى الجنوب وشرع يخرج نباتاته من أسفل الجنود تسلسلهم وتسممهم وتُهلكهم حتى كاد يظفر بأول نصرٍ في هذه المعركة لولا تدخل علي بابا وسرعته في الركض ومتابعة حركاته بعينيه وقطعه للنباتات بنصله سريعًا.

استمرت المعارك واشتد وطيسها وحميت وانسالت الدماء على الرمال وأرهق الجُند والناس من كثرة القصف والاقنتال المستمر حتى استسلم أكثرهم إذ قل الطعام والماء حتى كادوا يسلمون المدينة ولكن حدثت المفاجئة.

جاء البيغاء إلى مروان وقال:

- انفذ بجلدك. الذهبي الذهبي.

تعجب مروان من مقالته ونظر إلى الأفق فرأى جيشًا مُقبلاً عليهم يحمل علم بغداد!

جاء أحد الرُسل إلى داجوراء مستصرخًا وقال والرعب يسري في أوصاله:

- مولاي جيش بغداد يُحاصر دمشق وليس بها من يدافع عنها فجُل الجند هنا، وهناك جزء آخر من هذا الجيش قادم إلينا بقيادة الذهبي والمعتصم. ما العمل يا مولاي؟

لكم داجوراء الرجل لكمة دفنته في الرمال وأمسك بالرسالة ومزقها وزأر إلى إخوته بغضبٍ شديد أن يعودوا إلى دمشق لأنها إن سقطت خسروا كلّ ما فتحوه من أراضٍ، فانسحب المينجوراء وجهز الجُند عدتهم للرحيل.

امتطى مروان فرسًا وأخذ سندباد وراهه وانطلقا في السر إلى الأفق حتى وصلا إلى الجيش فتفاجئ مروان برؤية أبيه أمامه ولم يعلم أيفرح أم يفزع.

تقدم المعتصم وقال:

- من أنتما عرفا عن نفسيكما؟

تدخل الذهبي قائلاً بتهكم:

- إنّه ولدي الأبله وصاحبه المارق سندباد.

اتسعت عينا المعتصم إذ لم يكن يعلم أنّه سيلاقيهما بهذه السرعة.

ترجل سندباد ومروان عن الفرس وترجل الذهبي وتوجه إلى مروان مُغضباً
وضربة ضربة على رأسه قائلاً بنبرة يشوبها الحنق والغیظ:

- ماذا فعلتُ لبيتليني الله بك؟ ألم أحذرك ألف مرة أن تقي نفسك المهالك وتبقى
بجوارى تتفقه في علوم السيل المبارك؟ لماذا جررت نفسك إلى كلّ هذه
المصائب؟

فرك مروان رأسه من شدة الألم وسادت ملامحه أمارات التذلل والخضوع
والخشية، فضحك سندباد عليه فضربه الذهبي على رأسه أيضاً قائلاً:

- أتضحك عليه وأنت من جررته إلى هذا البلاء! لولاك لما سلك ابني طريق
الضلال والفرار ثم أقحم نفسه في كلّ هذه المصائب.

غضب سندباد ونظر إلى الذهبي نظرة تحد قائلاً:

- إن ابنك هو من أتاني من تلقاء نفسه، ربما عليك أن تربيه بدلا من ضربي
أيها الشيخ الكبير.

قاطعهما مروان قائلاً وقد انقبضت ملامحه:

- والآن تُلقي باللوم عليّ وتنسى أنّي من أنقذتك من الأسر؟

اتسعت عينا الذهبي فصرخ قائلاً:

- قبحك الله. أنت من حررته من الأسر؟

وضع مروان يده على فمه ليخرص لسانه، فقال البيغاء:

- نحن في ورطة. الهرب الهرب.

أطلق مروان ساقيه للرياح وفر يعدو فهرول الذهبي وراءه صارخاً:

- لن أتركك ولو فررت إلى أقاصي الأرض أيها الفتى العاق.

تبسم سندباد ونظر إلى المعتصم الذي كان يرمقه بنظراتٍ غريبة لم يفهم سندباد مغزاها. قال المعتصم:

- بعد انتهاء هذه المعركة عليك أن ترجع معنا إلى بغداد وتمثل أمام المستقوي.

نظر له سندباد نظرة ثاقبة ومط شفثيه قائلاً:

- لك ذلك إن رفعت الظلم عن أهل هذه البلاد. أسلمك نفسي ومالي وأنا مرتاح البال أن الغمة قد انزاحت عن أهل الشام.

قال المعتصم بنبرة اعجاب:

- أنت رجلٌ ذو مروءة وشرف يا سندباد، ولهذا لن تجد راحتك في هذا الزمان الذي قلت فيه المروءة واندثر فيه الشرف.

قبض سندباد على سيفه قائلاً:

- علينا أن نوجد حلب الآن. أشكرك على قدومك كل هذه المسافة.

امتطى سندباد فرسه وسحب فرس الذهبي خلفه وانطلق مع الجيش إلى حلب وفي طريقه رأى الذهبي لا يزال يلاحق مروان والبيغاء يصيح ويولول؛ فأعطاه فرساً وأخذ مروان خلفه على الفرس وطلب منهما أن يأجلا الجدل ففعلا.

انطلق الجيش يشق طريقه عبر الرمال حتى رآهم جيش دمشق الذي يحاصر البوابة الشمالية وكانوا قد هموا بالانسحاب لولا أن داهمهم جيش بغداد.

خرجوا عن طورهم وولوا الأدبار خوفاً ورهباً من جيش الخليفة ولكن بعضهم ثبتوا ونظموا أنفسهم وانطلقوا ينافحون عن أنفسهم ويناطحون جيش بغداد فدارت معركة صغيرة بينهم.

طفق سندبباد يصرعهم بسيفه الواحد تلو الآخر، ومروان يصنع حفراً رملية أسفلهم تبتلعهم وتدفنهم دفناً، فضحك الذهبي وقال يسفه من قدراته:

- هذا مثيرٌ للشفقة! الآن أنظر إلى القوة الحقيقية للسيل المبارك الذي كنت ستتعلمها إن بقيتَ معي في بغداد!

كان الذهبي متمرساً ولم يحتج إلى ترتيل أبيات الشعر حتى يصنع شيئاً. أطلق جيش دمشق عشرات الأسهم تجاه جيش بغداد فرفع الذهبي سبابته، فتوقفتُ السهامُ في الهواء والنفتُ ونزلت لتمطر جيش دمشق وتقضي عليهم بلا هوادة؛ فغر فاهُ سندبباد ومروان إذ رأياه وهما يعلمان أنما هذه شذراتٌ ممّا يستطيع فعله، فقد سمعا عن بطشه بجيش دمشق من قبل بقيادة عزيز الدولة، وأنه صد الجيش وحده ومعه ثلاثة من البكتاش.

اقترب جيش بغداد كثيراً ورفع الجنود سيوفهم، فتراجع الرماة في جيش دمشق وتقدم المشاة برماحهم ليقفوا هذا الجيش الجرار، فإذا الذهبي يُلقى من قدراته حتى جعل رماح الجنود تتحول إلى ثعابين تلتف حولهم وتعضهم، فأخذ الجنودُ يصرخون ويسقطون واحداً تلو الآخر فذعر من في الصفوف المتأخرة مما رأوا.

التحم الجيشانُ وأخذتُ السيوف تتلاطم والرقاب تتطاير والجنود تتصادم. ولما أن بلغ القتال أوجه أخذ سندببادُ يُقتلُ كلَّ من يعترضه بسيفه وينفث نيراناً من يده.

قهر جيش بغداد جيش دمشق فانسحب أكثرهم إلا أن جيش بغداد طاردهم ونكل بهم وقتل جمعاً كثيراً وأسر الكثير منهم حتى وصل ربع الجيش سالمًا إلى أبواب دمشق، بينما انسحبت الجيوش الأخرى إلى ثكناتها وقلاعها ومدنها المحيطة بحلب بعد فشل هذه الحملة.

تنفس ركن الدين الصعداء وهلل أهل حلب فرحاً وطرباً واستقبلوا جيش بغداد بالزغاريد والطبول والورود. لكن مصيبتهم بهلاك بيوتهم وأهليهم جعلتهم يبكون وينتحبون بعد أن انزاحت الفرحة بالنجاة من براثن قحطان وجنده.

ترك الذهبي حامية صغيرة تحمي حلب وتوجه لينضم بجيشه إلى الجزء الذي يُحاصر دمشق ويقصف أسوارها حتى يحاصرها من جهتين ويضيق الخناق عليها. قرر سندباد وصاحباها ومعهم علي بابا أن يتوجها معه حتى يريا نهاية هذا الصراع المرير الذي أهلك الأخضر واليابس. أسر المنصور أن يذهب معهم ولم يقدر علي بابا أن يمنعهُ.

ودعهم ركن الدين وشكر لهم قتالهم معه حتى زوال الغمة، وأخبرهم أن أبواب حلب مفتوحة لهم في كلِّ وقتٍ وحين.

وإذ اجتمع الجيش أمام أسوار دمشق أرسلوا رسلاً إلى قحطان أن استسلم، فتجراً فقتل رسلهم، فتواعدوا فيما بينهم تالله لنتقم. ولما خيم الجميع وجلسوا الليل يتسامرون، نوذي أن أريحوا أجسادكم فإننا إن شاء الله غدا لمقتحمون دمشق، ثم تساءل سندباد عن المينجوراء هل من دون السيف يهربون، أم ما زالوا عليه مصرين، فأزاح هذه التساؤلات عن خاطره وقرأ القرآن حتى نام مع النائمين.

حينها كان داجوراء وزاهوراء ينظران إلى قحطان مُشمئزَّين غاضبين، فقال داجوراء لقحطان الذي كان يرتجف ارتجاف المفزوعين:

- أيها اللعين لقد أبقيناك حياً لعلك تنفعنا، فأرسلت الجيوش دون أن تستشيرنا وها قد هلكت، والآن لا يزال السيف في يد أعدائنا، وها هم أولاء يوشكون أن ينسفونا ويضيع كلُّ ما بنيناها في سنوات طوال عجاف، فقل لي شيئاً يشفع لك عندنا!

لم يقدر قحطان هذه المرة أن يتحداهم ويقرعهم لأن الخطأ قد وقع عليه وإن تحديه لهم سيجلب له هلاكاً عاجلاً لا مفر منه، فأسكت الغضب في نفسه فركع ورفع يديه يترجى داجوراء قائلاً:

- مولاي لم يكن هذا في حسابنا، فبغداد ظلت رهينة ضعفها سنين عدداً، ولا نعلم ما تغير فيها حتى يقرروا أن يباغتونا هكذا، ولكن أعدكم أننا سنظفر بالسيف هذه المرة ظفراً مؤكداً.

اقترب داجوراء منه وأمسك به من ملابسه ورفعها عاليًا والشرر يتطاير من عينيه يريد أن يقتله، وقال بنبرة حادة:

- وأنى لك ذلك أيها الوغد؟!

- لا زال في جعبتي بعض الخدع، ولكن أسألكم أن تصبروا عليّ قليلاً!

- إن أنت إلا تماطل كما تفعل دائماً .. لأقتلك الآن وأسترد هذا السيف بالقوة!

دلف ميزوراء إلى غرفة العرش فرأى داجوراء يوشك أن يقتل قحطان وزاهوراء واقف لا يريد أن يتدخل هذه المرة، فركض إليه وأمسك بيده قائلاً:

- لا تقتله الآن، ما زلنا نحتاجه وإلا فلا مُسيطرَ لنا على جموع البشر في دمشق وعلى الجيش .. فلنعطه فرصةً أخيرةً ثمَّ إن فشل نقتله.

نظر له داجوراء بمقتته وغضبه وقال والضيق قد استبد به من إيقافهما الدائم له عن قتل قحطان:

- ها قد جاءنا ميزوراء الذي يختفي دومًا ثمَّ يظهر فجأة كي يوقفني! أين كنت يا ذا السلوك المريب؟! أكنت في المكتبة تارة أخرى؟ تالله لأحرقها حرقاً بعد أن ينتهي هذا الحصار.

رمقه زاهوراء هو الآخر في ربيبة، فرد ميزوراء من بعد إذ لاحظ الشك في أعينهما:

- تالله إنك لفي ضلالك القديم.

- قل لنا إذا، لم فشلت في الحصول على السيف من هذا البشري الضعيف حين ناجذته؟! ميزوراء الذي أعرفه كان ليأخذ السيف بلمح البصر، فماذا حدث إذًا؟! أو هن العظم منك وثقل جسدك من طعام البشر وشرابهم وكتبهم وفسفاتهم؟! أم أنّ بك مرض أضعفك لا تريد أن تُفصح عنه؟ ألا تفصح فتريح وتستريح؟

انقبضت قسما وجه ميزوراء وقال بحدة أحسن اصطناعها:

- لن أسمح لك أن تُهين قوتي يا داجوراء فأنت تعلم جيدًا من أنا، وإنَّ هذا البشري ليس بلقمةٍ سائغةٍ كما تتوهم، فليديه من القوة ما تُمكنه من حمل السيف الأسود. ثمَّ إنكما أيضًا فشلتما في القضاء على صاحبيه وها قد طُعن زاهوراء في كتفه، أفوهن العظم منكما أنتما أيضًا؟!

- إذاً ماذا يفعل كتاب الطب في حقيبتك الآن، ولماذا تملأ خرائط الأندلس جيوبك؛ خيّرنا ما هي نواياك الحقيقية أجئت للسيف أم لأمر آخر نجهله، ألهذا طلبت من مالوك أن تذهب في هذه المهمة وحيداً لكنه أصر أن نذهب معك؟!

- أتفتشني وأنا غافل! .. تلك أمورٌ أفعالها لنحيط علمًا بعالم البشر كي نحقق غايتنا العظمى كما خبرتك من قبل، وأنا سأثبت لكما أنني قادر على الظفر بالسيف من ذلك الذي يدعى سندباد، فقط دع قحطان الآن وسأحضر لكما السيف وإن كلفني حياتي!

زمجر داجوراء في ضيقٍ وتردد ولكن أذعن لطلبه وترك قحطان وهو يقول:

- سنرى إن كان ميزوراء الذي أعرفه لا زال موجودًا لأن الوسائوس قد بدأت تداهمني في أن البشر قد عبثوا في رأسك أو أن بك مرض خبيث تخفيه، ثمَّ إنك تتصرف أحياناً كما يتصرف البشر وهذا أمر عظيم!

- لم أوقفك إلا وقت الضرورة، وسأريك أنني ما زلت أنا، وإنما هي أوهام عصفت بلُبابك.

لم يكن لدى قحطان خطة كما يزعم ولكنه كان يماطل ليبقى على كرسيه الذي يتهاوى أسفله، فخطرت له فكرة قد تخرجه من مأزقه هذا، فقال حازماً أمره:

- لأذيقنك يا علي بابا ضعفي ما أدقنتني ثم لا تجد لك عليّ نصيراً.

فبعث في اليوم التالي رسولاً إلى قائد جيش بغداد يقول:

- إنا مستسلمون مقابل التفاوض مع المنصور وابنه، ويمكنكم أن تحضروا من تريدون على ألا يزيد عددهم عن عشرين.

فانقسم على إثر الرسالة أولو الأمر من جيش بغداد فريقين: فريقاً يرى أنها خدعة ليستدرجوهم، وفريقاً يرى أنها يؤمن قحطان استسلامه.

فأنهى الذهبي الجدل قائلاً بحزم:

- سنذهب، فإنكم تعلمون ما أتاني الله من قوة، فإن طراً طارئاً فإني إن شاء الله لهم تصدّي.

فوافق الجميع على اقتراح الذهبي، ولما دلف الوفد إلى دمشق في صحبة جُند قحطان راقبوا أي حركة قد تبدو مريبة. كان عامة الشعب يشاهدون ما يحدث من نوافذهم ومتاجرهم وقلوبهم واجفة من بعد إذ علموا أن جيش بغداد يحاصرهم، فأدركوا أن نهايتهم قد اقتربت وسيحاكم بعضهم على ما قدمت يداه.

وإذ حضر الوفد قحطانَ طلب منهم الذهبي أن ينتظروا أمام غرفة العرش حتى يتأكد ألا يدبر لهم مكيدة ودلف وحده فرأى قحطان يجلس على عرشه يرمقه في زهوٍ وخيلاء؛ فقال الذهبي بصوتٍ أجش:

- يبدو أنك تعقلت أخيراً وقررت أن توقف هذه المهزلة!

ابتسم قحطان وقال بغرورٍ عظيم:

- قد يكون ذلك صحيحاً، وقد يكون الأمر غير ذلك.

فأحس الذهبي أن هناك شيئاً غريباً فركز ذهنه وجعل يستشعر طاقةً من حوله، فإذا أناسٌ مختبئون خلف الأبواب ومن بينهم قوى رهيبية لم يشعر بمثلها من قبل، فأيقن أنهم المينجوراء، فنادى أن احذروا ووضع على الباب حائلاً من السيل المبارك يمنع وفد بغداد من الدخول لئلا يشتتوه ولأنه يخاف أن يُقضى عليهم فإذا جذور كثيفة تخرج من الأرض لتلتف حوله، ولكنه صدف عنها قافراً فأحس ميزوراء يندفع من خلفه دفعةً سريعة، فقفز الذهبي من فوقه وضرب صفحة عنقه براحة يده فأسقطه أرضاً فوثب ميزوراء من سقطته فإذا داجوراء يهوي على الذهبي بمطرقة فتراجع خطوة إلى الخلف فتفادها فإذا نباتات زاهوراء تريد أن تمسك به فحرك يده مُصدراً ريحاً كالنصال قطعت النباتات تقطيعاً، فلمح اندفاع ميزوراء إليه دفعةً أخرى وداجوراء يباغته من الخلف فاخفى الذهبي ليظهر في منتصف الغرفة وقحطان والحرس من حوله ينظرون مشدوهين من صمود الذهبي أمام

المينجوراء. اندفع ميزوراء إليه يضرب بخناجره ضرباً سريعاً فشرع الذهبي يتصدى لضرباتة بكف يده صداً بارعاً فإذا داجوراء يهرول مندفعاً كثور هائج ليطلق العنان لمطرقته فانقذت صوب الذهبي فانحنى فمرت من فوقه وقفز إلى الخلف وهو موقن أنهم يريدون أن يستدرجوه، فأمسكت النباتات بالذهبي من الخلف وأحاطته فأخذت تسحب منه قوته فما استطاع أن يقاومها وما استطاع أن ينسلخ منها، ففعل خدعة أخيرة كمحاولةٍ أخيرة حتى ينقذ ما تبقى له من قوته فانقل من القصر.

تغشته ومن معه أضواءً مختلفة الألوان، فلما أن انطلق الجند والمينجوراء خارج غرفة قحطان ليقتلوهم؛ اختفوا من القصر، فهبَّ قحطان واقفاً من على عرشه مذهولاً أن أفلتوا من خطته المحكمة، فصرخ قائلاً في حرسه:

- ابعثوا كل رجالكم بحثاً عنهم، لا يمكن أن يكونوا قد ابتعدوا كثيراً.

قال زاهوراء المتدثر بقنسوةٍ سوداء ونباتاته تثوبُ إلى الأرض:

- إنه أقوى مما ظننت، ولكنهُ سيظل داخل أسوار دمشق فقد استنفدت معظم قوته بل لعلها فرغت كلها من تنقله خارج القصر، لذلك فهو لن يشكل خطراً علينا.

استل ميزوراء خنجره قائلاً يزمع استرجاع السيف:

- لقد حان وقت الصيد!

أثار الذهبي ومن معه الرعب في قلوب أهل دمشق وهم يتساقطون على البيوت ويكأن السماء تُمطرُ أناساً. فلما أن هبط الذهبي، اتجه إلى أحد الحارات وقعد كي يختفي عن الأنظار، فتبعه مروان فأمره الذهبي أن فُذ رفاقك إلى بر الأمان واطركني فإني أستطيع تدبيرَ أمري، فتركه مروان على مضض، فذهب إلى سندباد الذي كان يتفقد صحة الجميع. حاوط جُند بغداد علي بابا ومنصور وسندباد وصاحبيه كي يحموهم ونزعوا في جريهم إلى باب الخروج لئلا يدركهم جنود قحطان، والناس ينظرون إليهم في دعر شديد.

وبعد فترة حاصرهم جند الوالي من الأمام، فتلاحم الجمعان فجاوزهم وفُذ بغداد بالرغم من قلة عددهم، فسمع شرطة المدينة جلبتهم فتوجهوا إلى مصدر

الصوت، فكثُر عددهم ففتشتت الوفد ولكن اتفقوا أن يجتمعوا عند البوابة الشمالية.

فاتخذ سندباد وبعضُ جند بغداد الجانب الأيمن فتبعهم علي بابا وهو يُمسكُ بأبيه مسكًا محكمًا، واتخذ مروان الجانب الأيسر فتبعه مُهاب ليدعمه، كذلك انقسموا فريقين ليشتتوا ملاحقوهم من جنود الملك.

شغل مروان بعضهم بأن صنع نسخًا رملية تصدهم كي يتيسر لهم الهرب، وأحرق سندباد البيوت من ورائه بعد أن أيقن أنها خالية من ساكنيها، ليمنع أعداءهم من التقدم.

حينها كان المينجوراء يراقبونهم من فوق البيوت، فعزم ميزوراء أن يقتل سندباد فطلب من داجوراء وزاهوراء أن اذهبا أنتما وراء صاحبيه واتركا سندباد لي، فهبَّ ميزوراء يقفز قفزا رشيقا من فوق البيوت متجهًا ناحية سندباد ومن معه، فلما أن اقترب قذف ثلاثة جنود منهم بخناجره فسقطوا صرعى، وقفز مباغتًا سندباد فناداه السيف أن احذر فوقك، فتنحَّى سندباد عنه، فلمح علي بابا ما وقع فجرى بأبيه كي يخفيه في إحدى الحواري ليعصمه من الأعداء.

التف سندباد بعد إذ تفاداه، ورفع سيفه ليصد ضربته المقبلة فتلاحمت النصال، فأبعد ميزوراء خنجره وقفز إلى الورا مُستقرًا على أحد البيوت، وقال وشرر الانتقام يتبدى على ملامحه:

- هذه المرة ليست كالتى سبقت، سأخرج كل ما في جعبتي!

فاحمرت حدقتا عينيه، وارتعش البيئ من تحته، وتضخمت عضلاته، وخرجت مخالبه أكثر حدةً وطولًا، فهوى ميزوراء إليه فما كاد أن يراه سندباد من سرعته، فصدف عن مخالبه من قبل أن تقرضه، فمر ميزوراء بجانبه من دون أن يُصيبه، فضرب برجليه أحد البيوت وارتد كرةً أخرى، فتدحرج سندباد فجرح كتفه وهو يبتعد، فنظر خلفه يبحث عن ميزوراء فإذا هو يرتد كالمطاط ليباغته كرةً أخرى، ظل كذلك حتى أثنى سندباد جراحًا، فرفع سندباد سيفه في وجهه إذ ارتد لينغرز في رأسه، ولكن تفاداه ميزوراء بأن دار في الهواء متفاديًا طرف السيف، فحرك سندباد السيف بسرعة صوبه

فجرحه جرحًا غائرًا في صدره، فسقط ميزوراء وهو يزمجرُ وقفز فوق أحد البيوت حتى توارى، فوقف سندبادُ ساجيًا ينظر إلى يده النارية يتساءل:

- لم لم أحرق هذه البيوت من قبل لئلا يستغلها ضدي دائمًا!

فرفع يده مصوبًا إياها على أحد البيوت، فلما أن تسجرت أخرج نارًا لظى وطفق يدور كالمجنون يحرق ما تراه عيناه، حتى تبرت النيران ما حوله تتبيرا فأضحت ساحة المعركة جحيماً، فقال سندباد يستفز ميزوراء:

- سمعتُ أن القطط تخاف النار، والآن ليس لك حلٌ إلا أن تهرب أو تقاتل من دون حيلك هذه، أو بالأحرى قاتلُ كالأسود!

ظنَّه سندبادُ قد هرب إذ رأى النيران تبتلع كل شيءٍ فإذا جنَّي السيف يُحذرُه، فوجد ميزوراء يندفعُ منقضاً عليه من بين النيران، فصد سندباد ضربته، فانهال ميزوراء عليه بضرباتٍ متتالية سريعة فطفق سندباد يصدّها يحاول أن يواكب سرعته وقوة ضرباته التي تهز أوصاله مع كلِّ ضربةٍ حتى ارتمى ميزوراء عليه يحاول أن يُمسك به بيديه، فانسل سندباد من تحتها وناوله بسيفه في صدغه فجرحه، فالتف ميزوراء وهو غاضبٌ ووكزه في وجهه فوق على الأرض سندبادُ والدم يهراق من فمه ومنخاره من شدة الضربة، فوثب رغم آلامه لأن أي بطء سيكلفه حياته.

رفع سندبادُ يده رَفَعَةً أخرى مولياً راحتها جهة ميزوراء فطفق ينفث منها نيراناً يُلاحقه بها وهو يركض في دوائر حول الساحة لئلا تصيبه النيران، فإذا هو يهبُّ قافزاً من فوقها ليرتمي على سندبادٍ بسرعة هائلة، فلوح سندباد بسيفه فتراجع ميزوراء من قبل أن يمسه السيف واندفع دفعةً أخرى، فألقى سندبادُ يستجمع كرة نار مضغوطة ويدفعها عليه فأحرقت قبضته التي كادت تضرب وجه سندباد، فأبعد ميزورا يده وهو يتألم، فاستغل سندباد هذه الثغرة فأطلق كرةً أخرى فلما أن دنت من ميزوراء حرر سندباد الطاقة الكامنة فيها فانفجرت فيه فاندفع إلى الخلف من قوة الانفجار ليصطدم بأحد الأطلال، فأكلت النيران بطنه حتى أغطشت، فاستشاط غضباً وزار زئيراً مرعباً أطفأ النيران من حوله، فأدرك سندباد أن القادم أسوأ، فحدثه الجني قائلاً:

- ألم يأن لك أن تجعلني أقود القتال!

- اصمت! .. أنا لم أُهزم بعد!

- يبدو لي أنك ستُهزم هزيمة نكراء!

- إن هزمتُ يمكنك حينها تولي زمام الأمور.

- ألا إنني لا أرغب في السقوط في يد هذا الأحمق ميزوراء فالسيطرة عليه ستكون يسيرة ومملة ولكنك نوعي المفضل يا سندباد، فأنا أستمتع بإغراق من هم مثلك في الظلمات، وأتلدذ برؤيتهم يستسلمون ويتخلون عن أوهامهم الأخلاقية.

تجاهله سندباد وأيقن الجني أن سيسلمه زمام الأمور بمرور الوقت حتى يسلم سندباد روحه إليه، ولما أن رأى جوهرة السيف البيضاء يشوبها سوادٌ قال:

- سأعلمك إذا بعض أسرار هذا السيف كي تنتصر عليه.

فهبَّ ميزوراء يسبح إليه والشرر يتطاير من عينيه والبخار يتصاعد من جسده يمشي مشياً وئيداً والشمس تلقي بأشعتها على شعره الذهبي فتجعله يلمع فتضفي جاذبية على وجهه الغليظ وهيئته المخيفة. اختفت النيران من حولهما وغطى الرماد الساحة، مرر سندباد يده النارية على السيف فأضاءت نقوشه، فرفع السيف بعد أن فهم فائدة هذه النقوش، فقال وهو يلف سيفه في الهواء باستدارة:

- هذه واحدة.

لوح سندباد بالسيف في الهواء، فإذا نصلٌ ناري يخرج من سيفه منطلقاً إلى ميزورا فتفاداه وما كاد يفعل، فاندفع إلى سندباد مسرعاً فباغته نصلٌ آخر، فقفز من فوقه ونزل بقدميه على صدر سندباد نزلةً ثقيلةً قذفته إلى الخلف وأوقعته أرضاً، فبصق سندباد الدماء من فمه وأحسَّ وكأن قفصه الصدري يكاد يتحطم من قوة النزلة، فوقف يستند على سيفه وجسده يئن من الآلام فإذا ميزوراء ينطلق إليه مجدداً، فقال وهو يغرز سيفه في الأرض:

- إليك بالثانية.

فإذا أنصال نارية تخرج من الأرض مُتتالية مُنطلقة إلى ميزوراء فحاول أن يحيد عنها فجاءه ألم جنبه فتوقف في مكانه وجعل يبصق دمًا غزيرًا، فاخترق نصلان ساقه اليمنى وأكلتها النيران فتألم ألما شديدًا، فقال سندبادُ مُتعجبًا إذ رآه يُمسك جنبه:

- أريض أنت! هذا عجيب لما إذا تتكبر حتى أنك ادعيت النبوة؟!!

- صه! إنك لا تعلم ما ذقناه في أرضنا، إنني إن ظهر مني ضعفٌ أو تراخٍ سينقض علي من يطمع في منصبِي!

- وما هي مكانتك هذه التي يطمع فيها من هم أقل منك سلطةً؟!!

- إنني من الكهنة الستة المعاونين للنبي الأكبر مالوك.

- ولم إذا لا تعالج نفسك كي تظل في مكانتك هذه؟!!

- إنَّ الطبَّ عندنا متدنٍ لا يرقى لمستوى الطب عند العرب، إنكم بذلتم الجهود كي تستكشفوا العالم وانشغلنا نحن في الحفاظ على مكانتنا وصعود المراتب لئلا يدوس علينا من هم أعلى منا مكانةً ولئلا يباغتنا من هم أقلُّ منا مكانةً ونحن غافلون، فالنظام عندنا يتكون من رتب، ولكي ترتقي إما تساعد من هو أعلى منك رتبةً بأن تفعل أمرًا عظيمًا وإما تغتال من هو أعلى منك رتبةً فتأخذ مكانه حسب قوانيننا، لذلك يطأ من هم فوق على من هم أدنى منه رتبة حتى يتقي غدرهم، ويُنشئ التحالفات من أجل مصالحه وحمايته ولكن حتى هذه التحالفات لا تسلم من الخيانات. وإن أعلى رتبة هي رتبة النبي الأكبر ثم الكهنة الستة وهذه المكانة تجعل الجميع يقدسك فلا يجرؤ أحدٌ على المساس بك إلا نادرًا وقد قاتلت طوال عمري كي أصل إلى هذه المكانة لأمن شر من حولي ولن أسمح لمرضي أن يُفقدني مكانتي، وإني لما تحدثتُ مع بشري جاء في بعثة بغداد إلى أرضنا أنبأني أن البشر يُعالجون الأمراض المستعصية، فعزمت من حينها أن أسافر إلى أرضكم كي أعالج مرضي، ولكن لم تأتني فرصةٌ إلا لما أتانا أسطول دمشق، فطلبت من النبي الأكبر أن يجعلني أذهب في مهمة السيف هذه وحدي لئلا يعلم أحدٌ بمرضي.

التقط سندباد أنفاسه بصعوبةٍ ومسح الدم عن وجهه وقال:

- وما الذي يجعلك تعيش في مجتمع كهذا، مجتمع ينهش القوي فيه الضعيف، مجتمع كلُّ فيه مرتاب من الآخر متربص به، تتعاملون مع بعضكم بعضا على سبيل المصالح لا على السبيل التراحم!

- هكذا نشأت وهكذا هي معتقداتي!

- هكذا حياة مبنية على الصراع بين الناس لا تطاق، إن الحياة التي يريدنا الله بحق هي حياة التراحم والتوادم بين الناس، حياة قائمة على الفوز الأخروي لا الفوز الدنيوي الزائل. إنكم إذ وضعتم الدنيا نصب أعينكم جعلتم تتنافسونها فأهلكتم كما أهلكت الذين من قبلكم، ونحن حين فعلنا مثلكم انظر ماذا أصابنا؟ انظر حولك إلى دمشق، وإلى الدماء التي سفكت في هذه الحروب الطويلة! هكذا هي الدنيا حين يتنافس الناس عليها، تهلكهم جميعًا ولا يظفر بها أحد، فيعود الجميع بجراح لا تندمل وحقد لا ينطفأ وخسائر لا تعوض. أتري أرض الله صغيرة حتى لا تتسع لنا جميعًا؟ إنها تتسع للجميع وبها من الخير ما لن ينفد لقرون، فلماذا لا نهدأ ونكف أيدينا ونقتسم هذا الخير سويًا ونترك بعضه لمن بعدنا؟ لكنَّه الجشع وحب الدنيا، أمران لا يجتمعان في أمة إلا أهلكاها. وأنتم لما جنتم تسلبون أرضنا وشامنا؟ أضاقت بكم أرضكم وسماءكم حتى تسلبونا أرضنا؟

اصغ إليَّ .. إنك إن غيرت أفكارك المبنية على هذه الوحشية وتخليت عن كبريائك، فإني أعلم طبيبًا ذاع صيته يعالج شتى الأمراض المستعصية!

- إن الموت وأنا مريض خيرٌ لي من أن أنحاز إلى بشريٍّ ضعيفٍ مثلك! كما أنني أعلم طبيبًا بارعًا وسأذهب إليه بعد أن أظفر بالسيف الأسود.

- يبدو أنك لا تفهم إلا لغة القوة! إذاً لأحطمن كبريائك هذا الذي يجعلكم تظنون أن البشر ضعفاء ثمَّ أعالجك! أعلم أنك ضحية نشأتك وبيئتك، وأعلم أن ما زال فيك خير لأنك يظهر عليك استنكار معتقدات مجتمعك ذلك، ثمَّ إنك ظلت تتحدث معي مدة طويلة لم تستخدم فيها القوة!

- إنك قد تنجح إذا حاججتني كلاميًا، ولكن القوة ليست تخصصك!

- لنرَ إذاً!

ركض سندبادُ مبتعدًا عن القتال بعد إذ جاءتَه فكرةٌ، وأخذ يدعو أن اللهم انصرني إنك أنت القوي العزيز، فتبعه ميزوراء وهو يعرجُ والدم يهراق من جراحه، يقول غاضبًا:

- لات حينَ فرار أيها الجبان! أتفر من بعد أن ادعيت القوة!

ظلا يركضان طويلًا وسندباد لا يقفُ حتى وصلا ساحة الأسواق التي يقع فيها مقر التماثيل التي كان يقدم الناس فيه القرابين لرب النور، لم يرد ميزوراء أن يُظهر وجهه أمام الناس لئلا يعملوا هويته ولكنه أوشك أن يسلب سندباد سيفه فقرر ألا يتراجع، فإذا سندبادُ يصرخ في الناس قائلاً حتى ينتهبوا إليه:

- أيُّها الناس، قد أضلكم قحطان وحرف دينكم سنينا من أجل هذا السيف الذي في يدي، إن هذا الذي يتبعني الآن هو أحد الأنبياء الذين تقدسونهم.

فانتبه الناسُ إليه والجراح تثخنه والكلام لا يكاد يخرج منه، فأسقط في أيديهم إذ رأوا هذا المخلوق الذي يُشبه التماثيل التي يتقربون إليها زلفى وهو مثخن جراحًا، فاستكمل سندباد قائلاً:

- ها أنا البشري الفاني قد استطعت أن أثنى واحدًا من أنبيائكم كل هذه الجراح، فأنى إذاً يكون هذا الوحش المفزع نبيًا كريمًا؟! لأهزمنه أمامكم لتعلموا أن وعدَ الله حق، وأن هؤلاء وحوش جاؤوا من أرضٍ غير أرضنا ليسلبونا أرضنا وحقنا ويحرفون ديننا حتى يغزونا غزوا لا يُبقي ولا يذر.

وقف الناس يتفرسون ميزوراء في رهبةٍ ممزوجة بمشاعر مُضطربة مختلطة، فلم يكُ يظن أحدٌ منهم أن يرى نبيه المقدس وحشًا مفزعًا بل وعلى حاله المتردي هذا، فلما أن انتهى سندباد من كلامه انطلق إليه وهو يضغط على قدميه لا يريد أن يظهر عرجه أمام من يؤمن به، فلما أن التقيا طفقاً يتبادلان ضربات خاطفة حتى أزاح ميزوراء السيف عن يد سندباد، فركل ميزوراء سندباد فتفادى ركلته فنزل ميزوراء بكلتا يديه على رأسه فسقط سندباد وكاد يغشى عليه.

نظر سندباد حوله فإذا الرؤية تتلاشى ويكأن كل ما حوله أضحى سرابًا، فوجد ميزوراء ينزلُ عليه نزلةً أخرى فرفع يده النارية وأمسك بيد ميزوراء، وضرب بيده الأخرى وجهه حتى يفيق، فلما أن أفاق وقف وهو ينظر إلى ميزوراء بتصميمٍ شديد، وهبَّت يده تتوهج فأحس ميزوراء أن قبضته تحترق فتألم فركل سندباد بقدمه فطار إلى الخلف وسقط قريبًا من سيفه وهو يحس أن جسده لا يكاد يتحمل الوقوف، فدعا أن اللهم امدني بالقوة واقترِب من سيفه وأمسك به ومشى إلى ميزوراء الذي كان ينظرُ إلى قبضته في وجعٍ شديد، هز سندباد سيفه حتى إذا رضي منه قذفه به كالرمح من دون أن ينتبه، فمال عنه ميزوراء فسلك السيف في عضده بدلًا من صدره، فصدم الناس إذ رأوا السيف يخترق عضد نبيهم ويكأن عقيدتهم هي التي اخترقت. لم يستطع ميزوراء أن يحرك ساكنًا لأن السيف المشتعل كان يأكل عضده أكلا، فأمسك بمقبض السيف وأنشأ يحاول إخراجَه وهو يتأوه يشعرُ كأنما هي نهايته، فلما أن أخرجه بعد معاناة تحرك متجهًا إلى سندباد وهو يترنح فحاول أن يضربه به فتفادى سندباد ضربته البطيئة الضعيفة ووكزه بقبضته المشتعلة فتفاداه، فناوله سندباد مثنى وثلاث ورباع حتى كاد يُهشم وجهه، وقبل أن يقع على الأرض أمسك به سندباد من وجهه ورفعَه في الهواء فاتسعت أعين الناس من الدهشة، فقال سندباد:

- وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ!

فحمل سندباد جسده وركض به ويكأنه اتخذه درعًا بشريًا وشرع يحطم به الأصنام المرصوفة بشموخٍ على جانب السوق، فسقط صنمٌ وراء صنم حتى تحطمت كلها، فوقع ميزوراء على الأرض فاقدًا وعيه، فرفع سندباد سيفه وقال والكلام لا يكاد يخرج منه:

- الْيَوْمَ قَدْ سَقَطَ أُولَ أَنْبِيَائِكُمْ " ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ "

فهلل بعضُ الناس كأنما انزاح همُّ ثقيل عن قلوبهم، كان هؤلاء ممن يكتمون إيمانهم، أمَّا من عبد المينجوراء مخلصين فقد صدم المشهد إيمانهم وظلوا يتأملون لا ينبسون ببنت شفة.

قعد سندبادُ بجانبه يتنظر حتى يستعيد ميزوراء وعيه.

الإنسان

وإذ يركض مروان ومُهَاب وبعضُ الجنود؛ أحسَّ مروان طاقةً هائلةً تقترب، فحذر مُهَاب ودفعه بيده وتدحرج هو إلى اليمين ليتفادى نباتات زاهوراء، فمرت مطرقة داجوراء بجانب مُهَاب الذي لولا دفعُ مروان لهشَّمته، ركض مروان والنباتات تُطارده، يحاول استدراج زاهوراء بعيدًا عن أصحابه، فإذا داجوراء ينظر إلى مُهَاب فيقول هازنًا:

- ها نحن نلتقي مرةً أخرى أيها الفتى الحاقد، الآن فلنسو حساباتنا!

انطلق جنود بغداد إلى داجوراء المُلثم، فحذرهم مُهَاب أنْ ابتعدوا، ولكن كان قد فات الأوان لأن داجوراء لَوَّح بمطرقتة في الهواء وأسقطهم جميعًا بضربةٍ واحدة، فسقطوا على الأرض إمَّا مغشيين وإمَّا مقتولين.

فنظر إليهم مُهَاب بقنوطٍ وقال لداجوراء وهو يغلي من داخله:

- أيها الحقير، ليس حسابك معهم وإنما معي أنا!

- ما فعلتُ شيئًا إلا أنْ دافعتُ عن نفسي.

ابتسم داجوراء فبرزت مخالبه وخلع عنه قلنسوته فتجلى جسده الضخم ووجهه المخيف، فرفع مُهَاب سيفه الضخم واندفع إليه مسرعًا فانهال عليه ضربًا وداجوراء يصدُّ ضرباته بمطرقتة، كذلك ظلَّ حتى غرز مُهَاب سيفه في الأرض واستند عليه بيده لينقلب في الهواء ويركل داجوراء في صدره ركلةً دفعته إلى الخلف، فقال داجوراء مُتهكمًا ساخرًا:

- أهذا هو أقصى ما لديك! .. ولكني مع ذلك أثنى عليك لأن ما من بشري مسني من قبل!

ابتسم مُهاب وقال وقد أسند سيفه على كتفه:

- ولن يمسك بشري أبدًا، لأنك مقتولٌ ههنا!

دقق داجوراء في بنية مُهاب القوية وقال لنفسه متسائلًا:

- أیظن واهمًا أنه ببنيته هذه أشدُّ مني قوةً! ما سر هذا البشري، لما لا يزال صامدًا أمامي؟!!

ثبت داجوراء قدميه في الأرض وزمجر زمجرةً عاليةً فأصبح أشدَّ قوةً، فأمسك بمطرقته وكأنها ريشة في يده، ولفها في الهواء بضعة مرات وقفز عاليًا فنزل على مُهاب بها، فترجع مُهاب إلى الخلف فنزلت المطرقة على الأرض فتفتت الأرض تفتيتًا، فاندفع داجوراء كَرَّةً أخرى وطفق يضرب مهابًا ضربًا عنيفًا عشوائيًا، ومهاب يتفادى ضرباته حينًا ويصدها بسيفه حينًا فيحس عظامه ترتج من أثر الضرب، فباغته داجوراء بضربةٍ أفقية فصدها مُهاب فإذا هو يُرْكَلُ في بطنه ليندفع إلى الخلف ويستقرُّ على الأرض يشعرُ أنَّ أضلاعه قد انكسرت، فتحامل على جسده وهب واقفًا، فإذا داجوراء يُباغته بأخرى في جانبه الأيمن فحلق واصطدم بأحد البيوت، فلما أن ذهب مهاب لينهض وجد داجوراء قد قفز نحوه وركله بكاتا قدميه ليحطم البيت وكلَّ ما في داخله ويخرج من جانب البيت الآخر، ظن داجوراء أنه قد قضى على مهاب لأن هذه الضربات كفيلة أن تفتت أعتى أنواع الصخور. اتجه داجوراء ليتفقد مهابًا فسمع صوتًا يقول من بين الحطام:

- لم ألك أنوي أن أستخدم هذه القوة أبدًا .. ولكن لا خيارَ آخر عندي فقد أقسمت أن أقتلكم أجمعين واحدًا تلو الآخر لما أنزلتموه بنا، ويبدو أنك ستكون أول انتقام لي يا ابن مالوك!

صعق داجوراء مما قاله مهاب فقال بتوجس:

- كيف لم يمت بعد!، ثمَّ كيف علم اسمَ أبي؟!!

فإذا مهاب يخرج من بين الأطلال والدماء تُغطيه، وإذا هو يتحول إلى هيئة غريبة مجهولة، فكسا الشعر الفضي جسده كله وشخصت عيناه واحمرت، وبرزت أنيابه ومخالبه وأضحى وجهه كوجه المينجوراء! كان أسدا ذا لحية تنسدل إلى صدره فضية معقودة ومجدولة، فقال مُهابُ في شراسةٍ وحقدٍ يتوعد داجوراء بزئيرٍ يهزُّ الأفئدة هزا:

- ملك الغابات البيضاء .. أتتذكرني؟!!

فغر فاه داجوراء من هول المفاجئة واتسعت عيناه وسرت رعدة خفيفة في جسده وقال يصرخ وكأنه وجد كنزا يبحث عنه سنينا:

- أيها اللعين ها أنت ذا أخيرا! .. لقد سلكت الأحداث مسلكًا عجيبًا. سأجتث هذه العشيرة المهرطقة إلى الأبد!

امتلاً مُهاب غيظًا وكرهًا، فانقض عليه وشرع يضرب بسيفه بقوة يمينًا وشمالًا وداجوراء يتصدى بمطرقته وهو يشعرُ الآن بتكافؤ قواهما فازداد غضبًا، أخذ سلاحهما يتلاحمان فتتهتز ذرات الهواء والبيوت الثابتة حتى أخرج كل قوتهما في ضربةٍ واحدة فتخرج سلاحهما فلم يستطيعا أن يسيطرا عليهما فطارا في الهواء وسقطا بعيدًا عنهما، فنسيا سلاحهما وقررا أن يتقاتلا من دونهما فاندفع داجوراء إلى مُهاب، وطفق يلكمه ويخدشه بمخالبه الحادة كالسيوف ومُهاب يرد عليه بنفس الضربات، ظلت مخالبهما تتدافع وتتلاحم فتصدر صدى رهيب وشررًا كاللهيب.

وكز داجوراء مهابًا بيده فانخفض مهابٌ فتحاشاها وهو يجرح صدر داجوراء، فركله فتصدى مُهاب للركلة فخفف من أثرها وتراجع إلى الخلف بضع الخطوات وارتمى عليه ليمسك بساعده الأيمن ويدور به حتى قذفه بعيدًا فارتطم بأحد البيوت فإذا هو يخرج من وسط الحطام ويندفعُ مُسرعًا إلى مُهاب الذي انحنى والتف برجله فأسقطه أرضًا وقفز في الهواء لينزل برجليه على صدره فتدحرج داجوراء مائلًا عنه ووثب على رجليه وثبةً أخرى، فانطلق مُهاب إليه يحاول ركله فأمسك بداجوراء من قدمه ورفع في الهواء ونزل به على الأرض بقوة، فدُمّرت الأرض من تحتها تدميرًا ظلَّ هكذا مراتٍ حتى تركه، فاستبد الألم بمُهاب فتدحرج إلى الخلف مُسرعًا ليثب على

رجليه ناسياً ألمه، فإذا لكمّةً تباغته فأزاح وجهه عنها ووكز داجوراء في وجهه فرد عليه داجوراء بواحدةٍ في بطنه، فغرز مُهاب مخالبه في عضد داجوراء فاندفع الدم من ذراعه فزأر داجوراء في وجهه وركله فطار مُهاب إلى الخلف، فلحق داجوراء دمائه التي على ذراعيه وقال:

- لا أدري لمَ فضلت عشيرتك أن تظل على هيئتها البشرية، ولمَ تؤثرن التعفف، لمَ لا تتخلعون عن كينونتكم فتصيروا مثلنا؟! كنتم كالبشر قلباً وقالباً بل وامتلكتم هيئة المينجوراء المقدسة أنبياء النور، كنتم حلقة وصل بيننا وبين البشر الضعفاء ذوي المشاعر الحمقاء والأخلاق التي لا نفع يرجى منها، رفضتم قانون الغابة الذي أعلننا فوق الجميع وبه رُدت إلينا كرامتنا التي سلبت من قبل، لم تريدوا أن تفهموا أن هذا العالم لا يعرف الضعفاء ولا تنفع فيه إلا القوة، أوقفتمونا أن نحقق أهداف السيطرة على البشر وثبطمونا؛ لذلك كان علينا أن نُبيدكم لأنكم تعطلونا عن أهدافنا!

- إن حديثك هذا يذكرني بقوم لوط إذ قالوا "أُخْرَجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ". مشكلتكم أنكم تريدون العالم قلباً واحداً، كلٌ فيه مثل الآخر لا يميزه شيئاً، ولكنكم لا تدركون أن مهما انزع الإنسان عن كينونته وحقيقته سيظل إنساناً؛ فالسنوريات تنفرُ من بعضها بعضاً بل وتهمين الأسود على السنوريات الأخرى وتسرقُ منها طرائدها وتقتل أشبالها وأنتم لا تفعلون، تعيش الأسود في زمرٍ كل زمرة قليلة العدد منغلقة على ذاتها بل وحين يُسيطرُ أسد زمرةٍ أخرى على زمرةٍ ما يقتل أشبال هذه الزمرة كي ترجع اللبوة خصبةً فيستطيع الأسد بذلك أن ينشئ زمرةً جديدةً وأنتم على خلاف كل ذلك تعيشون في مجتمع واحد وليس زمراً. فإذا كنا نحن حلقة وصل بين المينجوراء والبشر، فأنتم إذاً حلقة وصلٍ بين السنوريات والبشر!

فار داجوراء من داخله، فإذا هو ينطلق إليه ليمسك بيده ويلويها وهو يلفها حتى وضعها على كتفه وضغطها إلى الأسفل حتى انكسرت فصرخ مهاب من الألم ولكنّه حرر نفسه وتراجع إلى الخلف وهو ينظرُ إلى ذراعه التي لم تعد ذات فائدة، فأدرك أنّ فرصته في النصر أصبحت أقل فدعا ربه واستمسك بنور الأمل، فانطلق إليه داجوراء سابقاً فلما أن دنا ارتمى عليه كأسدٍ ينقض على فريسته يُريدُ أن يغرز أنيابه في رقبتة، فاسلتقى مُهاب على ظهره فمرَّ

داجوراء من فوقه فرقع مهابُ رجليه وبرَز مخالبا فبقر بطنه ليرتطم داجوراء بأحد البيوت، اهراق الدُم من بطنِ داجوراء وهو ينظرُ إليه في سخطٍ وغضب، فاندفع كرهةً أخرى يريدُ أن يكسرَ ذراعَ مُهاب الأخرى ولكن مهاب قفز عاليًا وعقد رجليه حول رقبة داجوراء ونزل على الأرض يحاول أن يخنقه، فغرز داجوراء مخالبا في رجل مُهاب فزار من شدة الألم ولكنه تحمل الألم وظل يضيق على رقبته، فطفق داجوراء يغرزُ مخالبا في رجليه غرزةً تلو الأخرى حتى كاد يفقده الإحساس بهما، كذلك ظنَّ مهاب أنه سيفقد رجليه إن ظلَّ داجوراء يقرضها هكذا، فرقع يده وغرزاها في رأسه، فصرخ داجوراء صرخةً هزت الأرجاء فنفض رجل مُهاب المصابة نفضةً أزاحتها بيسرٍ عن رقبته.

وضع داجوراء يده على رأسه وأحس دوارًا شديدًا حتى كاد يفقد وعيه فتحامل على نفسه وتوجه إلى مهاب، الذي كان يزحف مبتعدًا لا يستطيع الوقوف على رجليه، فلما أن اقترب وطئ صدره برجليه وشرع يضغط عليه، أحس مهاب أن روحه تُنتزع، فغرز مخالبا في رجليه فتراخت فدفعها عنه وأوقعه برجليه المقروضة وقفز عليه يعضه في رقبته حتى زار زئيرًا فظيغًا ارتجت له دمشق حتى سكت وانطفأت شرارة عينيه ليخر جثة هامة.

الظلام

وإذ يركض مروان وزاهوراء يتتبعه من فوق المباني يطارده بنباتاته؛ صنع مروان حائطاً ليعرقل النباتات عن التقدم، فإذا زاهوراء يقف أمامه ففرع مروان، فشكّل أربعة نسخ رملية وأطلقهم على زاهوراء فخرجت نباتات كالصبار من الأرض وقذفت آلاف الأشواك فأضحت نسخه تراباً في مهب الريح، فلما أن نظر زاهوراء لم يجد مروان، فقال في ضجر بصوتٍ يُشبه المواء:

- توقف عن حيلك هذه، وقاتلني مباشرة!

خرج مروان من خلف أحد البيوت واستل خنجره منطلقاً إليه، فعلم زاهوراء أنها هي نسخة فنظر خلفه فوجد مروان يتسلل إليه فأخرج عليه نباتاته، فإذا هي نسخة أخرى فسقط في يد زاهوراء فنظر أمامه نظرةً أخرى فإذا الذي ظنه نسخة هو مروان نفسه يباغته بخنجرٍ في صدره فتفادها وما كاد يفعل، فجرحه الخنجر في ذراعه، فقال ساخطاً وهو يتألم:

- لقد خدعتني مرتين، ولكنك أخطأت خطأً شنيعاً إذ خرجت بنفسك!

فاندفعت إليه النباتات مسرعةً وطوقته وطفقت تعصره فأحس جسده يكاد يتحطم. أزاح زاهوراء الخنجر عنه يريد أن ينهي القتال وقذفت مروان قذفة على الحائط أنت منها عظامه أنما فسحبت النباتات سحبةً أخرى وهوت به ثلاثاً على البيوت التي حولهما حتى دمي وجه مروان ونزف جسده وانشرخت بعض عظامه وأحس وعيه ينسحب تدريجياً فأخرج زاهوراء نباتاً لاحقاً برزت أنيابه فتأهب لابتلاع مروان فقال زاهوراء هازئاً:

- إنك لست بأشدّ قوةً من ذلك المهين الذي يصفونه بإمام البركة الأقوى،
سأمتص قوتك كلها كما امتصت قوته ثمّ أترك نباتاتي العزيزة تتغذى
عليك!

تحامل مروان على نفسه وقال بتناقل:

- سحقاً لك أنت ونباتاتك!

غضب زاهوراء وقال يستهجن:

- كلّم بلهاء لا تقدرون الطبيعة حق قدرها ولا تفقهون جمالها. للطبيعة حياة
كما لنا حياة، وإنما تفهمني وأفهمها وتهمس لي وأهمس لها وتشعُر بي وأشعر
بها وتواسيني وأواسيها.. أما أنتم فلا تشعرون بها وتتغذون عليها وتحرقونها
وتقطعون أشجارها ولهذا فكائنات سفيهة مثلكم لا تستحق هبات الطبيعة.
والآن على أن أودعك حتى أتفرغ للبحث عن والدك المزهو بنفسه وأقضي
عليه.

فاذا مروان يبتسم بألم قائلاً:

- ها أنت ذا أغضبت والدي بكلامك مذليل، وما هذا في صالحك!

فاذا قوة عظيمة يحسها زاهوراء خلفه، فالتفت فاذا الذهبي ينظر إليه نظرةً
جامدة كالثلج، فتراجع إلى الخلف من فزعه يقول:

- أئى هذا وقد امتصت كل قوتك؟!!

انكفتت رياحٌ لدى كفه فأطلقها على زاهوراء فأحسّ كأن القوة والطاقة التي
سلبها من الذهبي تؤخذ منه فأهوى نباتاته إلى الذهبي، ولكن الرياح في كف
الذهبي اندفعت ويكأنها طلقة منجنيق طيرته بعيداً، فأخرج نباتات التفت حوله
فخفت من سرعته حتى سكن، فقال الذهبي وقد نفذ صبره:

- الآن قد استعدت ما هو ملكي.

تحرر مروان من قبضة النباتات واقترب منه أبوه ومرر يده على جسده
فشفيت بعض جراحه وألقى عليه سيلاً يُسكن ألم جسده حتى يستطيع أن
يستأنف القتال.

وقف مروان وهو يحس ببعض طاقة تسري في جسده فنظر إلى الذهبي نظره ذات دلالة وانطلقا إلى زاهوراء الذي دُعر فأخرج نباتات عددًا وكأنهم آلاف الثعابين، فرفع الذهبي سبابته وقال:

- غسق الليل!

فإذا هالةٌ سوداء تملأ المكان حتى تغشتهم أجمعين، فصاح الذهبي من بين الظلام قائلاً:

- تحتاج نباتاتك أشعة الشمس كي تقوم بوظيفتها. فذق الآن الظلام الذي أدقته لأهل دمشق!

أدرك زاهوراء المأزق الذي أمسى فيه، ففعل رؤيته الليلية فرأهما يقفان الناحية الأخرى، فأطلق نباتاته صوبهما فلما أن تغشتهما تلاشيا فعلم زاهوراء أنهما كانا سرايبًا، فاستنشق الهواء ليشم رائحتهما فلم يجدهما، فقال:

- لقد أخفيا رائحتهما بالسيل المبارك، ولكن مهما صنعا فإن دفاعي بالمرصاد!

لمح زاهوراء شخصًا يمرُّ من على يمينه فباغته فإذا هو سرايب، وبدأ يسمع صدى همهمات وضحكات، ويلمخ أناسًا يسيرون من حوله ويختفون، كذلك ظلَّ الوهم يلاعبه حتى أدرك أنهما يريدان أن يصيباه بالهلع ليرخي دفاعاته ولتهلك نباتاته. أحس أن وقته بدأ ينفد، فنباتاته قد بدأت تنن طلبًا لضوء الشمس، فأخرج نباتًا ينفث السم في كلِّ اتجاه حتى يستنشقوا بعضه وهم لا يعلمون وحبس أنفاسه، ولكنه لاحظ أن الأعيبهم لم تتوقف فعلم ألم يصيبهم السم فأغتاظ وحن جنونه فزار زبيرًا رهيبًا فطفقت نباتاته تهاجم كل ما حولها هجومًا عشوائيًا في سرعةٍ يستحيل أن يجتنبها أحدٌ ومعها نباتات أخرى تقذف آلاف الأشواك، وكذلك استمرت ضرباته حتى تغشاه الإنهاك، فتوقف وأنشأ يحاول يلتقط أنفاسه. سكنت نباتاته وعادت إلى الأرض بعد أن استهلكت كل قوتها، فإذا هو يسمع نفس الهمهمات والضحكات، فأحس أنه يدور في حلقة مفرغة.

باغتته نسخًا أخرى فطفق يضربها حتى أحسَّ طاقة خلفه فالتفت فإذا الذهبي يرفع كفه ويخرج ضوءًا شديدًا غشي عيني زاهوراء بعد أن اعتادت الظلمة،

فأثرت هذه الصدمة الضوئية على عينيه فانعدمت رؤيته، فأحس عينيه تحترقان فلم يقو على فتحهما، فجعل يركض على أطرافه الأربعة يحاول أن يبتعد حتى يرتد إليه بصره، ولكن مروان كان قد أعد له سلاسل عرقلته فأسقطته أرضاً، ولكنه قام يركض كالأعمى في تجاهٍ آخر، فلما أن اقترب من الذهبي دون أن يراه ضم الذهبي كفيه معاً وأرخی مرفقيه فأخرج من بين كفيه موجة رياح فاصطدمت الموجة به فطيرته بعيداً فردّه مروان إذ اقترب بموجةٍ أخرى، كذلك ظلا يتقاذفانه ويكأنه كرة يلعبون بها حتى قفز الذهبي عالياً وجمع الهواء لدى رجليه ونزل على جسد زاهوراء فارتطم بالأرض بقوةٍ رجت جمجمته وتلبد بالأرض وفاهه فاغر والدماء تتقطر من كلّ جسده، فقال لنفسه وقد استبد به حُزنٌ عميق:

- وداعاً يا أطفالي، يبدو أن أباكم لن يراكم مرة أخرى ولكني واثقٌ أنكم ستندبرون أموركم وحدكم.

كانت النباتات تنن لموت أبيها فخرجت بالمئات من الأشجار والزهور والجذور والنباتات الغريبة والتفت حول هالة الظلام ولكنها لم تستطع الدخول لتتقذ أباهما، فاهتزت وربت وعزفت لحناً حزيناً رثاءً لأبيها الذي يجلس على شفى الموت، ولو رآها في هذه اللحظة أحد لامتلاً منها رعباً وولى الأدبار.

أحسّ الذهبي ومروان بأصواتِ النباتاتِ وغضبها وحزنها فاختبأ وبعدها أزال الذهبي الظلام عنهما فتوجهت النباتات وأحاطت زاهوراء والتفت حوله وكأنها تُحنطه وأنينها يزدادُ وهو يفارق الحياة، فأخذت تسحب جثمانه إلى أسفل الأرض حتى ينضم إليهم ويتحلل فيصبح جزءاً منهم ثم اخنفت جميعاً وكأنها لم تكن.

نظر الذهبي إلى مروان المندهش الذي كان ينتظر أن يثنى عليه أبوه فإذا هو يلكمه على رأسه في غضب قائلاً:

- أردت أن تقا تل هذا الشيء وحدك أيها الغبي!؟

قال مروان متذمراً بعد إذ ألمه رأسه:

- ولكني كدتُ أقضي عليه المرة الماضية!

- أكانت هناك مرة ماضية؟! -

اشتد غضب الذهبي وضربه على رأسه ضربةً أخرى وقال يحذره:

- إنك لا تدركُ حدودَ قوة تلك المخلوقات!

- أتعرفهم يا أبي؟

- نعم أعرفهم، فلديهم تاريخ طويل مع البشر ما يعلمه إلا قليل، ولئن لم تهرب مني لتعلمت عنهم وعن غيرهم الكثير!

ضربه الذهبي على رأسه مرةً أخرى حتى أحسَّ مروان أن رأسه تورمت فتألم وقطب حاجبيه في انزعاج وقال:

- أهذا جزاء أني ساعدتك؟! على أية حال، لمَّ جاء جيش بغداد يساعداً؟ هذا غريب أن تتدخل بغداد في شؤون غيرها من البلاد في فترة الضعف التي نحن فيها!

- لقد حدث الكثير منذ غيابك ولكني لمَّا علمت أن للمينجوراء يدًا فيما يجري إذ وصفت هيئة التماثيل في رسالتك أصررت ناصحًا المستقوي أن نذهب لنقضي عليهم لئلا يحققوا مبتغاهم فيغزوا الأرض مرةً أخرى كما فعلوا في الماضي السحيق. ورغبته في الانتقام من قحطان الذي شق عصا الطاعة وانفصل عن بغداد بل وحاول غزوها، وبعد إلحاح طويل وافق المستقوي.

- أوغزوها المينجوراء من قبل؟! -

- نعم منذ زمنٍ بعيد وأفسدوا فيها إفسادًا لا تتحمله العقول، ولئن حصلوا على السيف الأسود المخفي هنا فسوف يبدأون عصر فسادٍ آخر.

فدُعر مروان إذ تذكر سندباد، فقال لأبيه في عجلة:

- يا الله إذا علينا أن نساعد سندباد حالاً، فلعل أحد المينجوراء يقاتله الآن ليسلبه السيف!

تعجب الذهبي إذ علم أن السيف الأسود مع سندباد، فهو لم ير سيفه إلا في غمده ولم يلحظه في الحرب وهو يُقاتل، فأمسك بمروانٍ من كتفيه وقال وهو بدنه يرتجف:

- لم لم تنبؤوني أنكم عثرتم على السيف الأسود؟!

- لم أك أظن أنك تعلم عنه شيئاً!

- غبي. هلم بنا فلئن لم نسرغ لتكونن العاقبة وخيمة!

عاد الببغاء إلى كتف مروان بعد أن فر طوال المعركة وظل مختبئاً خوفاً أن يأكله زاهوراء، فرمقه مروان قائلاً:

- جبان.

نقره الببغاء على رأسه قائلاً:

- أنت الجبان.

كاد مروان أن يفتعل شجاراً معه لكن الذهبي سحبه من ملابسه فذهبا مسرعين حيثما تفرقوا، فوجدا مُهاباً قاعدٌ على جانب الطريق وهو مثخن بالجراح وبجانبه داجوراء مقتولاً، فتعجب الذهبي أن استطاع مهاب أن يقضي على هذا المخلوق المهيب وحده! استطاع الذهبي وابنه بالسيل المبارك والأعشاب أن يوقفوا النزيف ويغلقوا الجراح ولكن ظلت آثارها بارزة خصوصاً في رجله، وكان مهاب على هيئته البشرية لذلك لم يعلما عن سره شيئاً، ولما أن انتهيا من علاجه سارعا إلى سندباد فإذا أناس يضمّدون جراحه، وأناس ينظرون عن كئيب إلى ميزوراء في خشية.

فناداهم سندباد قائلاً:

- حمداً لله أنكم انتصرتم يا رفاق! أيها الشيخ المغرور عالج ميزوراء من قبل أن تعالجني فإن جراحه قد أثخنه، فقال مهاب مستنكراً:

- ألم يمت بعد!

فقال الذهبي:

- كلا ما زالت استشعر الحياة في بين صدغيه.

فتأجج مهاب غضباً وأراد أن يُنهي حياته، فإذا سندباد يقول وهو على الأرض لا يقدر على الوقوف:

- مهاب! توقف هو ليس مثل الاثنين الآخرين، إنّ فيه بعض الخير والتعقل والميل لنا!

فلم يعبأ مهاب بكلامه لطغيان إرادة الانتقام فيه، فمرر الذهبي يده عليه فثبته في مكانه حتى يعالجاه هو ومروان، فلما أن عالجاه هو وسندباد طلب الذهبي من مروان ومُهَاب أن ابقيا معه حتى يفيق وسأذهب أنا لأفتح البوابة كي يدخل جيش البغداد، وشدد الذهبي على مهاب قائلاً:

- لا تنهور ودعنا نستجوبه فنعرف منه سبب قدومهم إلى هنا ولما يرغبون في السيف الأسود.

فهدأ مهاب، ونظر الذهبي إلى السيف الأسود الذي استقر بجانب سندباد ومد يده يحاول أن يلمسه يريد أن يتأكد من صحة الأساطير المنسوجة حوله، فأحس قوة هائلة مُظلمة تخرج منه كادت تُهشم يده وتسحق روحه فأبعدها ونظر إلى يد سندباد فأدرك لم لم يقدر أحدٌ أن يحمل السيف غيره، فأعجب من شجاعة صديقي مروان وإصرارهما على قتال مخلوقات يهابها أكثر مخلوقات الأراضي السبعة.

أفاق ميزوراء بعد حين، فقال له سندباد:

- ألم أقل لك أنني سأهزمك؟!

أحسّ ميزوراء أن جسده مُكبّل بشيء ما خفي فعلم أنه من فعل الذهبي، فقال من بين أسنانه:

- كيف لي أن أهزم من مخلوقٍ ضعيفٍ وضعيعٍ مثلك؛ يبدو أن مرضي هو السبب!

- كلا، فصاحبك هزمهما صاحباي وهذا يثبتُ خطأ معتقدكم، لذلك أدعوك أن تعيد حساباتك .. وإعلم أنني على وعدي. سوف أذهب حتى آتي لك بالعلاج!

أطرق ميزوراء من دون أن ينبس ببنت شفة ينظرُ إلى السماء الصافية وخالجه مزيجٌ غريبٌ من المشاعر الرنانة، فقال يُحدث نفسه:

- أبعد كل ما عانيته لأصل إلى ما وصلت إليه، ينتهي كل شيء بهذا اليسر كأن لم أغنْ بالأمس! ما الذي جنيته إذاً بعد كل هذا الوقت من القتال المتواصل غير الألم والخسارة أمام من ظننا أنهم أقل منّا قوةً وشراسةً وحكمةً؟! إنَّ هذه الحياة لمريية!

فنظر إلى سندباد وقال مُتعباً:

- تأتي لي بالعلاج! تساعد عدوك! يا لك من امرئٍ غريب .. أعترف أنك هزمتني ولكني لا أعدك أنني سأتغير ولكن الآن أدركت أن البشر ليسوا بفريسةٍ سهلة لنا وأنا لسنا أنبياء لا تقهر كما ظننا، لذلك فوعدي الوحيد لك هو أنني سأبحث أكثر وأتعلم لعلني أفهم قوتكم هذه التي تنبع من شيء يتخطى إدراكنا وفهمنا. امض في طريقك يا فتى لعلنا نلتقي لما أجد الحقيقة وأعالج مرضي.

ابتسم سندباد ونظر إلى السماء قائلاً:

- إن شاء الله نلتقي مرةً أخرى بعد أن تجد سبيل الحق.

كان سندباد يعلم أن ميزوراء يأبى أن يعترف صراحةً عما في داخله، وأنه سوف يحتاج وقتاً حتى يعترف أنه كان غارقاً في الكبرياء والأنفة.

حينها كان علي بابا يسير مع أبيه بين الحواري يحاول تذكر مكان تلك الثغرة التي كان يهرب منها إلى الصحراء وهو صغير كي يهرباً فإذا أبوه يقول وهو مُصرُّ:

- لا يجب علينا أن نهرب، فلنعد إلى القصر وننه هذا الصراع إلى الأبد!

- ولكن يا أبا لا القوة ولا العدد يسمحان بذلك!
- إنَّ قحطان ليس امرأً ذكيًا، سيظنُّ أنا سنهرب ولن نعود أبدًا، لذلك لن تكون الحراسة مشددة لدى القصر!

31

النَّصر

تسلل علي بابا وأبوه بين الحواري ليصلا إلى القصر فلما أن وصلا وجدا الحراس قليلين كما توقع المنصور، فقد انقسم جنود الملك فريقين: فريقًا لدى الأسوار ليصدُّوا جيش بغداد عن الاقتحام، وفريقًا يبحث في المدينة عن الذهبي ومن معه.

سارا إلى القصر فأوقفهما حارسان فاستل علي بابا سيفه وقضى عليهما، ودخلا القصر فاعترضهما بضعة جنود فقضى عليهم، وسلكا الردهة الكبيرة التي تؤدي إلى غرفة العرش فلما أن فتحا الباب وجدا قحطان مُطرق الرأس يجلس متوترًا على العرش، ففرع منهما فنادى جنوده أن اقضوا عليهما، فأخرج علي بابا حبله العجيب ورماه فإذا هم معًا به مقيدون، فأخرج قحطان سيفه في دعرٍ يقول:

- لئن اقتربتما أيها الملعونان لتكونان من المقتولين!
- فار علي بابا من داخله غضبًا فأراد أن يقتله، فأمسكه أبوه وحضه أن لا يتدخل بينه وبين أخيه، فخاف عليه علي بابا فقال:

- ولم تخاطر بنفسك يا أبا! ذرني أضرب عنقه وأريح الناس منه.

- دعني أرجوك أصلح ما أخطأتُ بيدي!

فأخذ أبوه السيف منه واستعد للقتال وهو يقول متأسياً:

- لقد تغشاك الظلام يا أخي، وكأخٍ أكبرٍ عليّ أن أكشفه عنك!

نظر إليه قحطان مُمتعضاً كارهاً وقال بعصبيةٍ مُفرطة:

- اصمت أيها المارق أنا لست بأخيك، كان عليّ أن أقتلك منذ زمن بعيد!

حزن المنصور وأحس قلبه يكاد ينفطر وهو ينظرُ كيف أضحي وجهُ أخيه كالحا وجسده سميناً، ولكن كان أكثر ما يعذبه أنه كان سبباً فيما آلت إليه الأمور، فقال ووجهه يقطر حزناً:

- آسف لأنني أخطأتُ إذ أرسلتك إلى فزع ما وراء البحر العظيم، ولكن هل يستحق ذلك أن تفعل بنا ما فعلت؟!

- نعم، بل إن كل من سُفك دمه في رقبتك أنت وليس أنا، ألم تكذبني إذ حذرتك مما وراء البحر العظيم قائلاً إن هي إلا أساطير وأباطيل افترها الناس؟ ثم أرسلتني لأنك لا تكثرث إلا بملكك!

- وما فعلت أنت، أعالجت خطأي أم جنئت بما هو أشنع؟! إنك ابتدعت مذهباً جديداً وجلبت المينجوراء إلى أرضنا، وقتلت زوجتي أمام عيني أنا وابني، وقتلت العزل وجعلت الناس في سكرٍ ودناءة، وسمت قومك سوء العذاب ..

فلما أن أصاب المنصور كبد الحقيقة أحسَّ قحطان أساساته تزول، ولكنه أثر أن يستمر في غيه، فرفع سيفه وانطلق ليضرب المنصور فصد ضربته وتراجع إلى الخلف، فاستكمل قحطان ضرباته المتتالية دون توقفٍ وعلي بابا يقف في توترٍ يمنع نفسه من التدخل ليقضي على قحطان البطيء السمين أن يفتك بأبيه الذي أضحي ضعيفاً من قلة الطعام والشراب وسوء العذاب.

كان المنصور يميلُ بسيفه لتتحرف ضربات قحطان عن جسده ولا تُثقل عليه، وإذ يرى ثغرةً في دفاع قحطان يستغلها ويصيبه ببعض الجروح، غضب قحطان لأن أخاه العجوز أثخنه جراحاً فجعل يضرب ضرباً سريعاً عشوائياً، فتوتر المنصور لأنه لم يستطع أن يحتوي ضرباته بنفس الطريقة فأخذ يصدّها فنُتقل على جسده الضعيف حتى ألمه معصمه فأحس أنه سيسقط سيفه عما

قريب، أمسك قحطان بالسيف بكلتا يديه ونزل به على منصور فتراجع عنه فهوى السيف على الأرض فلم يقدر قحطان أن يقف من انحنائه بسبب وزنه فاستند بيده على الأرض يحاول أن يقف فلما أن رفع جسده بعد عناءٍ نظر إلى المنصور فإذا سيفه ينغرز في قلبه، بصق قحطان الدماء على كتف منصور وأحس حرارةً شديدة عند قلبه، فقال المنصور والدموع تنهال من عينيه:

- لقد سجنت نفسك يا أخي في هذه الحياة الدنيا وجعلتها منتهى بصرك وغاية وجودك، وجعلت كل آمالك حياة الترف والتعم، أردت حياةً فارهة ليس فيها تنغيص ألمٍ فلماً أن مسك ضرراً لم تُرد أن تدفع ضريبته بأن تصبر، إن الله قد أمرنا أن نصبر في دار الابتلاء يا أخي لذوق نعيم الآخرة؛ إنك إن صدقت هؤلاء الوحوش لأضحيت شهيداً ولأضحت روحك في جوف طيرٍ تسرخ من الجنة حيث شاءت، ولكنك رضيت بالحياة الدنيا من الآخرة وجلبتهم إلينا وقطعت أرحامك وأفسدت في الأرض. انظر كيف أضحي وزنك سبباً في هلاكك ويكأن الله سلط عليك شراحتك. ها هي الحياة التي استمسكت بها تخلت عنك وسحبت بساطها من تحت رجلك وتركتك هائماً تنتظر أن تنتزع روحك إلى الواحد القهار. ألا تبصر الآن كم هي تافهة ولا تستحق تنازعنا السخيف الذي انغمسنا فيها غمساً فنسينا أننا مستخلفون في الأرض استخلاف حفظ وصيانة على منهج المدبر العليم وليس استخلاف ملكٍ وفساد، نسينا أن الدنيا ليست دار مقامٍ ونعيم حتى فوجئنا بتذكرةٍ مُرّة تكون هي الأخيرة لنعلم أننا وعد الله حق .. الوداع يا أخي. يا ليتك ثبتت قبل هذا!

أحسَّ قحطان المكان يتلاشى من حوله وأحسَّ وعيه ينسحب تدريجياً، ورأى ملكه الذي بناه باستعباد غيره يتشظى ويطير في الهواء بلا رجعة، مرت حياته أمام عينيه مرَّ السحاب بطلوها ومرها فعرض له الشر الذي أنزله بأخيه وقومه فنظر ويكأنه شخصٌ محايد يشاهد حياة شخصٍ آخر ويعطي عليها حكماً فأحس بالخزي والعار مما قدمت يداها، وها هو الموت الذي كان يتحاشاه قد جاءه ليقبضه فلا يعود بعدها أبداً، فامتلاً رعباً وحرزاً وأيقن أنه سيعاقب عقاباً أليماً على كل ما فعله، أراد أن يصرخ ويطلب السماح لتكون له كرة أخرى فيُصلح ما أفسده ويعمل صالحاً فيما ترك ولكن هيهات. انسلت

الدموع من عينيه وظلت هذه الآية تتردد في ذهنه وروحه تنتزع "وجاءت
سكرَةُ الموتِ بالحق ذلكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ".

أخرج المنصور السيف من قلب أخيه وهو يحسُّ ويكأن السيف يخرج من
قلبه هو، فإذا جسد قحطان ينحني عليه وهو يبكي ويقول هامساً والكلام لا
يكاد يخرج من فمه:

- سامحني .. لقد كنت أبلهاً وأذيتك وقومنا!

سقط قحطان على الأرض مفارقاً للحياة، فسقط المنصور على ركبتيه ووضع
كفه على عينيه وطفق يبكي بكاءً شديداً فانطلق علي بابا إليه وضمه بيديه
يحاول أن يخفف عليه ألمه، فأطرق علي بابا وهو يحسُّ بمزيجٍ من الفرح
والحزن فقال لنفسه:

- هذه نهاية كل الظالمين .. "الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ".

الحرية

فتح الذهبي بوابة دمشق بعد أن أزاح العقبات عن طريقه فدخل جيش بغداد إلى المدينة ليعلن سيطرته عليها، وأعلن علي بابا من شرفة القصر عن موت قحطان، فاختلج أثر هذا الخبر في جند دمشق فمنهم من تزعزعت عزيمته فاستحبوا الاستسلام على المقاومة، ومنهم من كان يكتُم إيمانه ففرح لخبر موته، انتشر الخبر في كل أنحاء البلد، فسُرَّ جُلُّ أهل دمشق وحزن المنتفعون لأنهم موقنون أنّ مالهم الذي اكتسبوه سيُحجر عليه وسيحاكمون وأن نعيم المينجوراء سينجلي ويزول، فحاول بعضهم الفرار ولكن قبض عليهم عامة الشعب وسيقوا إلى السجون ليذوقوا بعض الذي أذاقوه للناس.

أخذ الجميع ينقل في أنحاء المدينة خبر سقوط قحطان وحقيقة المينجوراء التي كانت تتأمر على دمشق وكيف هُزموا على يد بعض شباب بغداد، فخرج الأطفال يهللون وانتفضت دمشق فرحًا وكأنما انجلت سحابةً سوداءً كانت تقبع في سمائم طوال هذه السنين.

وإذ دلف العبيد إلى بلادهم أحسوا قلوبهم تختلج في ضلوعهم فرحًا بعودتهم إلى أرضهم وبيوتهم التي حُرِّموا منها، فبكى بعضهم من فرط سعادته وضحك بعضهم واحتفل البعض الآخر وهم لا يصدقون أنفسهم، استمر

احتفال الناس إلى الليل بأبطالهم الذين أنقذوهم من براثن الطغيان، كان سندباد نائمًا يومًا كاملًا من شدة تعبته فاستيقظ على صوت الاحتفالات الصاخبة، فتفقد جروحه فوجدها قد شُفيت، فقام وتوجه إلى الخارج فألقى نفسه في القصر الملكي ويحرس غرفته اثنان، فسألها عما يجري فأخبروه فابتهج سندباد واطمئن قلبه فتوجه إلى غرفة العرش حيث كان يجلس صديقه وبعض قادة بغداد والشام وعلي بابا والمنصور فسمعهم يتناقشون في أمر من يحكم البلاد، فلما أن رأوه انبسطت أساريهم وذهبوا إليه ليسندوه وهم يثنون على شجاعته، ثم انشغلوا مرةً أخرى في أمر الحكم، فتدخل سندباد قائلاً:

- أرى أنّ علي بابا يستحق أن يكون السلطان.

قال علي بابا معترضًا:

- أنا لست بأهلٍ لهذه المهمة!

اعترض مروان عليه قائلاً:

- بل إنك أهلٌ لها!؛ فلولا ذكاؤك وحكمتك في قيادة أصحابك وتوجيههم ما وصلنا إلى هنا!

- أرض المعركة تختلف عن رعاية شؤون الناس وهذا ليس اختصاصي لقد تعودتُ على التنقل في الصحراء والمخاطرة بحياتي وأصبح هذا جزءًا من كينونتي، أرى أن أبي أحقُّ بالملك مني فهو الخبير ههنا وهو من صبر على هذا البلاء بعد أن سلب مُلكه منه!

قال المنصور بصوته الهرم يعترض:

- أنا!، من بعد ما آلت إليه الأمور!؟

- نعم، أنت يا أبي فما من أهلٍ لها إلا أنت!

- لقد شِخْتُ يا بني ولم أعد قادرًا أن أتحمّل هذه المسؤولية الكبيرة، ثمّ ألا تنسى ما فعلت!

فعلّق الذهبي قائلاً:

- إن السنين قد علمتك فلن تكرر أخطاءك مرةً أخرى .. أرى أنك الأنسب لهذه المهمة، ذلك لأنك ذو خبرةٍ وتعلم كيف تدار البلاد، وقضيت السنين بين قومك فأحسست بما يحسون به لذلك لن تظلمهم أبدًا، ثم إن قومك يحبونك لأنك ساندتهم ضد قحطان، فاجعل حكمك كفارةً لك وتعويضًا لهم على ما ذاقوا من عذابٍ .. ولا تنسَ أن دمشق ستتنضم إلى حكم بغداد التي ربما تستعيد مجدها من جديد، لذلك إن حدث شيئًا سنهب لنساعدك إن شاء الله.. لقد سلمت الحاميات في كلّ مدن الشام وأصبحت الآن تحت أمرك. أصبحت الشام موحدة مُجددًا وانضمت إليها بغداد ولعلها بداية الخير.

استسلم المنصور أمام كلمات الذهبي، ولكنّه كان يخاف الجلوس على العرش لأنه يذكره بذكراتِ أليمة، ولكنه أدرك أن عليه تحمل المسؤولية من أجل شعبه.

وافق المنصور على مضمضٍ، فسأله الذهبي سؤال يؤرقه:

- ما الذي جعل قحطان يبلغ هذا القدر من الدناءة وهو أخوك وتربى معك ونشأتما في نفس الدار؟!

سكت منصور قليلاً وطرق الحزن قلبه، فتنهد قائلاً بنبرةٍ كئيبة:

- إن أبي كان ملكاً جباراً، تسلط على رقاب الناس وأنهك الدولة في حروبٍ لا طائل من ورائها، وتعاون مع الأعداء ضد إخوته وكان مثلاً سيئاً في تربية طفلين بريئين مثلنا، كان ونحن صغيران كلما استنكرنا فعلا من أفعاله يضربنا ويقسوا علينا، وكانت أمانا تحمينا منه حتى ماتت من شدة ما ألم بها فترك هذا جرحا غائرا في قلوبنا، ويبدو أنه من كثرة الابتلاءات لم يعد يهتم إلا أن يعيش حياة لا كرب فيها، فجعل كل أحلامه وأمانيه لا تجاوز هذه الحياة، لقد فقد إيمانه مُبكرًا لكنّه أخفى ذلك. فكل مكرٍ له مرفوض يجب أن يقتلع، لذلك وقع ما وقع.

هز الذهبي رأسه، وقال وهو يمرر يده على لحيته:

- لله في خلقه شؤون؛ فأنتما عانيتما نفس الأمر ومررتما بنفس الظروف ولكنك أصبحت ذا شأنٍ عظيم وهو أصبح خسيساً، وإن كان هذا يُشير إلى

شيء فإنه يشير إلى قوله تعالى "بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ". وهذا يثبت أن الإنسان ليس نتاج بيئته فحسب، تذكرني هذه الحالة بحال أهل الفترة الحنفاء كزيد بن عمرو بن نفيل، أولئك خالفوا عقائد بيئتهم فالذين من حولهم كانوا إما وثنيين وإما نصارى وإما يهود أما أمثال زيد فكانوا على الحنيفية أي على دين إبراهيم عليه السلام.

هز منصور رأسه وشرد يُفكر في الكثير من الأمور.

قرر سندباد ورفيقاه أن يمكثوا يومين لتستريح أجسادهم ثمَّ يكملوا رحلتهم التي بدأوها ليزوروا جزيرةً أخرى، وذهب مُهاب إلى السجن ليقابل ميزوراء، ولما أن خرج من زنزانته تاركًا ميزوراء في حيرةٍ تكاد تعصف به، التفت إليه برأسه قائلاً:

- أردتُ أن أقتلك ولكن يبدو أن سندباد رأى شيئاً فيك لم أره .. والآن بعد أن أخبرتك الحقيقة سأنظر ماذا أنت فاعلٌ.

توجه مُهاب إلى أصحابه في القصر فجلسوا على أسرتهِم في غرفةٍ كبيرة لها سرائر وثيرة . فقال مروان وهو يتنأب:

- يا الله لقد كانت رحلة مرهقة جداً .. لم أتوقع أن نتكبد كلَّ هذه المشاق!

ضحك سندباد وقال والحماس يتأجج داخله:

- وهذا هو جوهر المغامرة، أن تواجه أمورًا لم تخطر على البال، هذا ما يجعل المغامرة مغامرة.

علق مُهاب على كلامه قائلاً وهو يتدثر:

- أتمنى إذاً ألا تكون رحلتنا القادمة مغامرة إن كان هذا هو تعريفك للمغامرة!

ضحكوا جميعاً فقال سندباد ليستفز مُهابا:

- وهل تخاف من الوحوش يا مُهاب الصغير!؟

أمسك مُهاب بوسادته وضرب سندباد بها قائلاً:

- وهل تريدنا أن نمر بكل هذه المتاعب مرةً أخرى كي تسميها مغامرة!؟

- في الحقيقة لا .. ولكنني أثارُ حين أتذكر كل ما حدث، وأظنُّ أن هذه مغامرة رائعة أرويتها لأبنائي وأحفادي ولكل العالم .. سأروي لهم كيف أوقفنا هذه المخلوقات الأسطورية، وكيف عبرنا الصحراء المسحورة وكيف قابلنا كيثار وعبرنا اختباره لنحصل على هذا السيف المسحور، وكيف قاتلنا ضد هذا الملك الظالم وهزمتنا المينجوراء الذين كانوا يستعبدون البشر، وكيف استعدنا دمشق وحطمتنا الأوثان؛ أليست هذه قصة تستحق أن تُروى؟!!

نظر سندباد حوله فإذا مُهاب ومروان قد غطَّا في نومٍ عميق، فقام غاضبًا من على سريره وصرخ فيهما قائلاً:

- أيها الغيبان أني لكما أن تناما وأنا أتحدث عن إنجازاتي؟! سألقنكما درسًا لن تنسياه!

أرسل علي بابا إلى سكان الكهوف أن عودوا إلى بيوتكم فقد أرجعها الله لكم، وطلب منهم أن يجلبوا شيئًا كان يعملُ عليه لسنين.

جاؤوا فرحين ودخلوا دمشق آمنين وجلبوا لعلِّي بابا ما أراه.

نادى علي بابا على عز الدين الذي سلب جُند قحطان قدمه وأخرج له قدمًا خشبية صنعها له، وفرح بها عز الدين كثيرًا فأجلسه علي بابا وركبها فقام يمشي بها فرحًا وينظر إليها وإلى الجمع من حوله في غبطةٍ وسرور.

فرح الذين فُطعت أطرافهم بصنعة علي بابا ودنوا منه فأعطى كلَّ من ينقصه طرفًا خشبيًا.

اقترب المنصور من عز الدين ووضع يده على كتفه قائلاً:

- ألم أقل لك أن وعد الله حق وأن الفرع قريب؟ لكنك لم تصبر.

نظر عز الدين إلى الأرض في خجلٍ فقال المنصور:

- منذ اليوم أنت حاجبي يا عز الدين، ذلك لتعلم أن من يتقي الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب.

فرح عز الدين فرحتين في يومٍ واحد ولم يكد يصدق كلَّ هذه النعم التي أتته بغيته. كأن الدنيا أتته مرغمة خاضعة وهو لم يطلبها. ذرف الدمع حتى ابتلت لحيته وسجد إلى الله شكرًا ودموعه تنهمر على الأرض.

وإذ انقضت مدة مكث الرفاق قرروا أن يرحلوا دون أن تشعرُ بهم حامية بغداد حتى لا يضطروا إلى لقاء المستقوي، وقرر مروان أن يهرب مجددًا وأبوه نائم لئلا يوقفه عن استكمال رحلته، فطلب منهم علي بابا أن ينضم إليهم في مغامرتهم التالية فهو قد ألف الترحال ولا يمكنه البقاء في دمشق، فاستوقفه أبوه قائلاً في حزن:

- أترحل وتتركنا يا بني؟!!

نظر علي بابا في حرجٍ إلى الأرض وقال له باحترام وتهذيب:

- نعم يا أبتاه، فمكاني ليس هنا .. أريد أن أجوب العالم لعله يريحني من بعض الذي رأيته هنا .. أريد أن أترك هذا المكان مدةً حتى يستقر قلبي ثم أعود وأبقى حتى أتوفى، ومن يدري لعلني أجدُ في الخارج من يحتاج أن يتحرر من نير العبودية فنحرره كما تحررنا نحن!

ابتسم منصور فأوماً برأسه متفهماً كلام ابنه واحتضنه قائلاً:

- وفقك الله على فعل الخيرات وأعانك على مساعدة عباده المستضعفين، ونصرك على القوم الظالمين، وأعادك سالمًا .. اعتن بنفسك وبأصدقائك فهم خير الأصدقاء!

- بإذن الله يا أباي، وأنت اعتن بنفسك وبقومك ولا تحزن بعد اليوم؛ فإن الله معنا.

ودعا بعضهما بعضاً فطلب المنصور من جنده أن سيروا معهم إلى هديتهم، ثمَّ لحقهم وهم في طريقهم العشرون لصًا يطلبون من علي بابا أن يصحبهم في رحلته فهم لا مكان لهم إلا معه وتحت قيادته، فوافق علي بابا بعد إلحاح منهم فسروا أنهم سيجوبون البحر معه، ووافق سندباد على قدومهم وهو لا يعلم كيف سيأخذ كلَّ هؤلاء القوم معه في رحلته دون سفينة.

ولما أن وصلوا إلى الميناء وجدوا سفينةً كبيرةً جميلةً ذات لونٍ بني يميل إلى الأحمر ومزخرفة بزخارف نباتية جذابة، وعليها بعض صناديق الذهب والطعام والبضائع المختلفة، اتسعت أعينهم من الدهشة وشعر سندباد أن الله قد عوضه عن سفينته التي غرقت في البحر. تنسم علي بابا نسيم البحر العليل والنوارس تحلق من فوقه والشمس تبرزغ في الأفق والبحر يلمع كحبات اللؤلؤ وقال:

- إنها الكهرمانة الجديدة. لقد وهبها أبي لك.

لم يصدق سندباد نفسه فاحتضن علي بابا بقوة حتى كاد يحطم عظامه وقال بصوتٍ أسمع الميناء كله:

- لقد بُعثت الكهرمانة كالعنقاء من بين الرماد.

جعل الأصحاب يركضون في أنحاء السفينة ليستكشفوها والسعادة تملأهم، فابتسم علي بابا من كرم أبيه، ثم وضع سندباد يده على الدفة وقال يأمر كل من في السفينة وهو متحمسٌ مترقب يتذكر ما كان عليه الحال من قبل:

- جهزوا الأشرعة واربطوا الحبال جيِّداً، واستعدوا للإبحار!

انطلق اللصوص ينفذون الأوامر ويتخذون أماكنهم في السفينة من بعد أن اتفقوا عليها، ووقف مروان يراقب البحر من أعلى واستند علي بابا على سور السفينة وتبسم وهو ينظر إلى جمال البحر، وكان مُهاب يوجه اللصوص حتى بدأ سندباد يقود السفينة مبتعداً عن الميناء والناس يحيونهم بحرارة؛ استند مُهاب على مقدمة السفينة واستنشق هواء البحر العليل، ونظر علي بابا نظرةً أخيرةً إلى دمشق فحزن قليلاً ولكنه اطمأن لأن معركته الطويلة قد انتهت أخيراً.

وإذ ارتفعت الشمس قدر رمحٍ وألقت بأشعتها الذهبية عليهم لتشعرهم ببعض الدفء والأمان ولتطبع البحر بلونها الجميل فيلمع كقطعة لؤلؤ؛ صرخ سندباد قائلاً وهو يشير بأصبعه إلى الأمام:

- فلننطلق إلى مغامرتنا التالية!

فإذا هم يسمعون صوتاً صياحاً أُرهب قلوبهم يقول:

- مروااااااااااان.

انقبض قلب مروان فنظر خلفه فإذا أبوه الذهبي يركض على الماء يحاول اللحاق بهم ويقول صائحاً وهو محتقن العينين:

- ارجع أيها الفتى وإلا حطمت رأسك تحطيمًا!

لم يكد مروان يبتلع ريقه من الهلع فقال وهو شاحب الوجه وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما:

- يجب أن نفر حالاً! جدفوا بأقصى قوتكم!

فغر فاهم وهم يرون الذهبي يركض على الماء وكأنه يجري على الأرض، فشرعوا يُجذفون بأسرع ما لديهم، فألقى مروان ببعض التراتيل على البحر فخرجت بعض الأسماك الصغيرة وانقضت على الذهبي فشنته فقال وقد أحتقن وجهه بالدماء:

- أتريد أن تهرب من أبيك أيها العاق! لأقيدنك في أحد الأعمدة سنة كاملاً!

ذعر مروان فجعل يُلقي بكلّ قدرة يراها في كتابه فتقاذرت الأسماك الصغيرة في وجه الذهبي فلم يستطع أن يراه فأشاح بيده فابتعدت الأسماك عنه فإذا أخطبوط عملاق يخرج أحد أذرعه من أعماق البحر مُمسكاً برجله فثبطه، فسمع مروان صياحاً أخيراً قبل أن يبتعدوا يقول:

- مروااااااااااان!

تنفس مروان الصعداء وأحسّ أنه أزاح حملاً ثقيلاً من على كاهله، فضحك سندبادٌ وهو لا يصدق نفسه قائلاً وسط تعجب كل من على السفينة:

- أجعلت الأخطبوط يُمسك أباك أيها العاق!؟

- كلا! إن هذا إلا لأؤخره حتى أهرب!

روض الذهبي الأخطبوط وعاد إلى الشاطئ، فنظر إلى الأفق فإذا السفينة قد نأت فابتسم وتنهَّد قائلاً:

- أن لي أن أعترف أنك كبرت وألقيت بنفسك في المهالك حتى تنقذ أصدقائك وتنقذ أهل الشام. واجهت المينجوراء ببسالة وساعدتنا على انقاذ الشام وضمها إلى بغداد مرة أخرى! يا لك من فتى شقي مقدام لا يهاب الموت. ولكني ما زلت أخاف عليك. ولئن وقع لك ما وقع لأخيك من قبل فإني لن أسامح نفسي أبدًا!

حين وصلت أنباء هزيمة الأنبياء الثلاثة إلى (مالوك) ملك المينجوراء غضب غضبة شديدة وأقسم لينتقم من البشر أشد الانتقام على قتل ابنه وأقوى قادته، وأقسم ليحرقن الأرض ومن عليها حرقًا حتى يظفر بالسيف الأسود، وإن كلفه قتل كل إنسان على وجه البصيرة، فجيش الجيوش استعدادًا لغزو عالم البشر.

وقف شابٌ يرتدي رداءً أخضر مزخرف من صوف وسرولاً أبيض وحذاءً بنيًا ويغطي وجهه ورأسه بعمامة بيضاء وخضراء، كان يقف في سهلٍ أخضر واسع وينظر إلى البحر الذي كان يلعب في الأفق تحت أشعة الشمس الحمراء، فأمسك بمصباحه الذهبي المنقوش ومسح عليه مسحًا رقيقًا فاهتز المصباحُ وأخرج بخارًا، فقال الشاب:

- لقد خرج السيف الأسود إلى العلن وقد تكون وجهته التالية إلينا أيها الجني .. هل الذي يحمله سوف يزيد العالم ظلمًا وخرابًا؟ أم سيصلح الفساد الذي نقشى؟! هذا ما سوف نعلمه حين يأتي.. أسمع يا صديقي، لقد حان الوقت!

خرج الجني الأزرق بجسده الضخم ورأسه الأصلع اللهم إلا من جديلة وله ذقن مدببة. قال بنبرة جهورية:

- لقد شعرتُ به يا علاء الدين.

تمطى شهريار بجسده ولمعت عيناه ببهجةٍ وسرور فقال بلهفةٍ:

- أكمل لي القصة يا شهرزاد ناشدتك الله. ماذا حدث بعد ذلك؟

تثأبت شهرزاد وأرخت جسدها على السرير الناعم وقالت:

- هذه قصة ليومٍ آخر أيها الملك السعيد.

غطت شهرزاد في النوم، فتنهد شهريار وأطفأ القناديل وغط في النوم معها، وحين أشرقت الشمس انسل دخان أزرق من الشرفة إلى غرفته ثم تجمع الدخان وتلاحم مكوناً جنياً أزرقاً عريض المنكبين مفتول العضلات له ذقن مدببة وجديلة شعر واحدة وسط رأسه الصلعاء تتدلى إلى رقبته، شعر به شهريار فاستيقظ من النوم ونظر إليه نظرة تطق شرراً.

قال الجني بصوت يشبه فحيح الأفعى وعيناه تلمعان وسط الظلام:

- إن مُلكك في خطر أيها الملك السعيد. إنهم قادمون.

وقف شهريار فزعاً ودارت به الأرض ثم تمالك نفسه وقال يهمس حتى لا تستيقظ شهرزاد:

- من يهدد ملكي أيها الجني؟ أخبرني الآن والإلا...

رفع شهريار قبضته فلمعت عدة خواتم بين أصابعه باللون الأحمر والأزرق والأخضر والأصفر.

قطب الجني جبينه وقال بصوته المبحوح:

- لا تهددني بهذه الخواتم، فما جنتك إلا لأحذرك خوفاً عليك وعلى مُلكك. إنهم أبناء السماء يا مولاي.

اتسعت عينا شهريار وتجلى الفرع على قسّمات وجهه فهرول إلى الشرفة وفتحها وأطل برأسه خارجها فأبصر في الأفق سفناً ذات أشرعة عظيمة

تُحلق في السماء بمراوح كبيرة ترفعها تملأ المساء بضجيجها وترهب الطيور
فتفر منها فزعة وفوقها لمح شهريار من حولها رجالاً ذوي أجنحة كبيرة
عريضة وبشرة بيضاء تلالاً في شعاع الشمس الذهبي، فأسقط في يد شهريار
وقال:

- أيّ سحر هذا الذي يجعل السفن تحلق في الهواء؟ والرجال يحلقون أيضاً
بأجنحةٍ كأجنحة الملائكة؟

رفع شهريار قبضته فتوهجت الخواتم على أصابعه ثم صاح قائلاً:

- أيها الجن أخبروا الجيوش أن تستعد، وتجهزوا للمعركة.

تمت بحمد الله

أعمال الكاتب:

سلسلة العالم الجديد:

الجزء الأول (ظلال أطلانتس)

الجزء الثاني (عرش أطلانتس)

الجزء الثالث (قلب أطلانتس)

سلسلة صدمة كونية: (الملاك الأسود)

سلسلة عصر الأبطال: (الغراب)

الأعمال المترجمة:

الظل خارج الزمن (هوارد فيليبس لافكرافت) مع دكتور أحمد تركي.

2 – جني الرمال (إيديث نيسبيت) مع حمزة ماهر.

3 – اللعبة الأكثر خطرا (ريتشارد كونييلو)

4 – تقرير الأقلية (فيليب ك. ديك)

5 – المانح 2 (قطف الأزرق) (لويس لوري)

6 – العيش دون وقود عاطفي (جونيس ويب)

7 – دليلك للنجاة من اضطراب الشخصية الحدية (أليكس تشابمان وجراتز)

8 – يعرِّجُ على حقوها (عماد الدين عيشة)

للتواصل مع الكاتب:

<https://www.facebook.com/profile.php?id=100074065835786>